الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة وهران السانيا

كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية

قسم الحضارة الإسلامية

العفة في القرآن الكريم

دراسة و صفيه بيانية

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في اللغة والدراسات القرآنية

إعداد الطالب:

محمد رافـة

إشراف الأستاذ الدكتور:

الجيلالي سلطـاني

أعضاء لجنة المناقشة

الأستاذ الدكتور قدور إبراهيم مهاجي..... رئيسا

الأستاذ الدكتور الجيلالي سلطاني..... مقررا

الأستاذ الدكتور عبد القادر سليماني..... مناقشا

الأستاذ الدكتور العربي قلايلية..... مناقشا

السنة الجامعية: 2008 - 2009

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة وهران
كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية
قسم الحضارة الإسلامية

جامعة وهران
مصلحة الرسائل الجامعية
المكتبة الجامعية المركزية

العفة في القرآن الكريم

دراسة وصفية بيانية

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في اللغة والدراسات القرآنية

من إعداد الطالب :
محمد رافة

تحت إشراف الأستاذ الدكتور:
الجيلالي سلطاني

لا يستعار

أعضاء لجنة المناقشة

الأستاذ الدكتور : قدور إبراهيم مهاجي.....رئيسا
الأستاذ الدكتور : الجيلالي سلطاني.....مقررا
الأستاذ الدكتور : عبد القادر سليماني.....مناقشا
الأستاذ الدكتور : العربي قلايلية .....مناقشا

السنة الجامعية : 2008 / 2009

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى :

" وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ "

يوسف :23

وقال أيضا :

" قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ "

يوسف : 33

الإهداء

إلى والدي الكريمين اللذين أعترف لهما بالفضل والجميل في غـــذائي الفكري والوجداني.

إلى زوجتي الكريمة وأم أبنائي التي لم تبخل علي بالتشجيع ، ولم تتـــردد يوما في مدّ العون والمسا عدة وتوفير لي جو البحث وإن تطلب ذلك منها التنازل عن حقوقها .

إلى أساتذتي الأفاضل الذين أعتبر نفسي أنّي مدينٌ لهم ، وأقف أمامهم وقفة إجلال وإكبار.

إلى كل من له فضل عليَّ من قريب أو بعيد أهدي هذا الجهد المتواضع .

شكر وتقدير

يُحتِّم علينا واجب العِرفان بالجميل ، إلى التَّوجه بالشُّكر و التقدير إلى أساتذتي الأفاضل الذين لم يبخلوا عنا بالنُّصح الخالص والتوجيه السديد .

و في مُقدِّمتهم أستاذي الفاضل المشرف :

الأستاذ الدكتور الجيلالي سلطاني الذي أشكره جزيل الشكر على تقبله الإشراف على هذا البحث - خلفا لأستاذي الفاضل الدكتور أحمد حساني - و الذي لم يأل جُهدا في إرشادي و توجيهي الوجهة الصحيحة ، رغم انشغالاته الكثيرة.

كما لا يفوتني أيضا أن أتوجه بالشكر و التقدير إلى اللجنة العلمية المناقشة على سعة صدرها و صبرها على قراءة هذا البحث ، بُغية تقديم ملاحظاتها القيمة و إرشاداتها النيرة التي تُلهمنا السَّداد ، و التي لا نشك أن الأخذَ بها سبيل إلى الارتقاءِ بهذا البحث ، الذي يبقى في كل الأحوال ، جهدا بشريا لا يخلو من السلبيات.

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة :

الحمد لله الذي أنزل القرآن تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة للعالمين .
والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وسيد الخلق أجمعين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

اقتضت حكمة الله تعالى ، أن يكون الإنسان متميزا في خلقه وتكوينه عن سائر المخلوقات الأخرى ، يجمع بين الجانب المادي المتمثل في التسوية من طين والجانب الروحي المتمثل في النفخة الروحية الإلهية .

قال تعالى:" فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾

الحجر: 29

ومن بديع صنعه ودلائل قدرته ، أن أمدَّ النفس البشرية التي هي جوهر الإنسان بالاستعداد والقابلية للتوجه للخير أو الشر بما ركب فيها من عناصر القوة والضعف وما ألهمها به من أسباب الهداية والضلال.

وقدر للإنسان حظه من البلاء ، فإذا هو ممتحن بقوتين ، قوة مشاعر الخير والفضيلة التي تجذبه إلى السمو الروحي والترفع ، وقوة الشر والرذيلة تهوي به إلى الحضيض

قال تعالى :" وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ "

الشمس:10/7

فالإنسان ليس ملاكا كريما ولا شيطانا رجيما ، ذلك لأن الأول مجبول على الطاعة مترہ عن المعصية ، بحكم العصمة وانتفاء الغرائز والشهوات فهو بهذه الصفة في غنى عن تزكية النفس ، وأما الثاني فلعدم جدواها فهوميئوس من رحمة الله إلى يوم الدين .

قال تعالى : " وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ ص:77

ومما لا شك فيه أن القرآن الكريم بجميع أغراضه عقيدة و تشريعا وأخلاقا و قصصا ، يهدف إلى غرض أسمى هو هداية البشر إلى طريق الخير ، والأخذ بأيديهم إلى طريق النجاة .

قال تعالى: " الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ "

البقرة : 1

وإن تحصيل الإنسان لأسباب سعادته وفوزه في الدارين الدنيا والآخرة يمر حتما بتزكية النفس وتهذيبها بتخليصها من صفاتها السلبية التي جبلت عليها وهو ما يعرف بجهاد النفس وحقيقته أنه صراع المرء للتغلب على غرائزه وشهواته الجامحة والحيلولة بينها وبين وصولها إلى قلبه وتمكنها منه فيصير أسيرها ومعبودها وإذا وصل الأمر إلى هذا الحد يمكن الحديث عن مرض القلب ، فالمطلوب وقاية القلب والحيلولة دون إصابته والعمل على سلامته من الشبهات والشهوات .

قال تعالى : " يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾

الشعراء: 88 /89

وقـــــال أيضـــــا : " وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ۝ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ "

الصافات: 84/83

وهذا الصراع على جانبين :

أ - جانب تطهير القلب من الشبهات واحلال محلها الإيمان الصادق

ب - جانب تطهير القلب من الشهوات لا بكبتها وقتلها بل بضبطها وحملها على الاعتدال من غير إفراط ولا تفريط وفق الشرع والعقل ويكون ذلك بكبح جماحها حال الشره ، وإثارتها حال الخمول بما يحقق الحكمة التي خلقت من أجلها .

تسليط الضوء على ميدان الجبهة الثانية والتي تمثل صراع المرء للتغلـــب على غرائزه وشهواته ، وتمكنه من ضبطها بالقدر الذي تؤدي به الوظيفـــة الـــتي خلقت من أجلها هو جوهر موضوع بحثنا " العفة في القرآن الكريم "

ويقتضي من ذلك الوقوف حلى جملة من المسائل:

أولا: طبيعة النفس البشرية وما جبلت عليها من صفات يعين على فهم حقيقـــة هذا الصراع ، لذا أ فردت لهذا البحث فصلا كاملا قبل الولوج إلى موضوع العفة كما جاءت في القرآن الكريم

ثانيا: معرفة المنهج الذي يستمد منه المرء قوته للتغلب على ضعفه وغوائل شهواته ؟ وإذا أردنا تحديد الإطار النظري للدراسة ، فإن العفة تندرج في الجانب الأخلاقي أو القيم الأخلاقية التي هي واحدة من أغراض القرآن الكريم ومحاوره إلى جانـــب العقيدة والتشريع والقصص، نقول ذلك تجوزا ذلك أن القرآن الكريم وحدة متكاملة ترتبط فيها العقيدة بالأخلاق ، والأخلاق بالعبادة والتشريع ،وفي ثنايا القصـــص دعوة للعقيدة ونماذج ومُثل عليا للأخلاق الفاضلة يضاف إليها اشتراكها في وحدة

المقصد ، فالقرآن الكريم بجميع أغراضه جاء لهدف أسمى هو هداية البشـــر والأخذ بأيديهم إلى شاطئ النجاة .

قال تعالى : " وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ "

الأعراف : 52

موضوع العفة في حدود علمنا لم تتناوله الدراسات السابقة القديمة منها و الحديثة ، وتفرده كبحث مستقل غير أن ياقوت الحموي في كتابه : "معجم الأدباء" ذكر أن أبا عبيدة معمر بن المثنى(ت 210 ﻫ) له تصانيف تقارب المائتين (200) منها "كتاب العفة " غير أني لم أقف عليه ، أو كتاب "فضيلة العفة وضبط النفس" رسالة ماجيستير قدمها :طلخان شريف طلخان من جامعة الأزهر الشريف عام 1939 م

وفي مرحلة الجمع وقفت على كتاب بعنوان" العفةكما تبينها سورة الحج والمؤمنون والنور والفرقان " ليوسف كمال محمد دار العلم القاهرة، وقد بدا لي من خلال العنوان أنه أقرب الدراسات إلى موضوع بحثنا ، غير أن قراءتي لمتن الكتـــاب تبين أنه تفسير موضوعي لما جاء في السور المذكورة آنفا وأن العفـــة لم تـــذكر إلا بصورة سطحية وفي سياق الحديث عن دلالات الآية عليها .

وباستثناء ذلك فإن موضوع العفة جاء متناثرا في كتب الأخلاق والتربية وفلسفة الأخلاق ، وعلم النفس ، والمشتغلين بالجانب الروحي من الصوفية وغيرهم نذكر منها :كتاب "تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق "

ما لابن مسكويه (ت421 ﻫ) وكتاب "أدب الدنيا والدين " للماوردي (ت 450 ﻫ) وكتاب"إحياء علوم الدين " لأبي حامد الغزالي (ت505 ﻫ) في ربع المنجيات وكتاب "طريق الهجرتين وباب السعادتين " لابن قيم الجوزية (ت751 ﻫ) وكتاب "موسوعة أخلاق القرآن" لأحمد الشرباصي وكتاب " الأخلاق" لأحمد أمين .

غير أن هذه الدراسات وإن استفدت منها كثيرا وكانت مادتي الأولية في إنجاز هذا البحث المتواضع ، إلا أنها تناولت الموضوع وعرضته بطريقة فلسفية حينا ، وفكرية ووجدانية حينا آخر، وقد التزم بعضهم في طريقة عرضها ،الدقة العلمية في التعامل مع المصطلحات ، و اكتفى البعض الآخر بالعموميات وفي أغلب الأحيان كانت تورد نتائج وأحكاما تفتقر إلى التأصيل أو الاستدلال ، أو هي مواجيد يجدها سالكو طريق العفة ، لا ترقى إلى الدراسة العلمية بالمعنى الدقيق . مما يجعل القارئ يقف منها موقف التحفظ ناهيك عن الباحث الذي لا يمكنه إثباتها ولا إنكارها فيرضى منها بالاستئناس وتلكم هي واحدة من الصعوبات التي تعترض الباحث.

ماحقيقة العفة ؟ وما هي أبعادها ومجالاتها ؟ وما هي المقاييس الواجب توافرها في المرء حتى يوصف بالعفة ؟ ثم ما الطريق لاكتساب خلق العفة ؟

نتوخى من هذا البحث الإجابة عن هذه الأسئلة في ضوء آيات القرآن الكريم ،وقد اتبعت في ذلك "المنهج الاستقرائي "

استقراء النصوص التي تناولت موضوع العفة في القرآن الكريم للوصول إلى المعنى الكلي لحقيقة العفة في القرآن الكريم.

يقتضي ذلك منا لدراسة العفة كخلق ومظهر سلوك ،تتبعها كموضوع وكمصطلح قرآني باستقراء آياته ، واستنطاق ألفاظه ومفرداته ، وبيان دلالاتها اللغوية واستعمالاتها المختلفة الأصلية والتوسعية أو المجازية ثم تتبع مجيئها في القرآن الكريم للوقوف على دلالاتها ومعانيها ونختار منها ما يناسب السياق الذي وردت فيه بالاستعانة ما أمكن بعلوم اللغة وقواعدها من علم الدلالات وعلم البيان وغيرها ليتم فهمها وبيانها وفق ما يعرف بقواعد تفسير النصوص.

من أين ستكون الانطلاقة لدراسة موضوع العفة في القرآن الكريم ؟
هل تكون بدراسة الآيات التي تناولت موضوع العفة كما جاءت في المعاجم الموضوعية ، والتي صنفت الآيات القرآنية حسب الموضوع ؟
أم تبع ورود لفظ "العفة " مادة واشتقاقا في الآيات القرآنية من معجم ألفاظ القرآن الكريم ودراستها ؟ وهما طريقان .

يبدو أن الطريق الأول المعتمد على الآيات التي تناولت موضوع العفة من المعجم الموضوعي ليس هو الطريق الصحيح أو على الأقل الأمثل ، ذلك لأن اعتماده هو تسليم وحكم مسبق على دلالات هذه الآيات على الموضوع هذا من جهة ، ومن جهة أخرى الاختلاف والتباين بين هذه المعاجم الموضوعية ، فضلا عن أنها في الكثير من الأحيان تجمع الآيات الدالة على أكثر من موضوع لتقاربها نحو " العفة والإحصان "

وعليه فالتفسير الموضوعي للمصطلح على ما يبدو هو الأصلح ويكون يتتبع المصطلح واشتقاقه في الآية القرآنية واستحضارها مرتبة حسب النزول ذلك لاستخلاص الأبعاد الجديدة والمتجددة للعفة وتطورها والوقوف على مجالاتها ، ثم استخلاص الحد المشترك الجامع لمعنى العفة وحقيقتها من الآيات المجتمعة والمانع من دخل غيرها فيه.

والذي دفعني لاختيار موضوع العفة جملة من الأسباب والدواعي :

أولا : موضوع العفة شغل فكري ووجداني منذ زمن باعتباره خلقا رفيعا يعبر بحق عن صفاء النفس وحسن السريرة ، يتحرك هذا الشعور في كياني كلما قرأت سورة يوسف عليه السلام المثل الأعلى للعفة في جميع مجالاتها ، تلك الشخصية التي استطاعت أن تجعل من ضعفها قوة ومن إيمانها بالله تعالى ويقينها فيه حاجزا تتكسر

عليه جماح الغرائز والشهوات وهي في أوجها ليخرج في الأخير منتصرا في محنة اجتمعت فيها كل عناصر القوة ، قوة الدافع ، قوة الإثارة ،حتى صارت العفة هيئة راسخة في نفسه قادرة على مقاومة شهوات النفس وكبح جماحها ،لا في مجال شهوة الفرج فحسب بل تعداه إلى شهوة المال فيقول وبثقة كبيرة فيما حكاه عنه الله عز وجل: " قَالَ ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ ۝٥٥

يوسف :55

ثانيا : إن المتأمل في واقع أمتنا اليوم وما آلت إليه من فقد لعزها وكرامتها ، وما أصابها من ذل وهوان وهي تحمل بين ظهرانيها كتاب ربها الذي هو رمز قوتها ومصدر سعادتها فلم يخطئ الشاعر في تصوير حلها حين قال :

كالعيس في البيداء يقتلها الظما *** والماء والزاد فوق ظهورها محمول

فما الذي يحول بينها وبين التزامها منهج كتاب ربها ،لا شك أنه إتباع الهوى وإيثار العاجلة على الآخرة ؟ أي شهوات الدنيا وملذاتها على نعيم الآخرة .

قال تعالى : " كَلَّا بَلۡ تُحِبُّونَ ٱلۡعَاجِلَةَ ۝٢٠ وَتَذَرُونَ ٱلۡأٓخِرَةَ ۝٢١ "

القيامة: 19 /20

ووصف رسول الله ﷺ هذه الحال بالوهن عند تشخيصه للداء وأرجع أسبابه إلى حب الدنيا وكراهية الموت. وحب الدنيا إنما يقصد ما فيها من المتاع والشهوات

فمصدر كل هم ، ورأس كل خطيئة ، هو إتباع الشهوات ، فبات المخرج هو سلوك طريق العفة.

ثالثا : وعلى مستوى الفرد ، تجد المرء يسمع الموعظة البليغة فيتأثر بها ، قلبه يخشع عينه وتدمع لما فرط في جنب الله ، ثم يعزم على التوبة والإقلاع عن المعاصي ،

وسرعان ما يتراخى عما عزم عليه ، وإذا استقام لم يلبث على هذه الحال ليعود مرة أخرى إلى المعصية ويستسلم لضعف نفسه ، فما الذي يحول بينه وبين الاستقامة ؟

لا شك أنها شهوات النفس فيتأكد مرة أخرى أن المخرج هو سلوك طريق العفة

رابعا: من المعروف أن الغريزة الجنسية تنمو وتتحرك في سن مبكر، قبل اكتمال القدرات العقلية التي تؤهل المرء لبدء الحياة الزوجية وتحمل تبعاتها ومسؤولياتها ، والزواج هو الأسلوب الذي ارتضاه الله لعباده للتكاثر والتناسل ،وإشباع الغريزة الفطرية ، وفي انتظار ذلك تشكل الغرائز مشكلة حقيقة ؟

قال د/عبد الله صالح علوان في كتابه تربية الأولاد في الإسلام :" ماذا يفعل الشباب إذا رغبوا في الزواج والمال غير متيسر لديهم...إنهم يريدون أن يستجيبوا لدواعي الغريزة بالرباط المقدس ولكن تحول دونهم عقبات وعقبات"

إذا كان هذا في الظروف العادية، فإن الأمر يزداد تعقيدا عندما يتأخر الزواج ، وتفتح أبواب الفتن على مصراعيها لتحريك الغرائز والشهوات الكامنة بشتى طرق الإثارة والإغراء . سلوك طريق العفة بات هو المخرج.

خامسا : انطلاقا من كون أكثر المعاناة ، وأسباب الشقاء والتعاسة، وطغيان الجانب المادي على الجانب الروحي مرده إلى العدول عن القيم الأخلاقية التي تعد العفة من أبرزها بل من أسسها .

بيان حقيقة العفة ،مجالاتها وطريق اكتسابها من مصادرها الصحيحة بات أمرا ضروريا.

صحيح أن الوقوف على القيم الأخلاقية ومعرفة الخير والشر ، الحق والباطل ، المعروف والمنكر.. لا تجعل بالضرورة من الإنسان عبدا صالحا يحقق معنى

الخلافة في الأرض، لأن ذلك يتوقف على أمور أخرى ، غير أنها تبصر المرء وتمكنه من معرفة الخير آثاره الشر وعاقبته ؟ بل ويكون لها التأثير في توجيه أعمالنا الوجهة الصحيحة كما أنها تشجع على إيجاد الإرادة والرغبة إذا فقدتا .

فالوقوف على قصة يوسف عليه السلام المثل الأعلى للعفة ،وغيرها من قصص القرآن الكريم الحاملة لمعان القيم الأخلاقية الرفيعة له وقعه الخاص في النفس البشرية .وللنفس البشرية منافذ شتى لا منفذا واحدا ، ويختلف الناس اختلافا بينا في التجاوب مع المؤثرات ، لذا تنوعت الأساليب التربوية وتعددت ليصادف المؤثر طبيعة النفس .

وليس بالضرورة أن تستجيب كل نفس لنفس المؤثر تتجاوب معه ،بل وإن استجابت جميعها لا تكون على درجة واحدة من الاستجابة وتلك سنة الله في خلقه

إن قصة يوسف عليه السلام في موضوع العفة ،وخروجه منتصرا في كل محنة، تمثل النموذج العملي الذي يكسب الجانب النظري قوة وبعدا جديدين ، أدناه زوال اليأس من كون هذه المثل والمبادئ السامية والقيم الأخلاقية العالية مجردة ولا وجود لها إلا في التصور والمخيلة .

فالموعظة البليغة والأسوة الحسنة إذا اجتمعا يجعلان الأثر في النفس أقوى وأعمق .

وقد اقتضت صيغة الموضوع أ ن أقسمه إلى أربعة فصول تسبقها مقدمة وتلحقها خاتمة .

شملت المقدمة الحديث عن أهمية الموضوع ، والمنهج المتبع أسباب ودواعي اختياره جعلت **الفصل الأول** الذي عنونته بطبيعة النفس البشرية كما جاءت في القرآن الكريم بمثابة مدخل وذلك تمهيدا للدخول إلى صلب الموضوع العفة في القرآن

الكريم ،لاعتقادنا أنه لا يمكن فهم حقيقة العفة وبيان أبعادها دون الوقوف على طبيعة النفس البشرية كما خلقها الله تعالى بصفاتها السلبية والإيجابية وقسمته إلى مبحثين تناولت في المبحث الأول بعضا من الصفات السلبية كالضعف والهلع وحب المال والجاه وللشهوات، وفي المبحث الثاني الصفات الإيجابية كالإيمان الفطري وامتلاك النفس الاستعداد للبيان ، وقابليتها للترويض .

وأما **الفصل الثاني** فتناولت فيه العفة في اللغة والاصطلاح وقسمته إلى ثلاثة مباحث خصصت المبحث الأول للعفة في اللغة حيث تتبعت في معنى العفة في أمهات المعاجم اللغوية القديمة منها والحديثة مرتبة حسب الترتيب الزمني لبيان ما أضاف اللاحق على السابق . وخصصت المبحث الثاني للعفة في الشعر العربي باعتباره مدونة العرب ومخزون التراث اللساني العربي . بينما المبحث الثالث لمعناها الاصطلاحي عند أعلام العلماء القدامى والمحدثين كابن مسكويه والراغب الأصفهاني والماوردي وأبو حامد الغزالي وأحمد أمين والشرباصي وحبنك الميداني وغيرهم .

وفي **الفصل الثالث** العفة كما جاءت في القرآن الكريم تتبعت الآيات التي تناولت العفة مع ذكر المصطلح وهي محصورة في أربع آيات أوردتها مرتبة حسب النزول لدراستها مع الاستعانة بعلوم اللغة العربية وكتب التفسير لاستخلاص معنى العفة من الآيات مجتمعة . وفي **الفصل الرابع** والأخير تناولت فيه النموذج العملي والتطبيقي للعفة في أسمى معانيها عفة سيدنا يوسف عليه السلام ، عفة استوفت شروطها وأركانها من قوة الإثارة وقوة الدافع ، وسر خروجه منتصرا في جميع المحن التي ألمت به وأشدها محنة المراودة - مراودة امرأة العزيز له عن نفسه -

وفي خاتمة البحث تعداد وذكر لجملة النتائج التي خلص إليها البحث وبالله التوفيق.

الفصل الأول

طبيعة النفس البشرية
كما جاءت في القرآن الكريم

الفصل الأول

طبيعة النفس البشرية كما جاءت في القرآن الكريم

لا شك أن الوقوف على طبيعة النفس البشرية كما خلقها الله تعالى وما جبلت عليه من صفات وغرائز وميول واستعدادات ، يوطئ الطريق أمامنا لفهم حقيقة العفة بجميع أبعادها ، وبيان مترلتها بين الأخلاق الإسلامية ، ومعرفة قدر العفيف المتعفف ، والسالك لطريق العفة .

هذه الطبيعة الفطرية يشترك فيها الناس جميعا على اختلاف أجناسهم وألوانهم وألسنتهم بداءة ، ثم يتباينون فيما بينهم بعد ذلك ، تبعا لتعاملهم مع هذه المعطيات الفطرية .

فالإنسان قُدِّر له أن يحمل في تركيبته الصفات الإيجابية والسلبية معا .فهو بهذا ممتحن بقوتين :

صفات إيجابية تسمو به في بلوغ الغاية التي خلق من أجلها ، إن هو أحسن استغلالها وزكاها ، وسار بها مسار الاعتدال والوسطية من غير إفراط ولا تفريط .

وصفات سلبية تجذبه إلى الحضيض ، فيفقد معها كل ميزات تكريمه، إن هو استسلم لها ، وضعف عن مقاومة شرورها وغوائلها .

فالضعف والهلع والجزع والحب الشديد للمال وحب الذات وحب الشهوات هي صفات سلبية ، بينما الإيمان الفطري وامتلاك الإنسان الاستعداد للبيان ، وقابلية النفس البشرية للترويض، هي صفات إيجابية [1]

[1] – تقسيم الصفات الفطرية إلى سلبية وإيجابية ، أورده د/عبد الحميد محمد الهاشمي في كتابه " نحات نفسية في القرآن الكريم " ، مكتبة رحاب الجزائر، د ت ط ، ص 74 وما بعدها

والحقيقة أن تقسيم الصفات إلى سلبية وإيجابية فيه نوع من التَّجوُّز ، ذلك لأن إطلاق وصف الإيجابية على بعض من الصفات التي هي من طبيعة النفس البشرية ، وبالسلبية على البعض الآخر إنما هو نسبي ، أي نسبة إلى ما تؤول إليه فيما لو تركت على فطرتها دون أي تدخل لعوامل داخلية -نابعة من داخل الإنسان-أو خارجية كتدخل الأسرة والمحيط وغيرها .

لقد ساد الاعتقاد أن الغرائز والشهوات هي مصدر كل بلية ومدخل كل انحراف وضلال ، ذلك أنه ما " ذكر الإنسان في القرآن ،إلا ونوازع الشر به أقوى تعلقا وأشد لصوقا ، وصفات البشرية أظهر فيه وأقوى وضوحا ، وإنما يتطهر منها بالتهذيب " [1]

والحقيقة أن الله عز وجل أودع في الإنسان وركب فيه جملة من الغرائز والشهوات ، لتكون حافزا له في بلوغ الغاية التي خلق من أجلها. وأن المطلوب منه فقط تهذيبها وضبطها وفق العقل والشرع ، لا بإطلاق العنان لها والاستسلام لجماحها

تهذيب الغرائز والشهوات لا يعني بأي حال من الأحوال ،كبتها وقتلها لأن ذلك تكليف بما لا يطاق.

فالرهبانية ليست أقل جُرمًا من الفسق وإتباع الشهوات ،ولا شك أن القاسم المشترك بين هذا وذاك ، هو إتباع الهوى ليس إلا.

إن غرائز الإنسان وشهواته بقدر ما هي مصدر للشقاء وخيبة الأمل بقدر ما هي مصدر للسعادة والفوز في الدارين الدنيا والآخرة .

[1] - الإمام حسن البنا ، " أحاديث الجمعة " ، دار الشهاب باتنة الجزائر ، ت ط 1988 م ، ص22

فالمسألة مرهونة بشخصية المرء ذاته ومدى قوة إرادته في المجاهدة ، التي لا شك أنها تستمد قوتها من الإيمان بالله تعالى .

تلك القوة الإيمانية التي جعلت الرسول ﷺ صمد بعزم وثبات أمام المغريات وشهوات الدنيا وهي تعرض عليه تباعا - من مال وجاه ومُلك - في مقابل التخلي عن دعوته فيقول : " **يَا عَمُّ ، لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي عَلَى أَنْ أَتْرُكَ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللهُ أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ ، مَا تَرَكْتُهُ** " [1]

تلك القوة الإيمانية التي حالت دون استجابة يوسف عليه السلام لفتنة اجتمعت فيها كل عناصر القوة – قوة الإثارة وقوة الدافع – لمَّا دعته امرأة العزيز إلى نفسها. قال تعالى على لسان يوسف عليه السلام : " **قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ** ﴿٢٣﴾ " [2]

تلك القوة الإيمانية هي التي حالت دون خوف السحرة الذين آمنوا بالله تعالى من تهديد فرعون لهم بتعذيبهم وبصلبهم في جذوع النخل .
قال الله تعالى على لسانهم : " **قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ** " [3]

لا شك أن منهج القرآن الكريم في هداية البشر، قائم على استغلال هذه الغرائز والشهوات في بعدها الإيجابي .

فأي جدوى يكون للترهيب من عذاب جهنم ، وكذا آي الوعيد في القرآن الكريم ، إذا هي انعدمت غريزة الخوف .

---

[1] – ابن هشام الأنصاري (ت 213 هـ) ، "مختصر سيرة بن هشام" ، دار النهضة الجزائر ، د ت ط ، ص44

[2] – يوسف : 23

[3] – طه : 71

وأي معنى أيضا يكون للاعتبار بالأمم السابقة وما أصابهم من ألوان العذاب وسخط الله بسبب كُفرها وعِنادها .

وأي معنى يكون للترغيب في الفوز بالجنة ونعيمها ، وما أعد الله للمتقين من نعيم مقيم في الآخرة ، إذا هي انعدمت غريزة حب الشهوات وحب الذات.

وأي معنى يكون للإخبار بدوام الحياة الأخروية وأبديتها إذا هي انعـــدمت غريزة حب البقاء.

قال تعالى في قصة آدم عليه السلام :" فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ " (1)

وأي معنى يكون لذكر النعيم المقيم والمُلك الذي لا يبلى ، إذا هي انعدمت غريزة حب التَّملك.قال تعالى : " وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ " (2)

ثم أي معنى يكون للترغيب في الزواج ، ودعوة العاجز عـــن مئونتـــه إلى الصوم ، باعتباره وِجاء ، إذا هي انعدمت غريزة الشهوة و الجنس.

لقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون للإنسان غرائز وشـــهوات قابلـــة للترويض والتهذيب ، بما يحقق الغاية التي خلق الإنسان من أجلها .

---

1 – طه : 117

2 – الإنسان : 20

المبحث الأول : الصفات السلبية

المطلب الأول: الإنسان ضعيف بطبعه:

الضُّعف بتشديد الضاد وضمها ، والضَّعف بفتحها بمعنى واحد وهو خلاف القُوَّة ، غير أنه قيل أن الأول يختص بالجسد ، والثاني بالجسد والعقل والرأي معـــا، فيُقال : في رأيه ضَعفٌ ولا يُقال ضُعفٌ ، بينما يقال في جسمه ضُعفٌ وضَعفٌ. [1]

نقل ابن سيده في المحكم وتبعه ابن منظور في اللسان [2] عن ابن الأعـــرابي [3] استدلاله على استعمال الضَّعف ، تارة وصفا يتعلق بالجسد وتارة أخرى يتعلق بالرأي والعقل فأنشد :

وَمَن يلقَ خيراً يغمِزِ الدَّهرُ عَظمَهُ *** على ضَعَفٍ من حالِهِ وفُتـــورِ

فالضعف هنا خاص بالجسد. وأنشد في الرأي والعقل

ولا أُشارِكُ في رَأيٍ أَخا ضَعَفٍ *** وَلا أَليـــنُ لِمن لا يَبتَغِي لِينِي [4]

---

[1] – أبو هلال العسكري (ت 395 ه) ، " الفروق اللغوية " تحقيق : محمد إبراهيم سليم ، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع القاهرة مصر، ت ط1997م ، مادة : الفرق بين الضُّعف والضَّعف ، ص 116

[2] – ينظر : " ابن سيده (ت 458 ه) ، علي بن إسماعيل،" المحكم والمحيط الأعظم " ،تحقيق: د/ عبد الحميد هنداوي ، ط1 ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ،ت ط 2000م ، ج1 ص411 ، و ابن منظور(ت711ه) محمد بن مكرم ، " لسان العرب " تحقيق : أ. عبد الله علي الكبير أ. محمد أحمد حسب الله ، أ .هاشم محمد الشاذلي ، دار المعارف القاهرة مصر ، ت ط 1981 م ، المجلد الخامس ، ص2587

[3] – ابن الأعرابي (ت231 ه) أبو عبد الله محمد بن زياد ، المعروف بابن الأعرابي الكوفي صاحب اللغة وهو من موالي بني هاشـــم ، وكان أحد العالمين باللغة المشهورين بمعرفتها ،كان رأسا في كلام العرب ، أخذ عنه إبراهيم الحربي وأبو العباس ثعلب وابن السكيت وغيرهم ، وكان يحضر مجلسه خلق كثير من المستفيدين ويملي عليهم . أنظر : ابن خلكان (ت681 ه) شمس الدين أحمد بـــن محمد بن أبي بكر ، "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان " ، تحقيق : د/ إحسان عباس ، دار صادر بيروت لبنان ، ت ط 1994 م ج4 ص307/306

[4] – في نسبة البيتين الشعريين ذكر محقق كتاب المحكم لابن سيده أنه وجدهما بلا نسبة في كل من لسان العرب لابن منظور تاج العروس العروس للزبيدي في مادة ض ع ف

وقيل: هما معا جائزان في كل وجه ، وقيل كلما فتحت بالكلام- جاءت مفتوحة في الإعراب- فتحت بالضَّعف أي يكون بفتح الضاد نحو: رأيت به ضَعفا ، فإذا رفعت أو خفضت كان الضم أحسن نحو قولك : به ضُعفٌ شديدٌ .

وفي قوله تعالى: " ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضُعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضُعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضُعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾(1)

قراءتان بالضم والفتح [2].

وأيا كان الأمر، فإن اختلفوا في متعلق الضعف ،أهو جسدي أم عقلي أم نفسي ، فإنه بلا شك استعمل في مقابل القوة.

أما في القرآن الكريم فقد وردت مادة - ض ع ف- إحدى وخمسون مرة(51) وجاءت بصَيغٍ مختلفة ، وهي على النحو التالي :

ضَعُفَ (الحج: 3)

ضَعُفوا (آل عمران: 146)

يُضاعَفُ(البقرة: 260)

يُضاعِفُهُ (البقرة: 243 ، الحديد: 11 ، التغابن: 17)

يُضاعِفها(النساء: 40)

يُضاعَفُ (هود: 20 ، الفرقان: 69 ، الأحزاب: 30 ، الحديد: 17)

---

[1] - الروم : 53

[2]- قرأه بفتح الضاد من الثلاثة :شعبة وحمزة وحفص والباقون بالضم ينظر : ابن الجزري(ت835ه) شهاب الدين ، " شرح طيبة النشر في القراءات العشر" ، ضبطه وعلق عليه : الشيخ أنس مهرة ، ط2 ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، ت ط 2000 م ، ص244 وابن خالويه (ت370 ه) الحسين بن أحمد ، " الحجة في القراءات السبع " ، تحقيق: د/ عبد العال سالم مكرم ، ط3 ، دار الشروق بيروت لبنان ، ت ط 1979 ،ص 284

استضَعفوني(الأعراف: 150)

يستَضْعفُ (القصص: 4)

استُضْعِفوا(الأعراف: 74 ، القصص: 4 ، سبأ: 31 ، 32 ، 33)

يُستَضْعفون (الأعراف: 136)

ضُعْفٍ(الروم 54 مكررة)

ضُعْفًا (الروم: 54 ، الأنفال: 67)

ضِعفٌ(الأعراف: 37 ،الإسراء: 75مكررة ، سبأ: 37)

ضِعفاً(الأعراف: 36 ، ص:61)

ضِعفيْنِ (البقرة 264 ، الأحزاب 30 ، 68)

أضْعافاً (البقرة: 243 ، آل عمران: 130)

ضَعيفاً (البقرة: 282 ، النساء: 28 ، 75 ، هود: 91)

ضِعافاً(النساء: 9)

الضُّعفاء (البقرة: 265 ، التوبة: 92 ، إبراهيم: 23 ، غافر: 47)

أَضْعَفُ(مريم: 76 ، الجن: 24)

المُضْعِفون (الروم: 38)

مُضاعفةٌ (آل عمران: 130)

المُستَضْعفون (الأنفال: 26)

المُستَضْعفين (النساء: 97 ، 96 ، 74 ، 126) [1]

1- محمد فؤاد عبد الباقي (ت1388 ه) ، " المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم " ، ط 1 ، دار الكتب المصرية القاهرة ، ت ط 1945م ، ص 420/421

استقراء نصوص هذه الآيات يكشف لنا عن بعض معاني الضعف في القرآن الكريم منها :

أنه جاء كناية [1] عن الصغير.

فقال تعالى : " وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا۟ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُوا۟ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾ " (2)

وجاء كناية عن الضعف النفسي، من حيث قلة الصبر على ما يُبتلى به المرء من خير أو شرٍّ، قال تعالى : " وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٧﴾ بِمَا صَبَرُوا۟ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾ " (3)

وجاء بمعنى أذلة في قوله تعالى :" " قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ "(4)

أما في سورة النساء فقد ورد لفظ المستضعفين كوصف عام ، يشمل الرجال والنساء والولدان ، الذين عجزوا ليس فحسب عن ردِّ الظلم والعدوان بل عجزوا حتى عن الهجرة إلى أرض يجدون فيها الأمن والطمأنينة .

---

[1] - "والكناية عند علماء البيان هي أن يعبر عن شيء لفظا كان أو معنى بلفظ غير صريح في الدلالة عليه لغرض من الأغراض " الشريف الجرجاني(ت816هـ) علي بن محمد ، "التعريفات " مكتبة لبنان بيروت ، ط 1985م ، ص197

[2] – النساء : 9

[3] – الأعراف : 136/ 137

[4] – الأعراف : 74

جامعة وهران مصلحة الرسائل الجامعية

قال تعالى:" وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ " (1)

وجاء وصفا لرجال قدروا على الهجرة و لم يهاجروا قال تعالى

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ " (2)

وليس الاستضعاف وصفا يُقصد به النساء والصبيان والعاجزين بحكم ضعفهم البدني والنفسي فحسب ، بل وصفا يحمل معنًى إضافياً ، وهو الذُّلّ والهوان والعيش في الخوف الدائم من العدوان. ويستدل على ذلك بأمور منها :

أولا: وجود لفظ الرجال إلى جانب النساء والولدان ، إلا أن يُقصد به العاجز أو المريض ، وهذا تأويل لا يُقبل إلا عند تعذر أو استحالة حمل الآية على ظاهرها ، وليس الأمر كذلك

ثانيا : الرجال المستضعفون لم يقبل الله تعالى اعتذارهم يوم القيامة لقدرتهم على الهجرة ، وهذا كفيل بنفي عجزهم البدني والنفسي.

ثالثا : في آية الأنفال ورد لفظ المستضعفين على سبيل التذكير بنعمه تعالى عليهم بزوال شر الاستضعاف ، مما يستبعد تأويل المستضعفين ،على أنهم النساء والولدان لأنها صفة دائمة ولازمة .

---

[1] – النساء : 74

[2] – النساء : 96

قال تعالى :

وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾ (1)

وأما لفظ"ضعيفا "بهذه الصيغة فقد ورد في القرآن الكريم في أربعة مواضع في قوله تعالى : " قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ " (2)

وقوله تعالى: "فَإِن كَانَ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ " (3)

و قوله تعالى :" وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾" (4)

وقوله تعالى : " ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾(5)

(5)

فأما الآية الأولى فإن لفظ "ضعيفا" جاء وصفا خاصا بسيدنا شعيب عليه السلام ،

---

[1] - الأنفال : 26

[2] - هود : 91

[3] - البقرة : 281

[4] - النساء : 27 / 28

[5] - النساء : 75

وصفه به قومه .وأما الآية الثانية فالوصف يتعلق بالمدين- الذي عليه الحق-

وأما الآية الرابعة فيتعلق الوصف بكيد الشيطان. بينما الآية الثالثة ، فإن الوصف فيها عام ، فالضعف فيها يشترك فيه الناس جميعا .

جاء لفظ "ضعيفا " على الأرجح منصوبا على الحال وجاء الفعل مبني للمفعول وحذف الفاعل للعلم به، فالغرض هنا إعلام بوقوع الفعل بالمفعول لا إبانة الفاعل .

فالإنسان ضعيف بطبعه ، والضعف صفة لازمة له ، أي خلق على هذه الصفة لا يملك لها شيئا ، وهي مُقدَّرة عليه بالقوة من خالقه عز وجل ، إنها حقيقة أكدها القرآن الكريم في هذه الآية .

فما طبيعة هذا الضعف ؟

إن الآية الكريمة التي حملت لنا هذه الحقيقة ، جاءت في سياق الحديث عن العفة ، وسلوك طريقها ، من خلال توجيهات المولى عز وجل لعباده المؤمنين بالترخيص لهم في نكاح الإماء من المؤمنات ، أو ملك اليمين عند العجز عن نكاح الحرائر ، حتى لا يقع الإنسان في الفاحشة والزنا ، وكي لا تجره شهواته وميوله وغرائزه الجامحة إلى الوقوع في الحرام. مما يوحي أن الضعف المقصود في الآية إنما هو ضعف أمام الغرائز والشهوات وبالخصوص شهوات النساء .ويكاد المفسرون يجمعون على ذلك- في تحديد طبيعة هذا الضعف - وإن اختلفت صيغهم وألفاظهم .

جاء في تفسير الطبري : " وخلق الإنسان ضعيفا " يقول يسَّر ذلك عليكم إذا كنتم غير مستطيعي الطَّوْل للحرائر، لأنكم خُلقتم ضعفاء عجزة عن ترك جماع النساء قليلي الصبر عنه" [1] ، وصرف ابن كثير الضعف إلى النَّفس والعزم والهِمَّة واستدل بما

[1] – الطبري (ت310 هـ) محمد بن جرير ،" جامع البيان في تأويل القرآن " ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، ط 1 ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان ، ت ط 2000م ، ج8 ص215

أثر عن أقوال السلف في الآية نحو: قول ابن طاووس عن أبيه أنه ضعيف في أمر النساء وأبعد منه ما نقله عن وكيع قوله : يذهب عقله عندهن .[1] وفي تفسير ابن عطية : "وأن إخباره عن ضعف الإنسان إنما هو في باب النساء ، أي لما علمنا ضعفكم عن الصبر عن النساء خففنا عنكم بإباحة الإماء ، وكذلك قال مجاهد وابن زيد وطاوس ، وقال طاوس : ليس يكون الإنسان في شيء أضعف منه في أمر النساء"[2]. وفي تفسير الماوردي : " وخلق الإنسان ضعيفا " عن احتمال الصبر عن جماع النساء " [3] و في تفسير الزمخشري: "وخلق الإنسان ضعيفا " لا يصبر عن الشهوات وعلى مشاق الطاعات ونقل في تفسيره عن سعيد بن المسيب قوله :" ما أيس الشيطان من بني آدم قط إلا أتاهم من قبل النساء ، فقد أتي عليَّ ثمانون سنة ، وذهبت إحدى عينيَّ وأنا أعشو بالأخرى ،وإن أخوف ما أخاف عليَّ فتنة النساء" [4] وفي تفسير الثعالبي " يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا " :أي لما علمنا ضعفكم عن الصبر عن النساء خففنا عنكم بإباحة الإماء " [5]

و في تفسير أبي السعود :"وخلق الإنسان ضعيفا":عاجزا عن مخالفة هواه غير قادر على مقابلة دواعيه و قواه حيث لا يصبر عن اتباع الشهوات ولا يستخدم قواه في

---

[1] – ينظر : ابن كثير (ت774ه) أبو الفدا اسماعيل ، " تفسير القرآن العظيم " ، ،تحقيق : مصطفى السيد محمد ، محمد فضل العجماوي ، محمد السيد رشاد علي أحمد عبد الباقي ، حسن عباس قطب ، ط1 ، مؤسسة قرطبة للنشر والتوزيع الجيزة مصر ، ت ط 2000 م ،ج 3 ص44

[2] – ابن عطية (ت546ه) أبو محمد عبد الحق بن غالب ، " المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز " ، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط 1 ، دار الكتب العلمي بيروت لبنان ت ط 2001م ، ج2 ص40

[3] – الماوردي (ت450ه) علي بن محمد بن حبيب ، " النكت والعيون "، تحقسق السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم ، دار الكتب العلمية بيرون لبنان ، ج1 ص474

[4] – الزمخشري (ت538ه) أبو القاسم ، " الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل "، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوّض ، ط1، مكتبة العبيكات الرياض السعودية ، ت ط 1998م ،ج2 ص61

[5] – الثعالبي (ت 875ه) ،" الجواهر الحسان في تفسير القرآن " ، تحقيق : الشيخ علي محمد معوض ،والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، ط1، دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان ، ت ط1997م ، ج 2ص223

مشاق الطاعات" [1]و في تفسير الألوسي :"وخلق الإنسان ضعيفا " أي في أمر النساء لا يصبر عنهن - قاله طاووس - وفي الخبر:" لا خير في النساء ولا صبر عنهن يغلبن كريما ويغلبهن لئيم فأحب أن أكون كريما مغلوبا ولا أحب أن أكون لئيما غالبا " [2]

و في تفسير الطاهر بن عاشور :"وخلق الإنسان ضعيفا" قال : وقد فسر بعضهم الضعف هنا بأنه الضعف من جهة النساء. قال طاووس:(ليس يكون الإنسان في شيء أضعف منه في أمر النساء) وليس مراده حصر معنى الآية فيه ، ولكنه روعي في الآية لا محالة ،لأن من الأحكام المتقدمة ما هو ترخيص في النكاح"[3]

وبعد هذه الجولة في ثنايا كتب التفسير نخلص إلى القول: " إن القرآن الكريم يعترف للإنسان بقوة غرائزه و عتو شهواته الجامحة المركوزة فيه مع ضعفه عن الصبر عنها ، لذا جاءت التكاليف متماشية مع طبيعة النفس البشرية من سهولة ويسر ، لا ريب فالتيسير من أصول الشريعة الإسلامية. إذ لا نجد فيها من الأحكام ما يشق على المرء فعله أو ما يتعارض مع ميوله ورغباته ،كل ما في الأمر أنه أُمر بتهذيب هذه الغرائز . فلم يشأ أن تنطلق غرائزه دون قيد أو ضبط ، فيفقد معها المرء إنسانيته ، ويترل إلى درجة الحيوانية البهيمية فيعيش المرء لشهواته وغرائزه كما

---

1 – أبو السعود (ت 982 ه) محمد بن محمد بن مصطفى العمادي ، " إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم " ، دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان ، ج2 ص168

2 – الألوسي (ت 1270ه) ، شهاب الدين ، "روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني " ،نشر وتصحيح وتعليق : إدارة الطباعة المنيرية دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان ،ج5 ص14

3 – محمد الطاهر بن عاشور(ت 1393ه) ،" تفسير التحرير و التنوير "، ، الدار التونسية للنشر ، ت ط 1984م ،ج5 ص22

أنه لم يأمر بكبتها وقتلها لما في ذلك من المشقة والعنت وتكليف بما لا يطاق فضلا عن تعطيل الحكمة والغاية التي خلقت الغرائز من أجلها.

لذا لم تحرم على المرء ما لا يمكنه الاستغناء عنه، أو يشق عليه تركه كما لم توجب عليه ما يحصل له به العنت أو ما يتعارض مع فطرته.

وإذا علمنا ذلك فثمة سؤال يستوقفنا: من أين يستمد المرء القوة للتغلب على ضعفه ومقاومة غوائل غرائزه وشهواته ؟

لا شك أن استقراء النصوص الشرعية يمدنا بالإجابة عن هذا السؤال إن منهج القرآن يعمل على غرس الإيمان في النفوس ، ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد ، بل يسعى إلى تثبيته ورعايته وتعهده كي ينمو ويقوى ، حتى يصير بمثابة الصخرة التي تتكسر عليها كل أشكال الغواية والإغراء والافتتان.

صحيح أن هذا المنهج يقوم على اتخاذ التدابير الوقائية التي تحول دون تحريك الغرائز والشهوات الكامنة في النفس البشرية ، فأمرت الشريعة الرجال والنساء بغض البصر وستر العورة ، وأمرت المرأة المؤمنة بارتداء اللباس الشرعي ، وحرمت الخلوة بالأجنبية ، ودعت إلى الالتزام بآداب الاستئذان وغيرها.

وإذا ما تأملنا في هذه التدابير وجدناها تعمل على تأمين الطريق ووضع المعالم المانعة من التيه والضلال والانحراف ، لكنها لا تمنح المرء القوة للتغلب على ضعفه عند الابتلاء ، وعندما تكون الفتنة هي الساعية إليه أو عندما يحاط بالمثيرات -ما يثير غرائز الإنسان - فالحصانة في هذا الموقف ، تتطلب تدخل أمر آخر يمكن أن نسميه قوة الضابط ، المتمثل في قوة الإيمان بالله تعالى المفضية إلى تعظيمه وخشيته

إن النصوص الشرعية تبين بما لا يدع مجالا للشك أن المرء يقاد من داخله وأن استجابته لغرائزه وشهواته وضعفه حيالها لا شك أن مرده إلى ضعف الإيمان، وذهاب نوره على أقل تقدير.

روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :" **لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرقُ حين يسرقُ وهو مؤمن ، ولا يشربُ حين يشَربُها وهو مؤمن ، والتوبةُ معروضةٌ بعدُ** "[1]

قال ابن قيم رحمه الله:" فإن عظمة الله وجلالَه في قلب العبد وتعظيمَ حرماته تحول بينه وبين الذنوب" [2] ولا ريب " فالإيمان بالله قوة يكافح بها الإنسان ضعفه حين يجعل صلته بالله سندا دائما ومعينا ووكيلا ومرجعا والمنهج الإلهي هو الذي يجعل الإنسان على الرغم من ضعفه أمام بعض ميوله الجامحة ورغباته الطائشة يستخدم عقله وإرادته في الضبط الذاتي ويجعل من الإيمان بالله رقيبا على عقله وإرادته ودوافعه- فلا يذل أمام هوى ولا يقع صريع الشهوات " [3]

---

[1] – الحديث رواه البخاري (ت 256ه) محمد بن إسماعيل في" الجامع الصحيح " في كتاب الحدود ، باب إثم الزناة تحقيق : محب الدين الخطيب ط1 ، المطبعة السلفية القاهرة مصر ، ت ط 1400 ه ، ج4 ص252 ومسلم في صحيحه كتاب الإيمان ، باب : بيان نقصان الإيمان بالمعاصي تحقيق :نظر محمد الفاريابي ،ط1 ، دار طيبة للنشر والتوزيع الرياض السعودية ت ط 2006م ،ج1ص45

[2] – ابن قيم الجوزية (ت 751ه) ، "الداء و الدواء " تحقيق : محمد أجمل الإصلاحي ، ط 1 ، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع مكة المكرمة السعودية ، ت ط 1429 ه ،ج2ص171

[3] – د/ عبد الحميد محمد الهاشمي ، " لمحات نفسية في القرآن الكريم ، ص91

المطلب الثاني: الإنسان هلوع بطبعه:

تراوح معنى الهلع عند أهل اللغة، بين الجزع وقلة الصبر مطلقا ، وبين شدة الجزع وأسوأه. وكأن الجزع درجات أشده الهلع. جاء في كتاب العين " رجل هلع هلوع هلواع هلواعة جزوع حريص. يقال جاع فهلع :أي قل صبره "[1]

فالهلع عند الخليل : الجزع وقلة الصبر وقال أبو هلال العسكري: " وأما الهلع فهو أسوأ الجزع"[2] وصنفه الثعالبي في باب موسوم : "في الشديد والشديد من الأشياء" فقال: " الْهَلَعُ شِدَّةُ الجَزَعِ ، اللَّدَدُ شِدَّةُ الخُصُومَةِ ، الحَسُّ شِدَّةُ القَتْلِ ، الْبَثُّ شِدَّةُ الحُزْنِ ، النَّصَبُ شِدَّةُ التَّعَبِ ، الحَسْرَةُ شِدَّةُ النَّدَامَةِ " [3] وبهذا المعنى ما جاء في " أساس البلاغة " بأنه : الجزع الشديد [4] وكذا ما جاء في "المحيط في اللغة" بأنه : شدة الحرص والجزع [5]وغير بعيد عن هذا المعنى أيضا ما جاء في "الصحاح في اللغة " الهَلَعُ : أفحَشُ الجَزَعِ"[6]

وجمع هذه الأقوال " ابن منظور" في معجم لسان العرب في ماده هلع وتصدرها بمعنى آخر هو الحرص ثم قال : "ومنه قولُ هِشام بن عبدِ الملكِ لشبَّةَ بنِ عقَّالٍ حين أُقبِّل يدهُ : مهلا يا شَبَّةُ فإنَّ العرَبَ لا تفعلُ هذا إلا هُلوعًا وإنَّ العجمَ لم

---

[1] – الفراهيدي (ت 170ه) الخليل بن أحمد ، "كتاب العين " ، مرتبا على حروف المعجم ، ترتيب وتحقيق :د/ عبد الحميد هنداوي ، ط1 ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، ت ط 2003م ، ج4 ص317

[2] – أبو هلال العسكري ، " الفروق اللغوية " ، في مادة :الفرق بين الفزع والخوف والهلع ، ص242

[3] – الثعالبي (ت 429ه) أبو منصور بن إسماعيل ، " كتاب فقه اللغة " ،مطبعة الآباء اليسوعيين بيروت لبنان ، ت ط 1885م ،ص34

[4] – الزمخشري(ت 538ه) محمود بن عمر بن أحمد ، " أساس البلاغة " ، مادة : هـ ل ع ،تحقيق : محمد باسل عيون السود ، ط 1 ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، ت ط 1998م ، ج2 ص378

[5] – الصاحب بن عباد (ت 385 ه) ، " المحيط في اللغة " ، ج 1 ص15

[6] – الجوهري(ت 393ه) إسماعيل بن حماد، " الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية " ، تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار ،ط 4، دار العلم للملايين بيروت لبنان ، ت ط 1990 م ،المجلد السادس ،ص1308

تفعلهُ إلا خُضوعًا "[1]

هذا عند أهل اللغة أما في القرآن الكريم فإنه لم يرد لفظ "هلوع" إلا مرة واحدة [2] في قوله تعالى : " إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۝ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ۝ " [3]

هلوع على وزن فعول من صيغ المبالغة ،وإنسان هلوع كثير الاتصاف بالهلع . وإذا كان أهل اللغة بدا التقارب بينهم في معنى الهلع ، فإن أهل التفسير لم يكن الأمر عندهم كذلك ، فقد تباينت آراؤهم حتى قال بعضهم "والهلع لفظ غامض من غوامض اللغة قد تساءل العلماء عنه " [4]

وذكر الماوردي في تفسيره ستة أوجه لمعنى "هلوعا :" البخيل والحريص والضجور والضعيف والشديد الجزع والذي قاله الله تعالى إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا " [5]

جاء في تفسير الطبري :"خلق (هلوعا) والهلع شدة الجزع مع شدة الحرص والضجر"ونقل عن ابن عباس رضي الله عنه قوله : "إن الإنسان خلق هلوعا" قال : هو الذي قال الله :إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا" [6]

ولعل مذهب ابن عباس هذا ، لقي قبولا كبيرا لدى كثير من العلماء واطمأنوا له.

---

[1] – ابن منظور ، "لسان العرب " ، مادة : هـ ل ع ، ص4685

[2] – محمد فؤاد عبد الباقي ، " لمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم " ، ص737

[3] – المعارج : 21/19

[4] – الطاهر بن عاشور ،" تفسير التحرير و التنوير "،ج29 ص167 ، ويعضده أني لم أعثر على مادة "هلع" عند الراغب الأصفهاني في " المفردات في غريب القرآن " ، ولا في " جمهرة اللغة " لابن دريد (ت321هـ)

[5] – ينظر : الماوردي ، " النكت والعيون "،ج6 ص94

[6] – الطبري ،" جامع البيان عن تأويل آي القرآن " ،ج23 ص26

نلمس بصمات هذا المذهب في ما تناقلته كتب التفسير واستدل به الزمخشري فقال : " الهلع :سرعة الجزع عند مسّ المكروه وسرعة المنع عند مسّ الخير ...وعن أحمد بن يحي قال: قال لي محمد بن عبد الله بن طاهر : ما الهلع ؟ فقلت : قد فسَّره الله ،ولا يكون تفسير أبين من تفسيره ، وهو الذي إذا ناله شرّ أظهر شدّة الجزع ،وإذا ناله خير بخل به ومنعه الناس" [1]

أنكر الشيخ الطاهر بن عاشور- رحمه الله - على كثير من اللغويين تسامحهم وتقصيرهم وقلة ضبطتهم في تحديدهم لمعنى "الهلع " ونفى أن يكون المعنى الجزع ،أو شدة الجزع ، أو أفحش الجزع معتبرا ذلك كله من آثار الهلع وليس عينُه واستدل على ذلك بقول عمرو بن معد يكرب الزبيدي[2]:

ما إن جزعت ولا هلعت *** ولا يرد بكاي زندا

فهو يرى أنه لو كان الهلع مرادفا للجزع لم يحسن العطف - في البيت الشعري – ولو كان الهلع هو أشد الجزع صار العطف حشوًا [3] كما أنه أنكر أن يكون قوله تعالى " **إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا**" تفسيرا لكون المعنى

---

[1] – الزمخشري ، " الكشاف " ، ج6 ص209

[2] – عمرو بن معد يكرب بن عبد الله بن عمرو بن عصم بن زبيد ، الشاعر الفارس المشهور يكنى أبا ثور ، شهد عمرو فتوح الشام وفتوح العراق ، هو فحل في الشجاعة والشعر ، اختلف في تاريخ وفاته قيل: أنه توفي خلافة عثمان –رضي الله عنه– وقد جاوز المائة بعشرين سنة وقيل مات بالقادسية سنة إحدى وعشرين للهجرة. ينظر : ابن حجر العسقلاني (ت852هـ) ،" الإصابة في تمييز الصحابة دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، ج2 ص307

[3] – الحشو:" الزائد الذي لا طائل تحته " الجرجاني " التعريفات " ص92

مركب من معنيين ليس بينهما تلازم[1] ليخلص بالقول في التحقيق في المسألة بقوله : " والذي أستخلصه من تتبع استعمالات كلمة الهلع أن الهلع قلة إمساك النفس عند اعتراء ما يحزنها أو ما يسرها أو عند توقع ذلك "[2]

قليل من التَّأمل فيما خلُص إليه الشيخ الطاهر بن عاشور -رحمه الله- لمعنى الهلع يهدي إلى أن مذهبه غير بعيد عما ذهب إليه من قال أن المعنى مركب من معنيين ، فقلة إمساك النفس وضبطها عند اعتراء ما يحزنها ، هو قلة الصبر على الشدائد والضراء ، كما أن قلة إمساك النفس وضبطها عند اعتراء ما يسرها ، هو قلة الصبر على المسرات.

فحقيقة الهلع هي قلة الصبر على البلاء مطلقا ، على اعتبار أن البلاء قد يكون بالخير أو الشر، وباليسر أو العسر

قال تعالى :" كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ "[3]

لا شك أن معنى الهلع لا يخرج عن هذا المعنى الذي هو قلة الصبر على البلاء مطلقا في مواجهة الشدائد ، مانع للخير والإنفاق في حال الرخاء ، فهو طبيعة كامنة في الإنسان . " خلق الله الإنسانَ يُحبُّ ما يسُرُّه ويُرضيهِ ، ويهربُ مما يَكرهُهُ ويسخطُ ، ثم تعبدَّهُ الله بإنفاق ما يحبُّ ، والصَّبر على يكرهُ "[4] وهو ما ذهب إليه

---

[1] – التلازم : التلازم بين الأمرين: كون أحد هما مقتضيا الآخر في الحكم ، بحيث لو رفع أحدهما لارتفع الآخر، والأول يسمى بالملزوم والثاني يسمى باللازم. د/محمد قلعجي "معجم لغة الفقهاء" ط2 ، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان، ت ط 1988 م ج1 ص143

[2] – ينظر : الطاهر بن عاشور ،" تفسير التحرير و التنوير "،ج29 ص167

[3] – الأنبياء : 35

[4] – القرطبي (ت 671 ه) ، محمد بن أحمد تن أبي بكر ، " الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان "، تحقيق : د/عبد الله بن المحسن التركي ، ط 1 ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان ، ت ط 2006 م ، ج21 ص236

ابن قيم فقال : " ويضاد الصبر الهلع وهو الجزع عند ورود المصيبة والمنع عند ورود النعمة " [1]

والذي نستخلصه أن الهلع طبع مركب من خلقين ذميمين هما الجزع الذي هو نقيض الصبر على المكاره ، والمنع الذي هو نقيض الصبر على الرخاء ، ويبدو أن من أضاف وصف الشدة أو الفحش للجزع ، إنما كان يرمي إلى الطرف الثاني الذي هو القدر الزائد على مجرد الجزع .

قال أبو هلال العسكري: " ولا يسمى هلوعا حتى تجتمع فيه هذه الخصال "[2]

يقصد : الجزع عندما يعتريه الشر، والمنع عندما يعتريه الخير.

وإذا علمنا ذلك ،فما السبيل للمرء للتخلص من الهلع الذي هو طبع فيه ومجبول عليه؟

الحقيقة أن المؤمن يدرك أنه مبتلى في حال الرخاء والضيق ، العسر واليسر السعة والتقتير ، والخير والشر ، في كل الأحوال مبتلى بين الشكر والكفر.

قال تعالى : " قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ "[3]

هو يعلم يقينا أن الحياة الدنيا هي دار ابتلاء وعمل وأن الآخرة هي دار جزاء ، فلا الذي أكرمه ونعمه دليل على رضاه عنه ، ولا الذي حرمه ومنعه دليل على سخطه عليه .

---

[1] – ابن قيم الجوزية ، " عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين " ط4 ، منشورات دار الأفاق الجديدة بيروت لبنان ، ت ط 1980م ج 1 ص119

[2] – أبو هلال العسكري ، " الفروق اللغوية " ، مادة :الفرق بين الفزع والخوف والهلع ، ص242

[3] – النمل : 41

قال تعالى:" فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ ﴿١٥﴾ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ﴿١٦﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ ﴿١٦﴾ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٧﴾ " [1]

إن الآية الكريمة التي حملت لنا صفة الهلع حملت معها أيضا ما يُمكِّن المرء من التخلص ممَّا هو مفطورٌ عليه ، فإقامة الصلاة والحفاظ عليها وإنفاق المال على السائل والمحروم والإيمان باليوم الآخر والخوف والإشفاق من عقاب الله تعالى والتعفف عن الحرام بحفظ الفرج تنبو عن قوة الإيمان بالله تعالى.

فهو في مواجهة الشدائد صبور وفي مواجهة الرخاء شكور .فلا يفرح لخير أصابه ، ولا يجزع على ما فاته ، ويعضده قوله ﷺ **عَجِبْتُ مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ حَمِدَ رَبَّهُ وَشَكَرَ وَإِنْ أَصَابَتْهُ مُصِيبَةٌ حَمِدَ رَبَّهُ وَصَبَرَ الْمُؤْمِنُ يُؤْجَرُ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى فِي اللُّقْمَةِ يَرْفَعُهَا إِلَى فِي امْرَأَتِهِ**" [2]

[1] – الفجر: 15 / 18

[2] – رواه أحمد بن حنبل(ت 241 ه) في مسنده ،" مسند الإمام أحمد بن حنبل " شرحه ووضع فهارسه : أحمد محمد شاكر ، ط1،دار الحديث للطبع والنشر والتوزيع القاهرة مصر، ت ط 1995م ، ج2ص231 ورجاله رجال الصحيح

المطلب الثالث : الإنسان محب للمال بطبعه :

الحب الشديد للمال غريزة فطرية أودعها الله عز وجل في الإنسان لتكون حافزا له على العمل والكسب ، وليحفظ كرامته ويعف نفسه عن ذُلِّ السؤال والتكفف، ويسعى لكسب المال الحلال الذي هو قوام الحياة ووسيلة للقيام بكثير من الواجبات والمستحبات لبلوغ مرضاة الله تعالى .

غريزة حب المال حقيقة أكدتها النصوص الشرعية، وبيَّنت أضرارها ومفاسدها في الحال والمآل، ورسمت لنا منهج السلامة منها، عند المسير بها مسار الاعتدال من غير إفراط ولا تفريط ، ووفق ضوابط العقل والشرع .

قال تعالى : " وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝ "[1]

لفظ "المال " يطلق على "كل ما يملكه الإنسان من الذهب والورق والإبل والغنم والرقيق والعُروض وغير ذلك "[2] . وعين المال من قسم اللفظ الواحد تسمى به الأشياء الكثيرة ويقابله الشيء الواحد يسمى بالأسماء المختلفة [3]، وقيل سمي المال مالا لميل الطبع إليه ، ومعلوم أنه من أحب شيئا ، وتعلق به حتى ملك قلبه ، وعز عليه فراقه أهمه الحرص على بقائه ، فأما في امتلاك القلب قال الشبلي: " سميت المحبة محبة لأنها تمحو من القلب ما سوى المحبوب " [4]

---

[1] – الفجر : 22

[2] – أبو هلال العسكري ، " الفروق اللغوية " في مادة : الفرق بين المال والنشب ، ص175

[3] – ينظر : أحمد ابن فارس ، " الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها " ، باب : الأسماء كيف تقع على المسميات، المكتبة السلفية القاهرة مصر، ط 1 ، ت ط 1910م ، ص65 ،

[4] – القشيري(ت 456 هـ) ، " الرسالة القشيرية " وضع حواشيه : خليل المنصور، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، ت ط 2001م ، ص351

أما في عزة الفراق قال الشاعر :

أَهجُرُ ليلَى بالِفراقِ حَبيبَها *** وَمَا كانَ نَفسًا بالفِراقِ تَطيبُ[1]

قال ابن حزم : " المحبة كلها من جنس واحد ورسمها أنها الرغبة في المحبوب وكراهة منافرته " [2] إذا كان هو شأن المحب وتعلقه بمحبوبه وهو قريب العهد به فكيف بمن كان في فطرته وجبليته كحب المال .

إن الآية الكريمة جاءت في سياق الحديث عن جهل الإنسان بالسنن الكونية التي أجراها على عباده فرأى الابتلاء بالخير والتوسعة عليه بالنعم، تكريما . ورأى الابتلاء بالشر والتضييق عليه في الرزق ، إهانة

قال تعالى :" فَأَمَّا ٱلۡإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكۡرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ ۝١٥ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ۝١٦ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبۡتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ ۝١٧ فَيَقُولُ رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ۝١٨ "[3]

وأما لفظ "جما " فيدل على الكثرة والشدة من قولهم "جَمَّ الشيءُ واستجمَّ أي كَثُر "[4]. وأصل الكلمة "من جمة الماء أي معظمه ومجتمعه الذي جم فيه الماء عن السيلان" [5]

---

[1] – ابن منظور ، " لسان العرب " ، مادة ح ب ب ، ص 743 الشاعر هو المخبل السعدي شاعر مخضرم من فحول عاش في الجاهلية وصدرا من الإسلام عمر طويلا قيل أنه مات في خلافة عمر وقيل في خلافة عثمان رضي الله عنهما ينظر : "الإصابة " ج1ص349

[2] – ابن حزم الظاهري (ت456هـ) علي بن أحمد بن سعيد ، " الأخلاق والسير في مداواة النفوس " ، اعتنى بتصحيحه وضبط كلماته : هلال أحمد عمر المحمصاني الأزهري ، اللجنة الدولية لنرجمة الروائع بيروت لبنان ت ط 1961 م ، ص47

[3] – الفجر : 15 /18

[4] – الفراهيدي ، "كتاب العين " ، ج 1 ص261

[5] –الراغب الأصفهاني(ت502 هـ) الحسين بن محمد، " المفردات في غريب القرآن " تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة بيروت لبنان ص96

إن مجيء لفظ "حُبًّا" في الإعراب مفعولا مطلقا- ومن اشتقاق الفعل ذاته- توكيدا لعامله ، متبوعا بنعت يفيد الكثرة والشدة وهو لفظ "جمًّا " إشارة إلى مدى استحكام شهوة المال في الإنسان حتى يصير بها إلى الحرص والشره ومن ثم يصبح المال عنده غاية لا وسيلة " لأن إفراد حبه يوقع في الحرص على اكتسابه بالوسائل غير الحق. كالغصب والاختلاس والسرقة وأكل الأمانات " [1]

وبهذا النظم ، يصير تقرير المعنى في النفس أبلغ،وقوة الاستحكام أظهر. ويؤكد هذا ما جاء في الحديث عن ابن عباس رضي عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول :

" لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لَابْتَغَى ثَالِثًا وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ"[2]

ولما كان حب المال فطرة في الإنسان جاء منهج القرآن الكريم في الدعوة إلى الله تعالى مسايرا لهذه الفطرة في استغلالها في بعدها الإيجابي بترغيب المرء بما هو مجبول عليه ، لتحريك العزائم وتقوية الإرادة ، قال تعالى لسان سيدنا نوح عليه السلام :

فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ " [3]

ومن النصوص الدالة على أن شهوة حب المال فطرة في الإنسان قوله تعالى: " وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ [4]

---

[1] – الطاهر بن عاشور ،" تفسير التحرير و التنوير "،ج 30 ص.334

[2] – الحديث : أخرجه البخاري في صحيحه ، باب : ما يتقى من فتنة المال ،ج4 ص 179 ومسلم في صحيحه ، باب لو أن لابن آدم واديين ، ج5 ص263 والترمذي في سننه ، باب ما جاء لو كان لابن آدم ،ج8 ص329 وابن ماجة في سننه باب الأجل وأحمد في مسنده ج6ص55

[3] – نوح : 10 / 11

[4] – العاديات : 8

جاء لفظ "الخير " في الآية بمعنى المال ويعضده ما ورد في كثير من النصوص نحو آية البقرة في قوله تعالى : كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ "(1)

ذكر الزركشي هذه الآية في باب قلب الإسناد فقال : "لحب الخير لشديد أي إن حبه للخير لشديد وقيل ليس منه – أي ليس من القلب – لأن المقصود منه أنه لحب المال لبخيل والشدة : البخل أي من أجل حبه للمال يبخل"(2) ، واللام للتعليل،" أي وإنه من أجل حب المال لبخيل"(3)

ويستوقفنا تساؤل : لم سمى الله عز وجل المال خيرا ؟ مع أن المال ليس خيرا في ذاته ولا هو شر في ذاته ، إنما هو في الأصل أداة لما سخر له على سبيل الابتلاء . لقوله عز وجل :" لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ "(4)

إن شهوة حب المال فتنة واختبار لقلوب المؤمنين ، ذلك لأن اكتساب المال بطريق الحلال وإنفاقه في وجوه الخير مع الحب الشديد له ، أمر يتطلب صبرا وعزما وثباتا ،وقبل ذلك إيمانا قويا باحتساب الأجر عند الله تعالى ، لأن طبيعة النف هلوعة . نقل القرطبي عن ابن زيد قوله: " سمَّى اللهُ المالَ خيرًا ،وعسى أن يكونَ شرًّا وحرامًا ،ولكنَّ الناسَ يعُدُّونهُ خيرًا ، فسمَّاهُ الله خيرًا لذلك "(5)

---

1 – البقرة : 179

2 – الزركشي (ت 794هـ) ، " البرهان في علوم القرآن " ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط1 ، مكتبة دار التراث القاهرة مصر، ت ط 1957م ، ج3 ص291

3 – السيوطي (ت 911هـ) جلال الدين ، "الاتقان في علوم القرآن " تحقيق : مركز الدراسان القرآنية ، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف م ع السعودية ، ج 4 ،ص1153

4 – آل عمران : 186

5 – القرطبي ، " الجامع لأحكام القرآن " ،ج 22 ص440

الحقيقة أن هذا النص يتفق في شطره الأول مع ما جاءت بـه النصـوص الشرعية ، ودلت الدلائل على أن المال يكون خيرا في يد الأخيار ، وشـرا في يـد الأشرار. فأماكونه خيرا نحو قوله تعالى:" : وَلَا تُؤتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا ۝٥ "[1]

أي جعله الله لكم لمعاشكم وصلاح دينكم

وأما كونه شرا نحو قوله تعالى : ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ ۝٣٦ "[2]

وقال تعالى على لسان موسى عليه السلام:" : وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيۡتَ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةٗ وَأَمۡوَٰلٗا فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّواْ عَن سَبِيلِكَۖ رَبَّنَا ٱطۡمِسۡ عَلَىٰٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ وَٱشۡدُدۡ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ۝٨٨ "[3]

وقوله ﷺ :" نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ"[4]

وأما الشطر الثاني فيما ذهب إليه ابن زيد -بعد الاستدراك- ولكن النـاس يعدونه خيرا فسماه الله خيرا لذلك ، ففيه نظر.

---

[1] – النساء : 5

[2] – الأنفال : 36

[3] – يونس : 88

[4] – الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده عن عمرو بن العاص –رضي الله عنه –، إسناده صحيح على شرط الإمام مسلم ، ج4 ص 197 ،

أولا : النص يوحي بأن الله عز وجل سمى المال خيرا مسايرة لما اصطلح عليه في كلام العرب ، ولأجل ذلك فقط . على اعتبار أن لام "لذلك" هي لام التعليل .

ثانيا : كون العرب تسمي المال خيرا ، مقبول بل هو من سنن العرب في كلامها تسمية الشيء بالشيء إذا كان مجاورا له أو كان منه سببا[1] ، إلا أن استقراء النصوص يهدي إلى أن الله تعالى سماه خيرا نسبة لما وُجِد له في الأصل فيما لو اكتنفه الإيمان من كونه وسيلة لإشباع الحاجات ، والقيام بكثير من العبادات والقربات ، وجلب المنافع وسد أبواب الشر والفتن والمزالق .

فبالمال يقضي المَدين ديْنه ، وينال المكاتب حريته ، ويعف الفقير والمحروم نفسه ، ويحصن المرء نفسه ويحفظ فرجه .

من أجل ذلك كله كانت الخيرية في المال أصيلة ، والشرية فيه عارضة ودخيلة .

ويمكن أن نحمل ما قاله المفسرون في قوله تعالى : "وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ" في قولين:

الأول : وهو الظاهر من الآية ، أن الإنسان شديد المحبة للمال،ذكر ذلك الفراء حيث قال : " فكأن الكلمة لما تقدم فيها الحب ، وكان موضعه أن يضاف إليه شديد ، حذف الحب من آخرة لّما جرى ذكره فى أوله "[2].

الثاني : أنه حريص بخيل من محبة المال .

ولا خلاف بين المذهبين في أن الإنسان محب للمال بطبعه ، غير أن الأول مخبر عن درجة حبه للمال والثاني مُخبر عن حرصه وبخله الذي سببه حبه للمال وعليه يكون

---

[1] – ينظر : أحمد بن فارس " الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها " ، ص12

[2] – ابن الجوزي (ت 597 ه) ، جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد ،" زاد المسير في علم التفسير " ط3 ، دار المكتب الإسلامي زهير الشاويش بيروت لبنان ، ت ط 1984م ، ج 9 ، ص 211

التفسير الثاني حاملا لقدر زائد من المعنى.

إن أصل الخلاف يكمن في معنى لفظ "الشديد" حيث حملها أصحاب المذهب الأول على القوة ، فجاءت مؤكدة ، وحملها أصحاب المذهب الثاني على معنى البخل والشح ، على اعتبار أن اللام للتعليل ، فتصير الآية مخبرة عن بخل الإنسان وشحه لأجل حبه للمال وتعلقه به . واستدل صاحب "مغني اللبيب " بالآية نفسها للدلالة على أن اللام الجارة تأتي للتعليل [1]

وبقليل من التأمل في أصل الخلاف في تأويل لفظ "الشديد " يهدي إلى أنه راجع إلى الاختلاف في معنى اللام اللاصقة بها ، فمن ذهب أنها للتعليل ، تبين أن لا مناص من تأويل لفظ "الشديد" ليستقيم بها معنى الآية فحملوها على البخل والشح والحرص.

لقد تكرر لفظ" شديد " في القرآن الكريم إثنان وخمسون مرة (52) لم يرد فيها ولا مرة واحدة بالمعنى المذكور . وأما مقرونا باللام فقد وردفي أربع مواضع :

في قوله تعالى : وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧ [2]

وفي قوله تعالى : " وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧ [3]

وفي قوله تعالى : إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ [4]

وفي قوله تعالى : وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ۝٨

---

[1] – ابن هشام الأنصاري(ت761ه) ، "مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب " ،تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الكتاب العربي بيروت لبنان ،ج1 ص209

[2] – الرعد : 7

[3] – إبراهيم : 9

[4] – البروج : 12

صحيح أن البخل والشح والحرص صفات ذميمة وجب على المرء التخلص منها والتحلي بأضدادها ، غير أن هذه الصفات ليس بالضرورة ناتجة عن حب المال فحسب وإلا كان حب المال في حد ذاته سيئة باعتباره وسيلة لتلك الصفات الذميمة ، إن الطريق إلى مرضاة الله تعالى يمر حتما بالالتزام بأوامره والوقوف عند حدوده ونواهيه ، وبعضا من تلك الأمور لا تقوم إلا بمال ، فإن أحب المرء المال لهذه الغاية ، كان حبه للمال بهذا الوجه محمودا. وقد نفى الإمام الترمذي اللوم والعيب مطلقا على محب المال ، وأن المستحق اللوم والعيب من هو محب لها تلبية لشهوات النفس [1]

جاء في تفسير ابن كثير :"وحب المال -كذلك-تارة يكون للفخر والخيلاء والتكبر على الضعفاء، والتجبر على الفقراء، فهذا مذموم، وتارة يكون للنفقة في القربات وصلة الأرحام والقرابات ووجوه البر والطاعات، فهذا ممدوح محمود عليه شرعًا"[2]

واستنبط ابن حجر حكما جوهريا فقال : "...ومنه جواز إضافة حب المال إلى الرجل الفاضل العالم ولا نقص وقد أخبر عن الإنسان أنه لحب الخير لشديد والخير هنا المال اتفاقا "[3]

ويبدو أن ما جبلت عليه النفس البشرية من حب شديد للمال ، وميل طبعها إليه والحرص على جمعه والاستزادة الغير منقطعة له ، يوحي أن النفس طبعت على

---

[1]- ينظر : الترمذي ،" نوادر الأصول في أحاديث الرسول " ، تحقيق : عبد الرحمن عميرة ،دار الجيل بيروت لبنان ، ت ط 1992م ج1 ص491

[2] – ابن كثير ، " تفسير القرآن العظيم " ،ج2 ص19

[3] – ابن حجر العسقلاني (ت852 ه) ، " فتح الباري بشرح صحيح البخاري " تحقيق :عبد القادر شيبة الحمد ،ط 1 ، مكتبة الملك فهد السعودية، ت ط 2001 م ج 5 ص398

حب المال لذاته لا لغيره ، وعلى اعتباره غاية لا وسيلة "ذلك أن التكديس ذاته شهوة"[1].

إن غريزة حب المال فطرة مركوزة وكامنة في الإنسان تبرز على الساحة عند إثارتها وتحريكها وإيقاظها وهو ما يسمى بالفتنة ، فمشاهدة بنو إسرائيل ممن ملكت الدنيا قلوبهم لقارون وهو يخرج في زينة الحياة الدنيا ، وتجمل بزخارفها من ملابس ومراكب وخدم وغيرها ، حركت فيهم هذه الغريزة -غريزة حب المال-ولا شك أن في ذلك انكسار وقهر لقلوب الفقراء ، مما جعلهم يتمنون أن يؤتوا مثلما أوتي من نعمة قال تعالى : "فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ "(2)

تلكم هي طبيعة النفس عند إطلاق العنان لها ، والتقاعس عن كبح جماحها . إن شهوة حب المال إنما تكون منبع وأصل لكثير من مساوئ الأخلاق نحو الحرص والشره والبخل و الشح والحسد والقطيعة والاعتداء والظلم والغفلة إذا لم تحط بسياج الإيمان. قال تعالى : " وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ "(3) وما قصة قارون منا ببعيد ، فقد أطغاه المال وما أتاه الله من كنوز حتى قال كما حكى عنه القرآن الكريم في قوله تعالى:" قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ (1)

---

[1] - سيد قطب ، "في ظلال القرآن " ، ج1 ص342

[2] - القصص : 79

[3] - الشورى :25

وقول صاحب الجنتين في سورة الكهف كما أخبر عنه القرآن الكريم

في قوله تعالى:" وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ "(2)

مما سبق ، يتبين لنا جليا أن الإعراض عن الله تعالى والوقوع في المعاصي هو نتيجة حتمية لفتنة شهوة المال في غياب الضوابط الشرعية والإيمان بالله تعالى.

إن الإيمان إذا استقر في القلب وأشرقت أنواره وأيقن المرء أن المال الذي بين يديه هو مال الله ، وإنما هو مستخلف فيه ، فلا يكون حريصا على جمعه ولا متحسرا على زواله فيتيسر له الإنفاق ، و يصير الكرم والسخاء طبعا له .

أما إذا أطلق لنفسه العنان وفرغ قلبه من الإيمان فإن شهوة حب المال تشق طريقها إليه حتى تعشش فيه ، فيصير هم المرء ، هو جمع المال بأية وسيلة كانت في غياب الوازع الديني. ومن تم تملك عليه فكره ، ليصبح جمع المال وحيازته غاية وهدفا لا وسيلة ، فيهون عليه في سبيل ذلك اقتحام الشبهات ، ثم الوقوع في الحرام ، وإذا تمادى فإنه سيطغى ويعتدي ويبغي في الأرض فسادا . فيتحول ما كان أصله نعمة ليصبح وبالا ونقمة .

1- القصص : 78

2- الكهف : 35

المطلب الرابع : الإنسان محب للشهوات بطبعه :

الشهوة "حركة النفس طلبا للملائم"[1] أو "هي توقان النفس إلى ما يلذُّ ويَسُرُّ"[2] فالشهوات ما تريده وتشتهيه النفس وتتلذذ به ، فهي تلائمها والإنسان بطبعه مجبول على الميل إلى الشهوات ، سواء أكانت شهوات البطن أم الفرج أم شهوة المال أم شهوة حب النفس وحب الجاه أم غيرها مما يرغب فيه ،مما يسمى بمتاع الدنيا .

وقد أكد القرآن الكريم هذه الحقيقة في قوله تعالى: " زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿14﴾ "[3]

إن لفظ "الناس " هو لفظ عام مُعَرَّف بالألف واللام الاستغراقية ، فالمعنى تزين الشهوات حاصل لجميع الناس .

صحيح أن الآية الكريمة فيها إخبار من الله تعالى لأنواع الملاذ والشهوات في هذه الحياة الدنيا ، غير أن الشهوة الجنسية هي من أقوى الشهوات وأكثرها عمقا في النفس ،لذا بدأ بها ، "وقوله زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة قدمهن في الذكر لأن المحنة بهن أعظم من المحنة بالأولاد "[4]ولا شك أن البدء بشهوة النساء له دلالة

---

[1] – الجرجاني ، " التعريفات " ، ص135

[2] – أبو هلال العسكري ، " الفروق اللغوية " ، ص121

[3] – آل عمران : 14

[4] – الزركشي ، " البرهان في علوم القرآن " ، ج3 ص272

قال ابن كثير: "فبدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد"[1] ، وقال البغوي:" بدأ بهن لأنهن حبائل الشيطان "[2] ، وقال الأصفهاني :" فبدأ بهن لقربهن من القلوب." [3]

وثبت في الصحيح عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: " **مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنْ النِّسَاءِ**" [4]

وهذه المسألة يفندها واقع الناس وأحوالهم قبل النصوص حتى قال بعضهم : " لم نجد أحداً من الناس عشق والديه ولا ولده، ولا من عشق مراكبه ومترله، كما رأيناهم يموتون من عشق النساء الحرام... فقد ذكر تبارك وتعالى جملة أصناف ما خولهم من كرامته، ومن عليهم من نعمته، ولم نر الناس وجدوا بشيء من هذه الأصناف وجدهم بالنساء.ولقد قدم ذكرهن في هذه الآية على قدر تقدمهن في قلوبهم." [5]وروي عن سعيد بن المسيب قوله : " **ما أيس الشيطان من شيء إلا أتاه من قبل النساء** "[6] والشهوة الجنسية أودعها الله تعالى في الإنسان ، وُجدت لهدف أسمى هو تعمير الأرض ، ولتكون حافزا له على التناسل والتكاثر، ومن ثم بقاء النوع الإنساني واقتضت حكمة الله تعالى أن لا يدع الإنسان تنطلق شهواته دون ضابط أو قيد كما هو الشأن عند للحيوان ، بل رسم له الطريق السليم لإشباعها ، والذي يليق بمكانته ويحفظ كرامته ويؤكد فضْلَه على سائر المخلوقات ألا وهو

---

[1] – ابن كثير " تفسير القرآن العظيم " ،ص19

[2] – البغوي ، أبو محمد ، " معالم التنزيل " ، ج2 ص14

[3] – الراغب الأصفهاني ، " محاضرات الأدباء " ، ج1 ص409

[4] –الحديث : رواه البخاري في صحيحه ، باب : ما يتقى من شؤم المرأة ،ج3ص361 ، و مسلم في صحيحه ، باب : أكثر أهل الجنة الفقراء ج13 ص 284 تحت رقم 4923

[5] – الجاحظ(ت255 ه) أبو عثمان عمرو بن بحر،" رسائل الجاحظ" ، تحقيق وشرح :عبد السلام محمد هارون، ط1 ، مكتبة الخانجي القاهرة مصر ، ت 1979م ، المجلد الأول ج3 ص142

[6] – الحديث :أخرجه البيهقي (ت458 ه) في" الجامع لشعب الإيمان" باب :تحريم الفروج وما يجب من التعفف عنها ، أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي ، ط 1، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع الرياض السعودية ، ت ط2003م ،ج7 ص321 الحديث : إسناده ضعيف لأن علي بن زيد بن جدعان من الضعفاء

طريق الزواج. ولما كان التزيين في الآية لم يسمى فاعله - عند قراءة الجمهور[1]- اختلف فيه إلى ثلاثة أقوال :

الأول: زَيَّنَهَا الشَّيْطَانُ ؛ لِأَنَّهُ لَا أَحَدَ أَشَدَّ ذَمًّا لَهَا مِنْ خَالِقِهَا

الثاني : زَيَّنَهَا اللَّهُ بِمَا جَعَلَ فِي الطِّبَاعِ مِنْ الْمُنَازَعَةِ إلَيْهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى : إنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا .

الثالث :"زَيَّنَ اللَّهُ مَا يَحْسُنُ مِنْهَا وَزَيَّنَ الشَّيْطَانُ مَا يَقْبُحُ مِنْهَا [2]

إذا كانت الشهوات: هي ما يشتهيه المرء وما يرغب فيه وتتوق نفسه إليه ،فلم تزيينها ؟

إن الله عز وجل ركّب في طبع الإنسان وجبليته هذا الميل والنزوع إلى الشهوات وزينها لهم ليبلوهم بما يحبون ويشتهون ،وعلى المرء تهذيب نفسه بالمجاهدة والتزكية وحملها على الاعتدال والاقتصار في نيل الحظ منها-الشهوات- على القدر المباح دون مجاوزته ، مع القدرة عليه .

فالتزيين الأصل فيه تحسين الشيء وإزالة ما يعتريه من القبح حتى يظهر في أحسن صورة ، فيكون ذلك مدعاة لحبها -أي حب الشهوات - فظاهر الآية يوحي أن التزيين متعلق بالحب لا بالشهوات ، فلا يستقيم المعنى لأن منشأ الحب الاستحسان لذا رأى بعض العلماء [3] أن في نظم الآية إيجاز[4] و المعنى : زُيِّنت الشهوات للناس فأحبُّوها ،وحاصل ذلك أن يكون الابتلاء أشد والصبر عليه أمر .ويعضده قوله ﷺ: "**حُفَّتْ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتْ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ**"[5]

---

[1] – في قراءة : مجاهد "زيّن للناس " بالفتح على تسمية الفاعل وهو ما استدل به الزمخشري على أن المزين هو الله تعالى للابتلاء

[2] - ينظر : ، أبو بكر الجصاص ، " أحكام القرآن " دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان ج3 ص382 ، الماوردي " النكت والعيون "،ج1 ص375

[3] - ينظر : الطاهر بن عاشور ،" تفسير التحرير و التنوير "،ج3 ص179

[4] – الإيجاز :أداء المقصود بأقل من العبارة المتعارفة . الجرجاني " التعريفات " ص42

[5] –الحديث رواه مسلم في صحيحه ، في كتاب :الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، ج13 ص448

فتزيين الشهوات من فعل الله تعالى .والظاهر أنها الشهوات المحرمة بدليل أنها ذكرت في القرآن الكريم ثلاث مرات كلها في معرض الذم لها وهي على النحو التالي:

في قوله تعالى :وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ "(1)

وفي قوله تعالى :" فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ (2)

وفي قوله تعالى : زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ " (3)

ففي الآية الأولى جاءت في مقابلة التوبة إلى الله تعالى ، وفي الثانية في مقابلة إضاعة الصلاة ، وفي الثالثة في مقابلة ما عند الله من حسن المآب والمرجع .

ويستبعد أن يكون المقصود الشهوات المباحة إلا أن يكون الإكثار منها والمبالغة في تحصيلها المفضية إلى الانشغال عن الطاعات وتفويت كثير من حظوظ الآخرة .

قال الإمام النووي :"وَأَمَّا الشَّهَوَات الْمُبَاحَة فَلَا تَدْخُل فِي هَذِهِ لَكِنْ يُكْرَه الْإِكْثَار مِنْهَا مَخَافَة أَنْ يَجُرّ إِلَى الْمُحَرَّمَة ، أَوْ يُقَسِّي الْقَلْب ، أَوْ يَشْغَل عَن الطَّاعَات أَوْ يُحْوِج إِلَى الِاعْتِنَاء بِتَحْصِيلِ الدُّنْيَا لِلصَّرْفِ فِيهَا وَنَحْو ذَلِكَ "(4)

إن منهج القرآن الكريم في ضبط هذه الغريزة والسلوك بها مسلك الاعتدال بعيدا عن الخمود والشذوذ منهجا وقائيا ببعدين ، أو هو قائم على ثنائية مركبتها

---

1 - النساء : 27

2 - مريم : 59

3 - آل عمران : 14

4 - النووي (ت 676 ه) ، " صحيح مسلم بشرح النووي " ط1 ، المطبعة المصرية بالأزهر مصر ، ت ط1929م ، ج8 ص208

الأولى إخماد الفتنة وعدم بروزها أو إيقاظها أو إثارتها ، ومركبتها الثانية[1] التزام العفة بما تحمله الكلمة في هذا المجال- مجال الشهوات - من غض للبصر وحفظ للفرج وترغيب في الزواج والتحصين ، فيحول ذلك دون وقوع الفاحشة حتى عند غياب إحدى المركبتين وحضور الأخرى.

قال سيد قطب : " ولما كانت الوقاية هي المقصودة بهذا الإجراء ، فقد مضت الآية تنهى المؤمنات عن الحركات التي تعلن عن الزينة المستورة وتهيج الشهوات الكامنة ، وتوقظ المشاعر النائمة . ولو لم يكشفن فعلاً عن الزينة :ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وإنها لمعرفة عميقة بتركيب النفس البشرية وانفعالاتها واستجاباتها . فإن الخيال ليكون أحياناً أقوى في إثارة الشهوات من العيان وكثيرون تثير شهواتهم رؤية حذاء المرأة أو ثوبها ، أو حليها ، أكثر مما تثيرها رؤية جسد المرأة ذاته . كما أن كثيرين يثيرهم طيف المرأة يخطر في خيالهم ، أكثر مما يثيرهم شخص المرأة بين أيديهم وهي حالات معروفة عند علماء الأمراض النفسية اليوم وسماع وسوسة الحلي أو شمام شذى العطر من بعيد ، قد يثير حواس رجال كثيرين ، ويهيج أعصابهم ، ويفتنهم فتنة جارفة لا يملكون لها رداً . والقرآن يأخذ الطريق على هذا كله . لأن منزله هو الذي خلق ، وهو الذي يعلم من خلق . وهو اللطيف الخبير "[2]

---

[1] – التعبير عن الثنائية بالمركبتين المركبة الأولى والثانية هو تعبير رياضي في المعلم"المستوي" الثنائي البعدين لا تتحدد النقطة إلا بمعرفة إحداثياتها المركبة الأولى (على محور الفواصل) والمركبة الثانية (على محور التراتيب)

[2] – سيد قطب (ت1387 هـ) إبراهيم ، "في ظلال القرآن " دار الشروق القاهرة ، ج4 ص2514

المبحث الثاني : الصفات الإيجابية

المطلب الأول : الإنسان مؤمن بالفطرة :

لاشك أن التدين ضرورة للإنسان أيّا كانت عقيدته ،فهو لازم له، وحاجته إلى العقيدة والدين لإشباع للجانب الروحي والوجداني ليست أقل من حاجته إلى الغذاء لحفظ جسده. ومهما حقق من كسب في جلب للمنافع المادية ، يبقى يشعر بالفراغ الداخلي والنقص حيال الجانب الروحي .

فأنّى يحصل له الاطمئنان النفسي من الخوف ؟

وأنّى يستمد القوة لمغالبة ضعفه ؟

وأنّى يحصل له الثبات للمواجهة ، حين تعتريه فترات اليأس والقنوط ؟

وأنّى تحصل له قوة الصّبر عند الشدائد والمصائب والصّدمات؟

شعوره بالحاجة الروحية ينبع من أصل خلقته وجبليته وفطرته. قال بعضهم في هذا الشأن متسائلا : "لماذا أنا متدين ؟ إني لم أحرك شفتي بهذا السؤال مرة ، إلا وأراني مسوقا للإجابة عليه بهذا الجواب ، وهو : أنا متدين لأني لا أستطيع خلاف ذلك ، ولأن التدين لازم معنوي من لوازم ذاتي "[1]

فهل الإنسان مؤمن بالفطرة ؟

اختلف العلماء في هذه المسألة ، وذهبوا فيها مذاهب شتى ومردُّ ذلك إلى تفسير معنى الفطرة في النصوص الشرعية التي هي محل احتجاج . منها :

---

[1] – يوسف القرضاوي "مدخل لمعرفة الإسلام " نقلا عن : أوجيست سياته في كتابه " فلسفة الأديان " ص 9

قوله تعالى : " فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ "(1)

وما جاء في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ **" مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْه فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تبديلَ لخلقِ اللهِ ، ذلك الدينُ القيِّمُ "**(2)

أصل الفَطر في اللغة الشق ، وتفطر الشيء تشقق ومنه قوله تعالى : " إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ " (3)

والفِطرة : الابتداء والاختراع قال ابن عباس- رضي الله عنهما - : "ما كنت أدري ما فاطرُ السماوات والأرض حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر ، فقال أحدهما : أنا فطرتها أي أنا ابتدأت حفرها ." (4)

"والفَطر : إيجاد الشيء ابتداءً وابتداعا يقال فطر الله الخلق فطرا إذا ابتدعهم " (5)

اختلف العلماء في معنى الفطرة الواردة في النصوص الشرعية نحو قوله تعالى : " فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ و قول الرسول ﷺ :" **كل مولود يولد على الفطرة...**" إلى أقوال : ذهب الزجاج(ت311هـ) إلى أن الفطرة : الإيمان بالله ،

---

1 – الروم :29

2 – الحديث : رواه البخاري في صحيحه ، كتاب تفسير القرآن ، ج3 ص275

3 – الإنفطار : 1

4 – ينظر : ابن منظور، " لسان العرب " ، مادة : فطر ، ص 3433

5 – أبو الفتح ابن المطرز (ت610 هـ) ، " المغرب في ترتيب المعرب " ، تحقيق محمود فاخوري وعبد الحميد مختار ،ط 1 ، مكتبة أسامة بن زيد حلب سوريا ،ت ط 1979م ج2 ص 143

وذهب أبو هريرة (ت58ه) وابن شهاب(ت152ه) :أنها الإسلام وقال آخرون الفطرة :البداءة التي ابتدأهم الله عليها من حياة وموت وسعادة وشقاء وقال ابن المبارك (ت181ه) : " يولد على ما يصير إليه من سعادة أو شقاوة فمن علم الله تعالى أنه يصير مسلما ولد على فطرة الإسلام ومن علم أنه يصير كافرا ولد على الكفر ،وقال آخرون ليس المراد بالفطرة العموم وإنما هو خاص بالمؤمنين ، وقال آخرون :هي الخلقة التي خلق عليها المولود في المعرفة بربه عز وجل والفاطر الخالق[1].

إن لفظ " كل" من ألفاظ العموم التي يفيد الشمول والاستغراق وهي مبتدأ وأما الخبر فهو الجملة الفعلية "يولد على الفطرة " والتقدير : كل إنسان مولود على الفطرة ، إلا أن من ذهب إلى أنه لم يرد به العموم وإنما أريد به الخصوص

قالوا :" ليس المراد بقوله تعالى :" **فطر الناس عليها** " ولا قوله عليه السلام " **كل مولود يولد على الفطرة** " العموم ، وإنما المراد به الناس المؤمنين وحجتهم في ذلك :

أولا:

أن الله تعالى لو فطر الجميع على الإسلام لما كفر أحد وقد ثبت أنه خلق أقواما للنار لقوله تعالى : وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾ "[2]

ثانيا :

أن الغلام الذي قتله الخضر طبع يوم طبع كافرا

[1] – في تفصيل مذاهب الفطرة ينظر : القرطبي ، " الجامع لأحكام القرآن " ،ج16 ص 422 وما بعدها

[2] – الأعراف : 179

ثالثا :

ما روي عن أبي سعيد الخذري (ت74ه) رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :" **أَلَا إِنَّ بَنِي آدَمَ خُلِقُوا عَلَى طَبَقَاتٍ شَتَّى فَمِنْهُمْ مَنْ يُولَدُ مُؤْمِنًا وَيَحْيَا مُؤْمِنًا وَيَمُوتُ مُؤْمِنًا وَمِنْهُمْ مَنْ يُولَدُ كَافِرًا وَيَحْيَا كَافِرًا وَيَمُوتُ كَافِرًا وَمِنْهُمْ مَنْ يُولَدُ مُؤْمِنًا وَيَحْيَا مُؤْمِنًا وَيَمُوتُ كَافِرًا وَمِنْهُمْ مَنْ يُولَدُ كَافِرًا وَيَحْيَا كَافِرًا وَيَمُوتُ مُؤْمِنًا ...**" [1]

رابعا :

قالوا والعموم بمعنى الخصوص كثيرا في لسان العرب ألا ترى إلى قوله تعالى :

تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا تُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ [2] و لم تدمر السماوات والأرض

وقوله : فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ [3] و لم تفتح عليهم أبواب الرحمة

خامسا : قال إسحاق بن راهويه الحنظلي (ت 238 ه) الكلام عند قوله " **فأقم وجهك للدين حنيفا** " ثم قال" **فطرة الله** " أي فطرة الله الخلق إما بجنة أو نار إليه أشار النبي ﷺ" **كل مولود يولد على الفطرة** "ولهذا قال تعالى "**لا تبديل لخلق الله** "

---

[1]- ذكره حماد بن زيد بن سلمة في مسند الطيالسي هكذا أخرجه القرطبي أخرجه الترميذي في سننه كتاب الفتن عن رسول الله ﷺ والحديث متصل السند مرفوع إلى النبي ﷺ ، وأخرجه أحمد في مسنده في كتاب باقي مسند المكثرين ج3 ص 19وهو أيضا متصل السند ومرفوع تعليق شعيب الأرنؤوط : إسناد ضعيف لضعف علي بن زيد بن جدعان وبقية رجاله ثقات رجال الصحيح

[2]- الأحقاف : 24

[3]- الأنعام : 45

مناقشة الحجج :

فأما حملهم قوله عليه السلام :"**كل مولود يولد على الفطرة**" على الخصوص فهذا تأويل وخروج عن الوضع اللغوي - ما تواضع عليه العرب في كلامهم -

فلفظ "كل" من ألفاظ الجموع نحو: جميع وعامة وكافة وهي واحدة من صيغ العموم ، وُضعت في الأصل للدلالة على العموم ، والمصير بها إلى غير ما وضعت له يتطلب قرينة ، فإن هي أفادت الخصوص صار استعمالها من قبيل المجاز ،والقرينة التي قدمها أصحاب هذا المذهب، تنطلق من مجرد فرضية أنزلوها منزلة المسلمة ، وهي حمل الفطرة على الإسلام .

وأقل ما يقال عنها أنها ليست قطعية الدلالة ،وهذه المسألة فيها نظر لأن العلماء اختلفوا فيها اختلافا كبيرا .وهذا الحد هو القدر الذي يشترك أصحاب هذا المذهب مع مذهب أبو هريرة وابن شهاب السالف الذكر إلا أنهم لم يقولوا بالخصوص .

والحقيقة أن اللفظة في اللغة الأصل أنها تحمل على الحقيقة ،ولا يصار بها إلى المجاز إلا إذا تعذر حملها على الحقيقة وليس الأمر كذلك. بل وأكثر من ذلك إذا تساوت الحقيقة والمجاز - اللفظ يحتملهما جميعا- تظل الحقيقة هي الرائجة .

وأما قولهم أن العموم يأتي بمعنى الخصوص في لسان العرب وكذا القرآن فهذا مما لا ينكره عاقل ، بل وهو واحد من استعمالات العام من حيث الدلالة نحو قوله تعالى : " وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا " (1)

فهذا عام أريد به خصوص المكلفين ، فالصبيان والمجانين خارجون من عموم الناس في هذا الحكم .

---

1 - آل عمران : 97

وأما قولهم وجود ذلك وبكثرة -على حد تعبيرهم- فإن ذلك لا يخرجه من كونه استثناء لا قاعدة واستعمالا فرعيا لا أصليا ، ثم كونه كثيرا ، لا يعني أن النص الذي نحن بصدده هو من هذا القبيل.

وأما القول في أولى حججهم أنه " لو فطر الله الناس على الإسلام لما كفر أحد" فهم يقيمون هذه الحجة من منطلق أن الفطرة غير قابلة للتغيير.

فالإنسان مفطور على حب المال ، ونجده ينفق المال على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا والإنسان مفطور على حب الذات ، ونجده يؤثر غيره على نفسه

والإنسان مفطور على حب الشهوات ، ونجده يؤثر تحمل المكروه على الاستجابة لشهوة زائلة منقضية آنية .

فالفطرة تتغير من السلب إلى الإيجاب إذا ما اتخذت الأسباب .كما تتغير من الإيجاب إلى السلب إذا وجدت عوامل إخراجها من فطرها السليمة نحو تهويد وتنصير وتمجيس الأبوين لولدهما .

وأما الغلام الذي قتله الخضر، فلقد سبق في علم الله تعالى أنه سيكون كافرا ويرهق أبويه المؤمنين، فكان قتله الذي ظاهره سيئة، هو حسنة وقربة من أفضل القربات ، وليس المقصود أن الله فطره على الكفر.

وأما وجه الاستدلال بآية الأعراف فإنه لا ينكر عاقل أن الله تعالى سبق في علمه عمل خلقه وما سيكون عليه مصيرهم من سعادة أو شقاوة فكتب ذلك عند قبل خلقهم ، فخلقهم للنار بعدله كما خلق غيرهم للجنّة بعدله. وقد بينت الآية الكريمة مسؤولياتهم الكاملة على مصيرهم ، وما آلت إليه عاقبتهم ، فقد أساءوا استخدام عقولهم وحواسهم ،التي أنعم الله بها عليهم والتي تؤهلهم للهداية والفوز بنعيم الآخرة ، واتقاء عذابها وجحيمها .فهم باختيارهم لهذا المنحى ، بأن

عاشوا لغرائزهم وشهواتهم قد جنوا على أنفسهم ، شأنهم في ذلك شأن الأنعام ، ووجه كونهم أضل لأنهم لم ينتفعوا بما فضلهم الله تعالى على الأنعام وسائر المخلوقات. قال تعالى : وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ " (1)

وأما حديث أبي سعيد الخذري الذي رواه أحمد والترمذي فإنه ورد في سياق بيان أن العبرة بخواتم الأعمال ، حتى لا يغتر المرء المؤمن بإيمانه وعمله الصالح ، فيأمن مكر الله ، ولا ييأس الكافر والفاسق ، فيقنط من رحمة الله ، وبهذا يعيش المرء بين ثنائية الخوف والطمع وهو ما يعرف بفقه التوازن .

إن نقطة ارتكاز أصحاب هذا المذهب من الحديث ، هو قوله ﷺ " **منهم من يولد كافرا** " فخلصوا إلى أن الفطرة قد تكون الإيمان وقد تكون الكفر، فلما كان حديث أبو هريرة فيه التهويد والتنصير والتمجيس فإنهم لم يجدوا مناص من تأويل عبارة "**كل مولود**" وحملها على أبناء المؤمنين خاصة ليستقيم بها مذهبهم في المسألة.

لقد وجدنا الأحوذي (ت1353ه) في شرحه للحديث السالف الذكر قد فسر قوله ﷺ " **منهم من يولد مؤمنا** " :" أَيْ مِنْ أَبَوَيْهِ الْمُؤْمِنَيْنِ أَوْ فِي بِلَادِ الْمُؤْمِنِينَ فَإِنَّهُ حِينَ يُولَدُ قَبْلَ التَّمْيِيزِ لَا يُنْسَبُ إِلَيْهِ الْإِيمَانُ إِلَّا بِاعْتِبَارِ مَا عَلِمَ اللَّهُ فِيهِ مِنْ الْأَزَلِ

أَوْ بِاعْتِبَارِ مَا يَئُولُ إِلَيْهِ أَمْرُهُ فِي الِاسْتِقْبَالِ" **ومنهم من يولد كافرا** " قال بخلاف ما سبق " (2) وهو يعني طبعا ، أنه يولد من أبوين كافرين أو في بلاد الكفر.

---

1 – الإسراء : 70

2 – المباركفوري (ت1353ه) ، محمد عبد الرحمن ، "جامع الترمذي مع شرح تحفة الأحوذي "، ط3 ، دار الكتاب العربي بيروت لبنان ت ط 1984م ، ج5 ص480

الحقيقة أن استقراء النصوص الشرعية ، من كتاب وسنة ، يجعلنا نطمئن ونميل إلى ترجيح حمل لفظ الكل على العموم ، أي الناس جميعا على اختلاف أجناسهم وألوانهم وألسنتهم .وأن المقصود بالفطرة الخلقة التي خلق عليها من امتلاكهم القابلية والاستعداد للوصول إلى حقيقة الكون، وأنه جبل على أن يكون مهيئا وله قابلية لقبول الهداية والاستدلال على خالقه والاعتراف به ويعضده قوله تعالى :" وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ"

وقوله أيضا :" وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ " [1]

وهو موافق للغة ،جاء في لسان العرب "

الفطرة ما فطر الله عليه الخلق من المعرفة به " [2]

وأفضل ما قيل في شرح حديث الفطرة - في رأينا والله أعلم - ماجاء في "النهاية في غريب الأثر : " أن المولود يُولد على نَوْع من الجِبِلَّة ، وهي فِطْرةُ اللّه تعالى وكَونُه مُتهيّئاً لقَبول الحق طبْعاً وطَوْعاً ، لو خَلَّتْه شياطين الإنس والجنّ وما يَخْتار لم يَخْتر غَيرها "[3] وعبارة " لو خلته شياطين الإنس والجن " توحي بقبول الفطرة للتغيير .

---

[1] – الأعراف : 176

[2] – ابن منظور ، "لسان العرب " مادة :ف ط ر ، ص3433

[3] – بن الجزري(ت 606 ه) مجد الدين المعروف بابن الأثير، " النهاية في غريب الحديث والأثر " ، تحقيق : طاهر أحمد الزاوى و محمود محمد الطناحي ، دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان ، ت ط 1963م ، ج 1 ص 247

المطلب الثاني : الإنسان يملك الاستعداد للبيان

البيان : أصله الكشف والظهور ،وهو ما يتبين به الشيء من الدلالة وغيرها والبيان هو" إظهار المعنى للنفس كائنا ما كان "[1]

إن استقراء النصوص الشرعية من الكتاب والسنة ، يكشف لنا بما لا يدع مجالا للشك ، أن البيان ميزة خص بها المولى عز وجل الإنسان دون غيره من المخلوقات ، وجعلها مركوزة فيه تمكنه من التعبير عما يخالجه نفسه من شعور وأحاسيس ، وإخراجها من حيز الإخفاء إلى حيز الظهور و التجلي، وإيصالها إلى غيره عن طريق الكلام أو الإشارة أو التلميح أو الصورة ، أو غيرها من وسائل التعبير والتواصل .

وإذا كان يملك القدرة على البيان ، فهو حتما يملك القدرة على الاستبيان، استبيان ما يود معرفته من غيره عن طريق السؤال أو السماع و التحليل والتركيب وغيره ،وذلك بما وهبه الله تعالى من حواس وقدرات عقلية

قال تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾[2]

اختلف علماء السلف في معنى البيان الوارد في الآية الكريمة وذهبوا فيه مذاهب شتى : فسر بالمنطق والكلام ، وبمعرفة الخير والشر ، وبمعرفة الحلال والحرام والهداية والضلال وبما ينفع ويضر وبالكلام والفهم [3]

---

[1] – أبو هلال العسكري ، " الفروق اللغوية " ، باب : الفرق بين البيان والهدي ، ص 209

[2] – الرحمن : 2/1

[3] – ينظر: الماوردي ، " النكت والعيون "،ج5 ص423

البيضاوي ، ناصر الدين عبد الله بن عمر بم محمد الشيرازي، "أنوار التنزيل وأسرار التأويل" حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه وضبط نصه: محمد صبحي حسن حلاف ومحمد أحمد الأطرش، ط1 ، دار الرشيد دمشق سوريا ، ت ط 2000م ،ج5 ص235

ويبدو أن المعنى الأخير-تفسير البيان بالكلام والفهم- هو الأقرب إلى الصواب فالأول أي الكلام يمكنه من إظهار المعنى للنفس ، والثاني يمكنه من استبيان ما عند غيره مما يود معرفته وليس ذلك إلا للإنسان، ويعضده قوله تعالى مخاطبا نبيه محمد ﷺ " وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ "[1]

فالرسول ﷺ مبين عن الله تعالى مراده فيما أجمله في كتابه نحو أحكام الصلاة والزكاة وغيرها بعد فهمه واستيعابه .

ومعلوم أن الناس وإن اشتركوا في امتلاكهم هذا الاستعداد للبيان ، إلا أنهم متفاوتون في درجته ، متفاضلون في قوته وجودته رغم اتحاد المادة الأولية المتمثلة في المفردات العربية . ذلك أن اختيار اللفظ المناسب ينبئ عن ذوق المتكلم ، وهو ما أشار إليه الزرقاني في" مناهل العرفان "والسيوطي في" الإتقان "

قال الزرقاني :"... وقل مثل هذا في كل ما حولك من صناعات يختلف فيها الصناعون ومصنوعاتهم جودة ورداءة مع اتحاد مواد الصناعة الأولى وقواعدها في الجميع .كذلكم البيان اللغوي في أية لغة ،ما هو إلا صناعة ،وقواعدها واحدة في المفردات والتراكيب، ولكن البيان يختلف بعد ذلك باختلاف الطرائق والأساليب ،وإن شئت فقل : يختلف باختلاف الأذواق والمواهب التي انتقت هذه المفردات اللغوية ،واصطفت تلك الجمل التركيبية ... فإذا سلم ذوق المتكلم وسمت حاسته البيانية ،حسن اختياره ، وسما كلامه سمو قد يأخذ عليك حسك ، ويملك قلبك ولبك "[2]

فالبيان إذا هو إظهار المقصود بأبلغ لفظ ، بغض النظر عن صدقه وكذبه ، فالبيان ليس قيمة أخلاقية يحكم عليها بالإيجاب والسلب ، فهي لا تعدوا أن تكون

---

[1] - النحل : 44

2- الزرقاني ، (ت 1367هـ) محمد عبد العظيم ، " مناهل العرفان في علوم القرآن "، تحقيق :فواز أحمد زمرلي، ط1 ، دار الكتاب العربي بيروت لبنان ، ت ط 1995م ، ج2 ص219 ، السيوطي ، "الإتقان في علوم القرآن " ج2ص240 / 241

وسيلة للوصول إلى الغاية المرجوة فإذا استخدمت في الجانب الإيجابي كانت محل مدح وإذا استخدمت في غير ذلك فهي محل الذم ، فقد روى عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قدم رجلان من المشرق فخطبا ، فعجب الناس لبيانهما فقال رسول الله ﷺ **" إِنَّ مِنْ الْبَيَانِ لَسِحْرًا أَوْ قَالَ إِنَّ بَعْضَ الْبَيَانِ لَسِحْرٌ"** [1] "

من " حرف جر للتبعيض ، جاءت لتنفي وصف السحر عن عموم البيان ، والسحر هو قلب الشيء عن حقيقته من أعين الناس . وأفضل ما قيل في معنى الحديث ، أنه يبلغ من بيان ذي الفصاحة ، أنه يمدح الإنسان فيُصدَّق فيه حتى يصرف القلوب إلى حبه ، ثم يذمه حتى يصرف القلوب إلى بغضه ، فكأنه سحر السامعين بذلك. وهو وجه قوله ﷺ :" **إن من البيان لسحرا** ".ويعضد هذا التفسير السياق والمناسبة التي لابست ورود الحديث

نقل كل من الميداني (ت 518 هـ) في " مجمع الأمثال" وأبو هلال العسكري (ت 395 هـ)في "جمهرة الأمثال " أن رسول الله ﷺاله حين وفد عليه عمرو بن الأهتم والزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم ، فسأل رسول عمر بن الأهتم عن الزبرقان بن بدر فقال عمرو : مطاع في أذنيه ، شديد العارضة ، مانع لما وراء ظهره . فقال الزبرقان : والله يا رسول الله إنه ليعلم مني أكثر مما قال ولكنه حسدني شرفي فقال عمرو : أما لئن قال ما قال فوالله ما علمته إلا ضيق الصدر ، زمر المروءة ، أحمق الوالد ، لئيم الخال ، حديث الغنى فلما رأى أنه خالف قوله الآخر قوله الأول ورأى

1- الحديث :رواه البخاري في صحيحه ، في باب إن من البيان سحرا ،ج4 ص49 وفي باب الطب ،وأبو داوود في كتاب الأدب أحمد في مسند الكوفيين والإمام مالك في كتاب الجامع

الإنكار في عين رسول الله قال :يا رسول الله رضيت فقلت أحسن ما علمت ، وغضبت فقلت أقبح ما علمت ، وما كذبت في الأولى ولقد صدقت في الآخرة فقال رسول الله عند ذلك :"**إن من البيان لسحرا** " [1]

وليس البيان مقصورا على الكلام والنطق فحسب ، بل يتعداه إلى الإشارة والرمز وغيرها ، فالصم البكم يملكون القدرة على التواصل وابتكار الأسلوب الملائم لذلك ، تعبيرا عما يريدونه أو استبيان ما يريدون معرفتهم من غيرهم ، وإن كتم صوتهم وخرص لسانهم .

ومما لا شك فيه أنه لو اجتمع ناس اختلفت ألسنتهم بحيث لا أحد يفهم لغة الآخر ، فإنه بالتأكيد سيجدون طريقة للتواصل فيما بينهم يصطلحون عليها ، هي عين البيان ، ذلك لأن الإنسان مذ أن خلقه الله تعالى مزود بهذه الميزة والخاصية - فطرة امتلاك القدرة على البيان - وليس ذلك إلا للإنسان.

ويستوقفنا إشكال : أين يكمن جوهر الخلاف بين: من ذهب إلى أن البيان لا يكون بغير اللغة العربية وعلى رأسهم ابن فارس(ت395هـ) الذي ربط بين قوله تعالى:

ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٢ [2]

وقوله أيضا : " وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ۝١٩٥ " [3]

ليخلص إلى القول :" ... فلما خص جل ثناؤه اللسان العربي بالبيان علم أن سائر اللغات قاصرة عنه وواقعة دونه " [4] وبين من ذهب إلى أنه - أي البيان - يكون بغير

1- أبو هلال العسكري ، " جمهرة الأمثال " ،ج1ص165 ، الميداني ، " مجمع الأمثال " ج1ص1

2 – الرحمن : 2/1

3 – الشعراء : 192 إلى 195

4 – أحمد ابن فارس ، " الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها ، ص12

اللغة العربية على اعتبار أن البيان اسم جامع لما كشف لك المعنى وهو ما ذكره الجاحظ في كتابه" البيان والتبيين" و نقله الزرقاني في مناهل العرفان فقال : " وإذا كان تفسير القرآن بيانا لمراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية ،فهذا البيان يستوي فيه ما كان بلغة العرب وما ليس بلغة العرب ،لأن كل منهما مقدور للبشر " [1]

ويبدو أن منشأ الخلاف لا يعدوا أن يكون إشكالية المصطلح فابن فارس في حكمة على سائر اللغات بالقصور والعجز عن البيان ، لم يقصد بالبيان أصل استعماله إنما قصد حسن البيان ، بل وأخص البيان الذي تتحقق به البلاغة والفصاحة وهو بلا شك البيان اللغوي ، الذي يعبر عن سمو الكلام وإظهار المقصود بأبلغ لفظ ونقيضه العيي ،أو قل إن شئت هو من قبيل التعبير عن الشيء ببعضه مع إرادة الكل وهو من سنن العرب في كلامها [2] .

فابن فارس إنما قصد بالبيان بعضه أو أحد أقسامه . ويستدل عليه مما جاء في سياق حديثه عن باب القول في أن لغة العرب أفضل اللغات وأوسعها فقال:" إن كنت تريد أن المتكلم باللغة العربية قد يعرب عن نفسه حتى يفهم السامع مراده فهذا أخس مراتب البيان "[3] .

فلفظ " أخس " وهو من صبغ المفاضلة يدل دلالة واضحة على أنه لا يريد نفي مطلق البيان ، وإنما أعلى مراتب الكلام ،والجدير بهذا الوصف البيان وهو من قبيل

---

[1] – الزرقاني ، " مناهل العرفان " ، ج 2ص107

[2] – أحمد ابن فارس ، أفرد له في كتابه"" الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها " بابا تحت عنوان : اقتصارهم على ذكر بعض الشيء وهم يريدون كله " ، ص212

[3] – المرجع نفسه ، ص12

قوله ﷺ :" لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ"[1] فلقد دلت القرائن ، على أنه ليس المقصود به نفي الإيمان جملة وتفصيلا عمن ليست فيه هذه الخصلة ، وإنما المقصود نفي كمال الإيمان ، فهو لم يصل بعد إلى درجة الإيمان الحقيقي. ويعضده أن الإمام مسلم ذكره في "باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب نفسه " وقال الباقلاني : "وأما حسن البيان فالبيان على أربعة أقسام كلام وحال وإشارة وعلامة وبه يقع التفاضل في البيان ..."[2]

وهذا يهدي إلى القول أن ابن فارس إنما كان يخص به القسم الأول ، وأما أصحاب المذهب الثاني فإنهم حملوا اللفظ على عمومه وبمعناه الجامع لكل ما يدخل تحته ، وبهذا يمكن التوفيق بين المذهبين ، وأن الخلاف إن وجد فهو اصطلاحي ليس إلا،ولا مشاحة في الاصطلاح .

وأيا كان الأمر فإن البيان ميزة خص بها الله تعالى الإنسان دون غيره من المخلوقات بما يجعله أهلا للتكليف ، ومن لم تكن صفته البيان فهو مؤهل لأن يكون كذلك ، إن هو اتخذ بالأسباب وعليه تكون هذه الصفة له لا عليه إن هو أحسن استعمالها وتوظيفها في بلوغ الغاية التي وجد من أجلها.

---

[1] – الحديث رواه البخاري في صحيحه في باب : من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، ج1 ص21 ، ومسلم في صحيحه في كتاب الإيمان والنسائي وابن ماجة وأحمد

[2] – الباقلاني (ت403 هـ): ، أبو بكر محمد بن الطيب ، " إعجاز القرآن " ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، ت ط 2001م ، ج1 ص274

المطلب الثالث : قابلية النفس للترويض:

اقتضت حكمت الله تعالى أن تكون النفس البشرية ذات طبيعة خاصة ، ناقصة لكنها قابلة للكمال بالترويض والتربية دوافع غريزية يمتلك الإنسان القدرة على تحويلها إلى أعمال مرتضاة عقلا وشرعا وهو ما يعرف بالتسامي

قال تعالى : قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝ (1)

وما ذكرت النفس البشرية في القرآن الكريم إلا ونوازع الشر أشد التصاقا بها ، فإيثار الحياة الدنيا على الآخرة طبع غالب في الإنسان.

قال تعالى : بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝ (2)

ومن طبيعة النفس البشرية الميل إلى طبعها الغرائزي والشهواني ، وإنما يتخلص المرء مما هو في طبعه بالمجاهدة والرياضة – أي رياضة النفس – والحيلولة دون وصول هذه الغرائز والشهوات إلى القلب وتمكنها منه فيصير بها عليلا.

قال الغزالي (ت505هـ): " لا يخلو قلب عن أسقام ولو أهملت تراكمت وترادفت العلل وتظاهرت فيحتاج العبد إلى تأنق في معرفة عللها وأسبابها ثم إلى تشمير في علاجها وإصلاحها ، فمعالجتها هو المراد بقوله تعالى :" قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا وإهمالها هو المراد بقوله "وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا (3)

إن النفس إذا لم يتعهدها المرء بالإصلاح والتربية والمجاهدة تزداد النفس مرضا على مرض يكون مآله الخيبة وسوء العاقبة . وهو ما عبر عنه القرآن الكريم بالتدسي

---

[1] – الشمس : 9 / 10

[2] – الأعلى : 16 / 17

[3] – أبو حامد الغزالي (ت505 هـ): ، " إحياء علوم الدين " وبهامشه تخريج الحافظ العراقي ، تحقيق :محمد الخضر حسين ، دار الكتاب العربي بيروت لبنان ، ج3ص49

ولما كانت دعوة القرآن إلى تزكية النفس وتطهيرها متجلية ، علمنا أن النفس تملك قابلية التربية والترويض.

لقد اتسمت الشريعة الإسلامية بالواقعية ، ملائمة ومراعية للفطرة فلم تطالب المكلفين بأن يكونوا ملائكة مقربين ،لأن ذلك تكليف بما لا يطاق و لم تنكر عليهم حصول الذنب والمعصية لان البشر يطيع ويعصي ما دام باب التوبة مفتوحا ، وإنما أنكرت عليهم التمادي في الضلال والتفريط في سلوك طريق الهداية ، فجاءت أحكامها متوازنة .تحقق مطالب الجسد والروح من غير إفراط ولا تفريط .

قال تعالى " وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا [1] ومع ذلك ، تركت الباب مفتوحا لأصحاب الهمم العالية للارتقاء بأنفسهم ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

قال تعالى: ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ ۖ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۖ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ۝ " [2]

لقد بينت النصوص الشرعية قابلية تحول النفس من أمارة بالسوء إلى نفس لوامة ثم إلى نفس مطمئنة . وأثبتت التجارب وشهادات سالكي طريق التزكية ، الذين روَّضوا أنفسهم فحولوها من ضارية إلى ذليلة ، فأجبروها الصبر على اللذات الزائلة ، وحملوها على الطاعات وهي عليها مستعصية ، وفي ذلك اعتراف ضمني بقابلية النفس للترويض.

[1] – القصص : 77

[2] – فاطر: 32

قال ابن حزم: " واعلم أن رياضة الأنفس أصعب من رياضة الأسد لأن الأسد إذا سجنت في البيوت تتخذ لها أمن شرها والنفس إذا سجنت لم يؤمن شرها "[1]

بهذه الصفات الفطرية التي فطر الله تعالى الناس عليها ، وبما وهبهم من عقل وفطنة وذكاء ، أهلتهم لأن يكونوا مكلفين ،مسؤولين مسؤولية كاملة على أعمالهم وتصرفاتهم .وعليه تكون أعمالهم محل مدح وعتاب بل جزاء وعقاب.

[1] – ابن حزم الظاهري ، " الأخلاق والسير في مداواة النفوس " ، ص72

الفصل الثاني

العفة في اللغة والاصطلاح

الفصل الثاني : العفة في اللغة والاصطلاح

المبحث الأول : العفة في المعاجم اللغوية

أولا : العفة في معجم العين :

قال الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت170ه) :"العِفَّةُ: الكَفُّ عمَّا لا يحِلُّ. ورجل عَفيف ، يَعِفُّ عِفَّة، وقَومٌ عَفُّون، قال العجاج[1]:عَفٌّ فلا لاصٍ ولا مَلْصِيٌّ [2] أي لا قاذِفٌ ولا مَقْذُوفٌ، وأعْفَفْتُه عن كذا: كَفَفْته ،وامرأةٌ عَفَّةٌ بَيِّنَةُ العَفاف والعُفافةُ بقيَّةُ اللَّبن في الضَّرْعِ " [3]

العفة عند الخليل هي مطلق الامتناع عن الحرام ، لأن نفي الحل يعني الحرمة فالعفيف هو من يجتنب المحارم ، فالذي لا يقذف الناس فهو عف اللسان وفي الوقت نفسه منع نفسه من الوقوع في التهم والشبهات التي تجعله محلَّ قذفٍ نقول : "لصاه يلصوه ويَلصيه إذا قذفه "[4]

ثانيا : العفة في معجم مقاييس اللغة :

قال أحمد ابن فارس(ت195ه) : "العين والفاء أصلان صحيحان ، أحدهما الكف عن القبيح ، والآخر دال على قلة الشيء ، فالأول : العِفَّة الكف عما لا ينبغي

---

[1] – العجاج (ت نحو 90 ه): هو عبد الله بن رؤبة بن لبيد التميمي السعدي يعرف بالعجاج الراجز، راجز مجيد من الشعراء ولد في الجاهلية وأدرك الإسلام ،أسلم وعاش إلى أيام الوليد بن عبد الملك وهو والد رؤبة الراجز المشهور ."الإصابة" ،ج 5 ص91

[2] – قال العجاج : إني امرؤ عن جاريتي كفي *** عن الأذى إنّ الأذى مقليّ
وعن تبغّي سرّها غنيٌّ *** عف فلا لاص ولا ملصيٌّ

[3] – الفراهيدي ، "كتاب العين " ، ج3 ص190

[4] – ابن منظور ،" لسان العرب " ، ص4033 وكذا للأزهري (ت370 ه)، " تهذيب اللغة" ، ج4 ص224

والأصل الثاني : العُفَّة بقيةُ اللَّبن في الضَّرع"[1]

وقال أيضا :" الكف عن القبيح واحدٌ من المعاني الأصلية التي دل عليها لفظ العفة كف الرجل عن الأمر انصرف وامتنع وكف ماء وجهه : صانه ومنعه من بذل السؤال "

ومعنى قول ابن فارس " العين والفاء أصلان صحيحان "أي أنهما تستعملان استعمالا أساسيا في أصلين رئيسيين، وذكر أن أحد الأصلين الكف عن القبيح ، والقُبح ضد الحُسنِ ، والقبيح في اللغة يكون في الصورة والفعل يقال صورة قبيحة وفعل قبيح . وفي القرآنِ " **ويَوم القِيَامةِ هم مِن المَقْبُوحِين** " أَي البعَيدينَ عن كلِّ خَيرْ . وعن ابن عبّاس : أَي من ذَوِي صُوَرٍ قبيحةٍ .فهو مَقْبُوحٌ .وقال ابن سِيدَه : المقبوح : الذي يُرَدّ ويَخسأُ "[2]. غيرأن قوله : الكف عما لا ينبغي إشارة إلى تجاوز الكف عن الحرام إلى الكف عن كل شيء قبيح الذي ترْكُه أولى وأحسن.

والأصل الثاني بضم العين العُفَّة البقية من اللَّبن في الضرع بعد أن يمتك أكثره ، والاكتفاء بالشيء القليل الجاري مجرى العفة والعفافة ، وفيه معنى القناعة والبعد عن الشره ، بالقدر الذي يجعل صاحبه في غير حاجة وخصاصة ، فهو في غنى عن الاستكثار وطلب المزيد بالشيء القليل الذي بين يديه . وعندما نتأمل قليلا في الاستعمالين الأساسيين :الكف عن كل قبيح ، والقناعة بالقليل والاستغناء عن طلب المزيد نجدهما متكاملين ويرتبطان مع بعضهما البعض ارتباطا وثيقا .

---

[1] – أحمد بن فارس (ت195هـ) ، " معجم مقاييس اللغة " ، تحقيق وضبط : عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ج3 ص315

[2] – ينظر : الزبيدي(ت1205 هـ) ، محمد مرتضى الحسيني ،" تاج العروس من جواهر القاموس" تحقيق :عبد الستار أحمد فراج ، دار التراث العربي الكويت ت ط 1965 م ، ج1ص1706

فالأول يقود إلى ضبط النفس .ويظهر ذلك على صاحبه في صورة القناعة والرضا والشكر. وأما الثاني فإنه يحمله على القناعة .فلا يرى ضرورة اقتحام الحرمات بل ولا الشبهات تلبية لمطالب النفس الغير متناهية ، لأنه في غنى عنها .

ففي مجال شهوات الفرج يستغني بالحلال عن الحرام ،ولا يتعداه إلى ما وراء ذلك ، وحتى عند العجز عن الحلال يبحث عن طريق لإضعاف باعث الشهوة - شهوة الفرج - ولو بالصوم . وفي مجال شهوة المال يستغني بالقليل عن الكثير فكثُر القليل في عينه ،فهو لا يحمل همَّ الخصاصة بغناه النفسي ، فقد ربَّى نفسه وحملها على ذلك.

ثالثا : العفة في معجم تهذيب اللغة

قال الأزهري (ت 370هـ) :" قال أبو عبيد: العُفافة: بقية اللبن في الضرع بعد ما يُمتَكُّ أكثره. قال: وهي العُفّة أيضاً. وقال الأعشى[1]:

ما تُعادَى عنهُ النهارَ ولا تَعْـــ *** جُـــوهُ إلا عُفافةٌ أو فُواق[2]

وقال غيره: العُفافة: القليل من اللبن في الضّرع قبل نزول الدِّرّة. ويقال عفّ الإنسان عن المحارم يَعِفُّ عِفَةً وعَفافاً، فهو عَفيفٌ وجمعه أعِفّاء. وامرأة عفيفه الفرج ونسوةٌ عفائف" [3]

ذكر الأزهري الاستعمال الأصلي في كلام العرب للعُفافة أو العُفّة وكلاهما

---

[1]– الأعشى: من شعراء الجاهلية عاش في أواخر العصر الجاهلي واسمه ميمون بن قيس بن جندل ولقب بالأعشى لضغف بصره ، كان يُغنى بشعره كان كثير التنقل والأسفار في أنحاء الجزيرة يمدح ساداتها وأشرافها وكان يفد على سوق عكاظ ويمدح من يمر به في طريقه إليها من شيوخ العرب وأشرافها، كانت وفاته سنة 729 م . شوقي ضيف "تارخ الأدب العربي " ص333 وما بعدها

[2] – "كتاب الصبح المنير في كتاب أبي بصير " وهو ديوان شعر الأعشى ميمون ، مطبعة أدولف هيلز هاوسن ، ت ط 1927 م ، ص141

[3] -الأزهري، "تهذيب اللغة " ،ج1 ص22

بالضم - أنها بقية اللبن في الضرع - واستدل بقول الأعشى. فالعفافةُ أن يحلب الرجل الناقة أو الشاة ويُلقى ولدها عليها فما أنزلت بعد ذلك فهي العُفافة وأما الفواق فهو ما بين الحلبتين وحد العفة هذا هو ما ذكره ابن فارس في الاستعمال الأصلي الثاني ، غير أنه لم ينف استعمال لفظ العفة بالكسر بمعنى الكف والابتعاد عن القبيح .

رابعا : العفة في معجم الصحاح في اللغة

قال الجوهري (ت393ه) :"عَفَّ عن الحرامِ يَعِفُّ عَفًّا وعِفَّةً وعفافاً وعَفافةً، أي كفَّ؛ فهو عفٌّ وعفيفٌ، والمرأة عَفَّةٌ وعَفيفَةٌ." [1]

العفة عند الجوهري مطلق الكف والامتناع ، بغض النظر عن مُتعلّقه ، عف عن الحرام بمعنى كف عن الحرام .

خامسا : العفة في معجم المحكم والمحيط الأعظم

قال ابن سيده (ت458 ه) :"العِفَّة: الكفُّ عما لا يحل ولا يجمل ،عفَّ يَعِفّ عِفَّة، وعَفافا، وعَفافة، وتَعَفَّف، واسْتَعَفَّ. وفي التنزيل: (**و ليستعفِف الَّذينَ لا يجدُونَ نِكاحا**)، فسره ثعلب فقال: ليضبط نفسه بمثل الصوم، فانه | وجاء. ورجل عَفٌّ، وعَفِيف. والأنثى بالهاء. وجمع العفيف أعِفة وأعفَّاء. ولم يكسروا العَفَّ. وقيل: العفيفة من النساء: السيدة الخيرة. ورجل عَفيف وعَفٌّ عن المسألة والحرص، والجمع كالجمع. قال رجل ووصف قوما: اعفَّةُ الفقر، أي إذا افتقروا لم يغشوا المسألة القبيحة. وقد عَفَّ يَعِفّ عِفَّة، واسْتَعفَّ. وفي التنزيل: (**وَ مَنْ كانَ غنياً فَلْيَسْتَعْفِفْ**). وكذلك: تعفَّف. " [2] . أضاف ابن سيده بعدا آخر للعفة عما ذكره سابقوه ،

---

[1] – الجوهري ، "الصحاح " ،المجلد الرابع ، ص1405

[2] – ابن سيده " المحكم والمحيط الأعظم " ، ج1 ص100

عندما قال :والكف عما لا يجمُل ، فالعفة عند ابن سيده ليست مجرد كف عن الحرام ، بل تتعداه إلى الكف عما لا يجمل بالمرء فعله مما لا يصل إلى درجة الحرام . فلعله استدرك ما يسعه اللفظ من معنى ، وصار هذا التعريف هو المعتمد في المعاجم التي جاءت من بعده . فقد تبناه ابن منظور(ت711ه) في "لسان العرب " والفيروزابادي(ت817ه) في" القاموس المحيط" ومحمد قلعجي في"معجم لغة الفقهاء"[1]وذكره الزبيدي (ت1205 ه)في "تاج العروس"[2]

بهذا يكون ابن سيده قد أسَّس لمصطلح العفة بهذا البعد الجديد ، أو القدر الزائد على مجرد الكف عن الحرام ،أو عما لا يحل إلا أن يكون ابن فارس(ت395ه) قصد في معنى القبح في قوله" الكف عن القبيح " القبح الشرعي والعقلي فيكون له فضل السبق . حيث نجده في موضع آخر ، يعرف العفة بأنها : "الكف عما لا ينبغي" وفيه إشارة إلى تجاوز الكف عن الحرام إلى الكف عن كل شيء قبيح الذي ترْكُه أولى وأحسن .

سادسا :العفة في معجم لسان العرب

قال ابن منظور (ت 711 ه) في مادة ع ف ف : "(عفف) العِفّةُ :الكَفُّ عما لا يَحِلّ ويَجْمُلُ عَفَّ عن المَحارِم والأَطْماع الدَّنية يَعِفُّ عِفَّةً وعَفّاً وعَفافاً وعَفافة فهو عَفِيفٌ وعَفُّ أَي كَفَّ وتعفَّفَ واسْتَعْفَفَ وأَعفَّه اللّه وفي التنزيل:" ولْيَسْتَعْفِف الذين لا يَجِدون نكاحاً "فسَّره ثعلب فقال : ليَضْبِطْ نفسه بمثل الصوم فإنه وِجاء وفي

---

[1] - محمد قلعجي ، " معجم لغة الفقهاء " وهو قاموس عربي إنجليزي ، ،ط2، ،دار النفائس للطباعة والنشر بيروت لبنان ، ت ط 1988 م ، ج1 ص136

[2] - الزبيدي ،" تاج العروس من جواهر القاموس" ، ج1 ص6030

الحديث :" **من يَسْتَعْفِف يُعِفّه اللّه** "، الاسْتِعْفاف طلَبُ العَفافِ وهو الكَـــفُّ عن الحرام والسؤال من الناس أي من طلب العِفّة وتكلّفها أعطاه اللّه إياها" [1]

فالعفة عند ابن منظور (ت 711ه) تجاوزت الكف عن المحارم ،إلى الكف عما لا يجمل بالمرء فعله ، نحو الكف عن الأطماع الدنيئة ،فالعفيف يتطلع إلى السمو والعلو والرفعة وعزة النفس. فطموحه كبير ، وهمته عالية، ففي مجال المال- أي العوز والحاجة إلى المال - فالعفة هي الكف عن الحرام والسؤال من الناس وهو قدر زائد على مجرد الكف عن الحرام.

وحد العفة هذا ما ذكره صاحب المحكم قبله ولا ريب في ذلك فقد قال ابن منظور(ت 711ه) في مقدمة معجمه – لسان العرب – :"و لم أجد في كتب اللغة أجمل من تهذيب اللغة للأزهري ، ولا أكمل من المحكم لابن سيده ..وما عداهما ثنيات الطريق " [2]

سابعا : العفة في القاموس المحيط

قال الفيروزآبادي (ت 817ه) :"عِفَّةُ بالكَسْرِ فهُو عَفٌّ وعَفيفٌ كَفَّ عَمَّا لا يَحِلُّ وَلا يَجْمُلُ كاسْتَعَفَّ وتَعَفَّفَ " [3]

ثامنا :العفة في معجم لغة الفقهاء

قال محمد قلعجي : "العفة: بكسر ففتح مصدر عف (ر: عفاف)، الكف عما لا يحل. عفيف اللسان: لا يتكلم بما لا يحل من الغيبة، وفارغ الكلام.

---

[1] – ابن منظور، " لسان العرب " ، ص3015

[2] – ابن منظور، " لسان العرب " ، ج1 ص36

[3] –الفيروز آبادي (ت817ه) مجد الدين محمد بن يعقوب ، " القاموس المحيط " ،ط3 ، الهيئة المصرية العامة للكتاب مصر ، ت ط 1979 م ، باب : الفاء فصل : العين ،ج3ص171

عفيف الفرج: لم يأت الزنا، وإليه ينصرف المعنى عند إطلاق لفظ العفة." [1]

قليل من تأمل في هذا النص ، يهدي إلى أن العفة مطلق الكف عن الحرام بغض النظر عن مُتعلقه ، إلا أن يعرف الكف بالإضافة فنقول عفة اللسان عفة الفرج غير أنه لم يُقدِّم القرينة التي جعلته يقول بانصراف لفظ العفة إلى الفرج عند الإطلاق.

[1] - محمد قلعجي ، " معجم لغة الفقهاء " ،ط2، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع ،بيروت لبنان ، ت ط 1988 م ،ج1 ص 316

المبحث الثاني : العفة في الشعر العربي

قال عنترة بن شداد[1] (ت22 قﻫ) :

وَلِلْحِلْمِ أوقاتٌ وللجهلِ مِثلُـــها *** ولكن أَوْقاتي إلى الحِـــلمِ أَقربُ
أصولٌ على أبناءِ جنسي وأرْتقي *** ويُعجِمُ فيَّ القائلـــون وأُعرِبُ
يَرَوْن احتِمالي عِفَّةً فيُريبُهـــــم *** تَوَفُّرُ حِلْمي أَنَّني لستُ أَغْضَبُ[2]

تركه الإساءة وتحمل الأذى وميله إلى الحلم[3] وبعده عن الجهل سببه العفة الحلم

هو الغالب في طبع عنترة ، لقد سبق حلمه غضبه ، الشيء الذي جعل قومه ينفون عنه صفة الغضب أو يشكون في احتمال غضبه. فالعفة في هذه الأبيات جاءت بمعنى الامتناع عن الغضب والتحلي بالحلم لمن يجهل عليه.

وقال في قصيدة أخرى :

وَأُغَضُّ طَرْفي ما بَدَتْ لِي جارتي *** حتَّى يُواري جـــارتي مَأْواهـــا
إني امْرُؤٌ سَهلُ الخليقةِ ماجِـــدٌ *** لا أُتْبِعُ النفسَ اللَّجُوج هواهـــا
وأُجيبها إما دَعَت لعظيمـــــةٍ *** وأُعيـــنها وأَكفُّ عمَّا سِواهـــا[4]

---

[1] – عنترة بن شداد العبسي (ت22قﻫ) أشهر فرسان العرب ، من شعراء الطبقة الأولى أمه حبشية واسمها زبيبة ، وكان من أحسن العرب شيمة ، ومن أعزهم نفسا يوصف بالحلم على شدة بطشه ، وفي شعره رقة وعذوبة . الرزركلي "الأعلام " ج5 ص91

[2] – عنترة بن شداد (ت22قﻫ) " ديوان عنترة "، مطبعة الآداب لأمين الخوري بيروت لبنان ، ت ط 1893 م، ص 13 / 14 قصيدة في الفخر مناسبة يتهدد عمارة والربيع إبني زياد العبسيين مُعرِّضا بذكر قومهما .

[3] – الحلم : هو الطمأنينة عند سورة الغضب، وقيل: تأخير مكافأة الظالم . الجرجاني ، "التعريفات " ، ص98 و أبو هلال العسكري ، "الفروق في اللغة " ، ص200

[4] – عنترة ،" ديوان عنترة " ، ص93

هذا في باب العفة والتحلي بمكارم الأخلاق في الجملة ومخالفة الهوى هو ملاك الأمر كله.

العفة هنا مرادفة لضبط النفس ، فهو يملك زمام نفسه ، ولا يسير وفق هواها ، فيعرف متى يجيبها ومتى يكبح جماحها .

وقال في أخرى :

يُخبِرُكِ منْ شَهِدَ الوَقِيـــعَةَ أنَّني *** أَغْشَى الوَغَى وأعِفُّ عِنْدَ المَغْنَمِ[1]

والمعنى أن أدع وأمتنع عن الغنائم عند تقسيمها ، أخوض غمار الحرب ، لا أرجو مغنما وهو تعبير عن كرم النفس. "فلم أتجر في درعي أو لم البسها لتغنم الأنفال بها "[2]والبيت بيِّنُ المعنى ، قريب الدلالة حتى أن أبو العباس المبرد(ت286هـ) صَّنفه في باب:من" ألفاظِ العربِ البيِّنةِ القريبةِ المُفهمةِ ، الحسنةِ الوصفِ، الجميلةِ الرَّصفِ[3] .والعفة هنا هي الامتناع عن شهوة المال.

وقال في أخرى تحت عنوان : لمن الشموس

أبصرتُ ثم هويتُ ثمَّ كتمتُ ما *** أَلْقى و لم يعلمْ بذاك مُنـــاجِ

فوصلتُ ثمَّ قدرتُ ثمَّ عففْتُ من *** شر فٍ تناهى بِي إلى الإنضاجِ[4]

فيه إشارة إلى أن العفة إنما تكون مع القدرة ، فلا يقال لغير مقتدر عفيف ، وقوله فوصلت ثم قدرت ثم عففت أي : تركت وتنازلت آثرا العفة عن الفعل بعد الاقتدار.

---

[1] – عنترة ، "ديوان عنترة " ، ص82

[2] – المرزوقي ،"شرح ديوان الحماسة" ، ص41

[3] – أبو العباس المبرد (285 هـ) محمد بن يزيد "الكامل في اللغة والأدب" ، حققه وعلق عليه ووضع فهارسه : د/ محمد أحمد الدالي ط3، مؤسسة الرسالة بيروت لبنان ، ت ط 1997 م ،ص40 /41

[4] – عنترة ، "ديوان عنترة " ، ص82

وقال **عقيل بن علفة**[1] (ت100هـ) :

ولست بسائلٍ جارات بيتـــي *** أغيـــابٌ رجالك أم شهـــود

وُصف هذا البيت بأنه: من جيد الكناية عن العفة ومعناه: " يحتمل وجهين:

أحدهما :أن يتبجَّحُ بتعففه في جاراته، وأنه لا يتطلب مفارقة القيمين بهن، بمرصد للتمكن منهن، فيكون ذلك باعثاً للسؤال عن رجالهن، ليغتنم الخلوة بهن.

والثاني : أن يريد رفع الطمع عن جيرته، وقلة الفكر في تتبع أحوالهم، عند حضورهم وغيبتهم، إذ لم يكن همه في النيل منهم، ومشاركتهم فيما يتجدد لهم من خير، فعل المسف للمطامع الدنية." [2]

و قال **حسان بن ثابت**[3] (ت 54 هـ) :

أعِفَّةٌ ذُكِرتْ في الوحي عِفَّتُهم *** لا يطمعون ولا يُرْديهم الطَّمـــعُ

ولا يَضَنُّونَ عَنْ مَوْلًى بِفَضْلِهِمِ *** وَلا يُصِيبُـــهُمُ في مَطْمَعٍ طَبَـــعُ [4]

العفة هنا بمعنى البعد عن مقارفة الفاحشة ، بل الامتناع عن مجرد التفكير فيها.

---

[1] - عقيل بن علفة بن الحارث بن معاوية، اليربوعي المري الضب أبي الذبياني، أبو العميس: شاعر مجيد مقل، من شعراء الدولة الأموية. كان من بيت شرف في قومه، ترغب قريش في مصاهرته، وفيه خيلاء وغطرسة، قال المبرد: " كان عقيل بن علفة من الغيرة والأنفة، على ما ليس عليه أحد ". الزركلي " الأعلام " ج4 ص242

[2] - المرزوقي ،"شرح ديوان الحماسة" ، ج1ص121 باب : ديوان عقيل بن علفة

[3] - حسان بن ثابت(ت54هـ) بن المنذر الخزرجي الأنصاري، أبو الوليد: الصحابي، شاعر النبي صلى الله عليه وسلم وأحد المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام. عاش ستين سنة في الجاهلية، ومثلها في الإسلام. وكان من سكان المدينة. واشتهرت مدائحه في الغسانيين، وملوك الحيرة، قبل الإسلام، وعمي قبيل وفاته. .الزركلي "الأعلام " ج2 ص175

[4] - حسان بن ثابت(ت 54 هـ) ،"ديوان حسان بن ثابت الأنصاري " ، دار صادر بيروت لبنان ، ص145

وقال **أبو نواس**[1] (ت198هـ) :

لقد زادني تيها على الناس أنني *** أراني أعفاهم وإن كنتُ ذا فقـــر

فو الله لا يبدي لساني لحاجـــة *** إلى أحـــد حتى أُغيَّبُ في القبر[2]

أقسم أن لا يسأل الناس حاجة من حوائج الدنيا ، بل مجرد إبداء الحاجة دون طلبها ما دام على قيد الحياة رغم فقره . فالعفة هنا عفة عن شهوة المال.

وقال **أبو العتاهية**[3] (ت210 هـ):

طلبتُ الغنى في كل وجهٍ فلم أجد *** سبيل الغنى إلا سبيـــل التَّعفُّفِ[4]

غنى المرء ما يكفيه من سدِّ خلَّةٍ *** فإن زاد شيئاً عاد ذاك الغنى فقراً[5]

المعنى : ليس الغنى عن كثرة العرض ، ولكن الغنى عنى النفس ،بالقليل مع القناعة يصير المرء غنيا وهو فقير. وبالكثير مع الشره وطلب المزيد يضل فقيرا، وهو غني .

وقال **ابن الرومي**[6] (ت283هـ) في قصيدة عنوانها :العفة والفقر :

ما الفقرُ عيباً ما تحمَّل أهلُـــــهُ *** ولم يسألوا إلا مُداواةَ دائِـــــهِ

ولا عيبَ إلاَّ عيبُ من يملكُ الغِـــنَى *** ويَمنعُ أهل الفقـــرِ فضل ثرائِـــهِ[1]

---

[1] – أبو نواس(ت198 هـ) شاعر العراق في عصره.ولد في الاهواز (من بلاد خوزستان) ونشأ بالبصرة، ورحل إلى بغداد فاتصل فيها بالخلفاء من بني العباس، ومدح بعضهم، وخرج إلى دمشق، ومنها إلى مصر، فمدح أميرها الخصيب، وعاد إلى بغداد فأقام إلى أن توفي فيها. نظم في جميع أنواع الشعر وأجود شعره خمرياته . الزركلي "الأعلام " ج2 ص225

[2] –أبو نواس (ت198 هـ) ، " ديوان أبي نواس " ، ط 1 ، المطبعة العمومية بمصر ، ت ط 1898 م ، ص 147

[3] – أبو العتاهية (ت211هـ) إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني، شاعر مكثر، سريع الخاطر، في شعره إبداع. كان ينظم المئة والمئة والخمسين بيتا في اليوم، حتى لم يكن للإحاطة بجميع شعره من سبيل .الزركلي "الأعلام " ج1 ص321

[4] – أبو العتاهية ،" ديوان أبي العتاهية " دار بيروت للطباعة والنشر لبنان ، ت ط 1986 م ، قصيدة : التعفف سبيل الغنى ، ص277

[5] – أبو العتاهية ، " ديوان أبي العتاهية " ، قصيدة : مكر الدهر ، ص185

[6] – ابن الرومي (ت283 هـ) علي بن العباس بن جريج، أو جورجيس، الرومي، أبو الحسن: شاعر كبير، من طبقة بشار والمتنبي، رومي الأصل، كان جده من موالي بني العباس، ولد ونشأ ببغداد، ومات فيها قال المرزباني: لا أعلم أنه مدح أحدا من رئيس أومرؤوس إلا وعاد إليه فهجاه ، وكان سببا لوفاته. .الزركلي "الأعلام " ج4ص297

ما تجمل أهله : التجمل هنا بمعنى: تزينوا بالعفة ورضوا بما قسم الله لهم، و لم يظهروا امتعاضا ولا تبرُّما . فزينة الفقير الصبر والعفة ، وآفة الِغنى المنع والشره.

وقال **المتنبي**[2] (ت354هـ) :

الظُّلمُ من شيمِ النفوس فإن تجد *** ذا عفَّــةٍ فَلِعلَّــةٍ لا يظلـــــمُ[3]

والمعنى أن الناس قد جُبلوا وطُبعوا على الظلم ، فإن وُجد من يتعفف عن الظلم فلعلةٍ ، قد تكون الخوف من أن يصيبه مكروه أو لعجزٍ أو قد يكون الباعث الديني، وعليه تكون العفة مطلق الامتناع .

وقال **المتنبي يمدح كافور** :

ولا عفــةٌ في سيفــهِ وسِنانه *** ولكنها في الكفِّ والفرْجِ والفمِ [4]

"يقول ليس بعفيف السيف والرمح ، فإنه إذا شهد الحرب قتل الأقران و لم يتعفف عن دمائهم ، وإنما عفته في كفه ، لا يأخذ من مال أحد شيئا ،وفي فرجه لا يقرب الزنا ،وفي فمه ، فهو يمسك لسانه عن كل ما لا يحل ولا يأكل إلا من حل "[5]

---

[1] – ابن الرومي (ت283 هـ) علي بن العباس "ديوان ابن الرومي " ، تحقيق : د/ حسين نصار،مطبعة دار الكتب والوثائق القومية القاهرة مصر ، ت ط 1973م ،ج1 ،ص130

[2] – المتنبي (ت354هـ) أحمد بن الحسين بن الحسن ، أبو الطيب الشاعر الحكيم، وأحد مفاخر الأدب العربي، له الأمثال السائرة والحكم البالغة المعاني المبتكرة ولد بالكوفة ونشأ بالشام، ثم تنقل في البادية يطلب الأدب وعلم العربية وأيام الناس.. قال الشعر صبيا ديوانه الشعري له شروحات وافية . الزركلي "الأعلام " ج1ص115

[3] – البرقوقي (ت1363 هـ) عبد الرحمن ، "شرح ديوان المتنبي " ، ط 2 ، دار الكتاب العربي بيروت لبنان ، ت ط 1986م ، ج4 ص253

[4] – البرقوقي " شرح ديوان المتنبي " ، ج 4 ص266

[5] – البرقوقي " شرح ديوان المتنبي " ، ج 4 ص266

كل ألفاظ العفة الواردة في البيت ،تفيد الامتناع والتَّأبِّي من مقارفة المعاصي ومنها عفة عن الظلم ،وعفة عن شهوة المال (امتناع عن مد الكف للسؤال)وعفة عن شهوة الفرج وعفة عن شهوة اللسان (عبر عنه بالفم كناية عن اللسان)

وقال في قصيدة أخرى:

عَفِيفٌ تَروقُ الشّمسَ صُورَةُ وجْهِهِ *** وَلَوْ نَزَلَتْ شَوْقًا لَحادَ إِلَى الظِّــلِّ [1]

يقول "إن الشمس تستحسن صورة وجهه ، فلو نزلت إليه الشمس شوقا إليه ، لمال عنها وعف: يعني أنه عفيف عن كل أنثى ، حتى عن الشمس ، فلو هي نزلت إليه لحقق معنى العفة " [2]

قال أبو فراس الحمداني[3] (ت357هـ):

عفافُك غيٌّ إنَّما عِفَّة الفــتى *** إذا عفَّ عن لذاته وهو قادرُ [4]

والمقصود أن العفة لا تكون بعد أن يرتع المرء في الفاحشة ، وهو مقصوده "بغيّ" أي الإكثار حتى أطفأ لذاته ، ولكن العفة الحقيقية أن تستثيرك اللذة وأنت تقمعها مع شهوتك لها ، وقدرتك عليها.

وقال ابن نباتة السعدي[5] (ت405هـ)

وأعيشُ بالبلل الذي لو أنــهُ *** دمــع لــما رويت به الامــاق

---

[1] – البرقوقي " شرح ديوان المتنبي " ، ج 4 ص14

[2] – البرقوقي " شرح ديوان المتنبي " ، ج 4 ص14

[3] – أبو فراس الحمداني (ت357 هـ) الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي الربعي، أبو فراس.شاعر أمير، فارس، ابن عم سيف الدولة. له وقائع كثيرة، قاتل بها بين يدي سيف الدولة، وكان سيف الدولة يحبه ويجله ويستصحبه في غزواته ويقدمه على سائر قومه، وقال ابن خلّكان: مات قتيلاً في صدد (على مقربة من حمص)، قتله رجال خاله سعد الدولة. . الزركلي "الأعلام " ج2ص155

[4] – أبو فراس ، "ديوان أبي فراس الحمداني " ، المطبعة الأدبية بيروت لبنان ، ت ط 1910 م ، ص5

[5] – ابن نباتة (ت405 هـ) عبد العزيز بن عمر بن محمد بن نباتة التميمي السعدي أبو نصر. من شعراء سيف الدولة بن حمدان طاف البلاد ومدح الملوك واتصل بابن العميد في الري ومدحه وقال ابن خلكان: معظم شعره جيد توفي ببغداد. .
الزركلي "الأعلام " ج4ص24

ويزيدُني عُدْمُ الدَّراهم عفَّـــةً *** وعلى الدراهمِ تُضربُ الأعنـــاقُ [1]

المعنى : شدة الفقر والحاجة تزيدني عفة ، في حين لا يتورع الناس في ضرب الأعناق من أجل المال . فالعفة هنا عفة عن شهوة المال .

قال الشريف الرضي[2] (ت 406 هـ) :

خلونا فكانت عفة لا تعفـــف *** وقدُ رفعت في الحيِّ الموانـــعُ

سلو مضجعي عنِّ وعنها فإننـــا *** رضينا بما يخبرن عنا المضاجعُ [3]

وقال في أخرى :

وإذا هممتُ بمن أُحبُّ أمـــالني *** حَصرٌ يعـــوق وعفةٌ تنهـــاني [4]

في نفس المعنى دائما ، البعد عن الشهوات ، إلا أنه يتحدث عن عفة أصيلة لا متكلفة .

قال ابن الابار[5] (ت 658 هـ) :

إذا رُمتُ لقياها عداني مُراقبٌ *** فأقنع منها بالخيالِ المُسلِّـــمِ

أطوفُ بها شوقاً وأُمسكُ عفَّةٍ *** فأحْسَبُني بين المقامِ وزمـــزمِ [6]

---

1 - محمود سامي البارودي ، "مختارات البارودي " ، تحقيق : د/ السيد إبراهيم محمد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ،ت ط 1993 م، ص348

2 – الشريف الرضي(406 هـ): محمد بن الحسين بن موسى، أبو الحسن، الرضي أشعر الطالبيين على كثرة المجيدين بغداد من الطبقة الأولى رصفا وبيانا وإبداعا.له مجاز القرآن والمجازات النبوية ، توفي ببغداد . الزركلي "الأعلام " ج6 ص99

3 – "ديوان الشريف الرضي " ، المطبعة الأدبية بيروت لبنان ، ت ط 1307 هـ ، ج1 ص501

4 – ديوان الشريف الرضي ، ج ص

5 – ابن الابار (ت658 هـ)أبو عبد الله بن الآبار الله بن أبي بكر القضاعي. الكاتب والأديب الأندلسي الشهير في القرن السابع الهجري، وصاحب القصيدة السينية التي ذاع صيتها. من آثاره: "التكملة"، "الحلة السيراء"، "المقتضب"وغيرها . الزركلي "الأعلام " ج6 ص233

6 – ديوان ابن الابار

قوة الشوق والدافع إلى الشهوات،يقابله قوة الضابط للإمساك بزمام النفس وعنانها وفيه إشارة إلى قوة الوازع الديني ، الذي صرع باعث الشهوة .وأن المرء إنما يُقاد من داخله.

والذي نخلص إليه ، بعد هذه الجولة في ثنايا الشعر العربي ، باعتباره مخزون التراث اللساني للأمة ومدونتها، أن العفة عند الشعراء جميعهم لا تخرج عن ضبط النفس عن مشتهياتها ، سواء في مجال شهوة الفرج أو المال أو عن الأخلاق الدنيئة واستقراء الأبيات ،يهدي إلى أن العفة خلق متأصل ينبو بحق عن صفاء السَّريرة ، ومدعاة للافتخار والتغني به .وحُقَّ لهم ذلك

المبحث الثالث : العفة في اصطلاح العلماء :

أولا : العفة عند الراغب الأصفهاني

قال الراغب الأصفهاني (ت 425 هـ): "عف: العفَّةُ حصولُ حالةٍ للنَّفس تمتنعُ بها عن غلبةِ الشهوةِ، والمتعفِّفُ المُتعاطي لذلك بضربٍ من الممارسةِ والقهرِ، وأصله الاقتصارُ على تناولِ الشيء القليل الجارِي مجرى العُفافةِ ، والعُفَّة أي البقيَّة من الشيء، أو مجرى العفْعفِ وهو ثمر الأراك، والاستعفافُ طلبُ العِفَّة، قال (ومن كان غنيا فليستعفف) وقال (وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا)." [1]

العفة عند الراغب ليست حاصلة بالفطرة ، وإنما بالاكتساب بضرب من الممارسة والقهر ،وفي ذلك اجتهاد في حمل النفس على العفة وهي ليست من طبيعتها وفيه إشارة أيضا إلى قابلية النفس البشرية للترويض ، فبالعفة الحاصلة للنفس تتغير موازين القوى فيتحول ما كان أصله القوة والغلبة – الشهوة –إلى حال الانصياع والانقياد . الوصول بالنفس إلى حال ،لا تكون للشهوة سلطان وقهر عليها ، هو غاية خلق العفة .

غير أن الأصفهاني لم يُبيِّن ما إذا كان السبيل إلى ذلك ،هو إضعاف النفس أم تقوية باعث الدين أم كلاهما معا . لم يقصد الراغب بالقهر غير الإصلاح- إصلاح القوة الشهوية لا قتلها - فقال: " فبإصلاح قوة الشهوة تحصل العفة فيتحرز بها من الشره وإماتة الشهوة ، ويتحرى المصلحة في المأكول والمشروب والملبوس والمنكوح وطلب الراحة وغير ذلك من اللذات الحسية "[2]

---

[1] – الراغب الأصفهاني ، " المفردات في غريب القرآن " ، ص339

[2] – الراغب الأصفهاني ، " تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين " ، تقديم وتعليق : أحمد دكار ، دار الغرب للنشر والتوزيع ، ت ط 2006م ،ج1ص25

ثانيا :العفة عند ابن حزم الظاهري :

قال ابن حزم (ت 452 هـ): " حدُّ العِفَّة أن تغضَّ بصرك وجميع جوارحك عن الأجسام التي

لا تحلّ لك ، فما عدا هذا فهو عهر، وما نقص حتى يُمسك عما أحلَّ الله تعالى فهو ضعف وعجز." (1)

يرى ابن حزم أن حد العفة كف جميع الجوارح عن الحرام ، وخص بالذكر غض البصر. وأن ما تجاوز هذا الحد في جهة الإفراط يعد عُهرا ،كما أن الإنقاص إلى حدِّ الامتناع عن الحلال ، يعد ضعفا وعجزا .

فالعفة عند ابن حزم ، هي فضيلة توسطت رذيلتين :هما العهر والعجز وهو معنى الضبط . وقد عبر عنه غيره بضبط النفس أي يملك زمام أمورها : فيكبح جماحها إذا طغت - صارت شرهة- ، ويُثيرها إذا خمدت.

ولعل في تخصيصه بالذكر لغض جارحة البصر يحمل دلالة قوتها وتفوقها في الإثارة ، أكثر من غيرها من الجوارح ، ولا شك في ذلك فقد أمر الله عز وجل المؤمنين والمؤمنات بغض البصر. قال عز وجل " قُل لِّلْمُومِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُومِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ " (2)

وقدم رسول الله ﷺ زنا العين ، على زنا بقية الجوارح الأخرى.فقال :

1- ابن حزم الظاهري ، " الأخلاق والسير في مداواة النفوس " ، ص30 /31

2- النور : 31/30

" إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنْ الزِّنَا أَدْرَكَ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ :فَزِنَا الْعَيْنِ النَّظَرُ وَزِنَا اللِّسَانِ الْمَنْطِقُ ،وَالنَّفْسُ تَمَنَّى وَتَشْتَهِي وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَيُكَذِّبُهُ "[1]

ثالثا :العفة عند أبو حامد الغزالي :

قال الغزالي (ت505 ﻫ): "العفة :تأدب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع" [2]

العفة عند الغزالي ، تتحقق بتأدب القوة الشهوية واعتدالها بفعل فاعل هو العقل والشرع ، العفة هي نتاج لصراع بين قوتين انتصر فيها العقل والشرع على جموح الشهوة ، فصارت الأخيرة منقادة بعد أن كانت في الأصل جامحة .

وقال أيضا : "وأما العفة، فهي فضيلة القوة الشهوانية، وهي انقيادها على تيسر وسهولة للقوة العقلية، حتى يكون انقباضها وانبساطها بحسب إشارتها" [3]

وحد العفة عند الغزالي هو اعتدال القوة الشهوية ، وكغيرها من الأخلاق يكتنفها الإفراط والتفريط ، فإذا زادت القوة الشهوية عن حدها صارت شرها وهو رذيلة ، وإذا نقصت عن حدها صارت خمودا ، وهو أيضا رذيلة ، وأن المقياس في ذلك هو العقل والشرع . وبعبارة أخرى تحقيق الغاية التي خلقت من أجلها .وأن مجالات العفة الفرج والبطن والمال والرياسة وحب الثناء... والإفراط هو الغالب على في شهوتي البطن والفرج.

مقياس الإفراط والخمود للقوة الشهوية عند الغزالي يُعرف استنادا إلى الغاية التي خلقت من أجلها والوقوف عليها دون مجاوزتها.

---

[1]– الحديث : أخرجه البخاري في صحيحه باب : زنا الجوارح دون الفرج ،ج4 ص139 ومسلم في صحيحه باب : قُدِّرَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظُّهُ مِنْ الزِّنَا وَغَيْرِهِ

[2] – أبو حامد الغزالي (ت 505ﻫ) ،" إحياء علوم الدين " ، مجلد 3ص1443

[3] – أبو حامد الغزالي ، " ميزان العمل " ، ج1ص29

فالقصد والاعتدال في الطعام ما حقق التقوى على العبادة لا اللذة ، والقصد في شهوة الفرج ما حقق الإحصان وطلب الولد لا التمتع ، وإن كان ذلك - أي التمتع- حاصلا بالتبعية وقس على ذلك سائر اللذات والشهوات .[1]

رابعا : العفة عند محمد بن علي الجرجاني

قال الجرجاني (ت 816 هـ): "العفة هيئة للقوة الشهوية متوسطة بين الفجور الذي هو إفراط هذه القوة والخمود الذي هو تفريطها فالعفيف من يباشر الأمور وفق الشرع والمروءة " [2]

العفة عند الجرجاني هي وصف وحال ، للقوة الشهوية ذاتها في حال من التوسط بين الإفراط والتفريط ، وكأن القوة الشهوية تأدبت فصارت إلى الاعتدال ، فلا يحتاج المرء إلى بذل جهد في مغالبتها . أوكأن القوة الشهوية التي كنا نحمل همَّ إفراطها وتفريطها ، صارت مُؤدبة وفق الشرع والمروءة .

والسؤال الذي يستوقفنا : هل يصبح بعدها لجهاد النفس معنى و جدوى ؟ علما أن القوة الشهوية ليست لها حال تستقر عليها ، وإنما تثار بالمثيرات ، وتخمد بغيابها وتلك هي طبيعتها

خامسا : العفة عند أحمد أمين :

قال أحمد أمين : " ضبط النفس -أو العفة بأوسع معانيها- هو اعتدال الميل إلى اللذائذ ، وخضوعه لحكم العقل ،وليس ذلك مقصورا على اللذائذ الجسمية بل يشمل أيضا اللذات النفسية ،كالانفعالات والعواطف ، فلا يسمى الشخص (ضابطا لنفسه)إلا إذا اعتدل في لذاته الجسمية من مأكل ونحوه ،واعتدل في انفعالاته فلم

[1] - ينظر : " ميزان العمل " ص29 وما بعدها

[2] - الجرجاني ، " التعريفات " ، ص156 /157

يغضب لأي داع، ولم يندفع في السير وراء عواطفه ،كأن يَحِنّ حنينا شديدا إلى وطنه إذا نزح عنه ، أو يفرط في حزن لفقد عزيز عليه ، وكثير من الرذائل يرجع سببه إلى عدم القدرة على ضبط النفس كالشراهة والدعارة والطمع والإسراف والغضب والثرثرة والإدمان .تتضمن هذه الفضيلة أن يكون الإنسان سيد نفسه لا عبدا لشهواته تسيره كما تشاء ." [1]

لم يزد أحمد أمين عمّا ذكره سابقوه في حدِّ العفة غير الاعتدال في الانفعالات والعواطف . وحُق لنا أن نتسائل :هل العواطف والانفعالات قوة شهوية ؟ حتى يمكن القول أن ضبطها والتوسط فيها يحقق العفة من عدمها.

فحد العفة عند أحمد أمين - والله أعلم - وإن كان جامعا فهو غير مانع فالعفة موضوعها شهوات النفس . ثم هل بمقدور المرء التحكم في الجانب العاطفي ؟ أم يخرج عن طوْعه وإرادته كالحُب والبُغض الفَرح والحُزن ، فضلا عن التوسط في ذلك ؟

إن استقراء النصوص الشرعية تكشف لنا بنا لا يدع مجالا للشك أن الميل العاطفي لا يملكه المرء . كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَقْسِمُ فَيَعْدِلُ وَيَقُولُ **اللَّهُمَّ هَذَا قَسْمِي فِيمَا أَمْلِكُ فَلَا تَلُمْنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلَا أَمْلِكُ** قَالَ أَبُو دَاوُد يَعْنِي الْقَلْبَ[2]

ولا نعلم - والله أعلم- أن الشريعة تدعوا إلى التوسط في الحزن ،أو الاعتدال في الانفعال كالغضب ، إلا أن يُقصد بالاعتدال أن يعرف المرء متى يغضب ومتى يمسك نفسه عن الغضب، وأما الغضب فهو على أضرب فهناك المحمود

---

[1] - أحمد أمين ، "كتاب الأخلاق" ، ط 3 ، مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة مصر ، ت ط 1931 م ، ص162

[2] - الحديث :رواه أبو داوود في سننه باب :القسم بين النساء ج 6 ص24 ، والبيهقي في السنن الكبرى ج 7 ص297 و الحاكم في المستدرك على الصحيحين ج 6 ص375: صححه ابن حبان و الحاكم

والمذموم والمباح فالغضب عند انتهاك حدود الله ومحارمه مطلوب شرعا فقد غضب موسى على قومه غضبا شديدا عند اتخاذهم العجل

قال تعالى :" وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ " (1)

ومن ذلك ما رواه عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما- قال : **خرج رسول الله ﷺ على أصحابه وهم يختصمون في القدر فكأنما يفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب** "(2) ، بينما الغضب على فوات أمور الدنيا أمر مذموم. فالمسلم إما أن يغضب فيما يستدعى الغضب أو يمسك نفسه عند الغضب فيما لا ينبغي. وحزن نبي الله يعقوب عليه السلام على فقدِ إبنه يوسف عليه السلام حزنا شديدا حتى ابيضت عيناه

قال تعالى:" وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ "(3)

---

1 - الأعراف : 150

2 - الحديث رواه ابن ماجه في سننه باب : القدر ، ج1 ص93 تحت رقم 82 والإمام أحمد في مسنده باب : مسند عبد الله بن عمرو ج 13 ص419

3 - يوسف : 84 / 86

سادسا :العفة عند أحمد الشرباصي :

تبنّى أحمد الشرباصي عند تعرضه لخلق العفة في كتابه "موسوعة أخلاق القرآن " تعريف الراغب الأصفهاني فقال: العفة "حصول حالة للنفس تمتنع بها عن غلبة الشهوة عليها "[1]

سابعا : العفة عند حبنك الميداني :

صنف الميداني العفة في باب ظواهر خُلقية لأكثر من أساس خُلقي وقال :" العفة هي كف النفس عن المحارم وعما لا يجمل بالإنسان فعله[2]

فالبعد الآخر للعفة ، أو القدر الإضافي بارز في تعريفه فالعفة عند الميداني لا تتوقف عن اقتراف الشهوة المحرمة أو أكل المال الحرام بل تتعداها إلى الكف حتى عما لا يليق بالإنسان فعله مما لا يتناسب مع مكانته الاجتماعية .

فالله عز وجل كرم الإنسان ، ويُفترض أن يكون المرء عفيفا من منطلق هذا التكريم.

1-أحمد الشرباصي ، " موسوعة أخلاق القرآن " ، ج ص

2-حبنك الميداني ، عبد الرحمن حسن ، " الأخلاق الإسلامية وأسسها " ، ط5 ، دار القلم دمشق سوريا ، ت ط 1999م ، ج2 ص581

الفصل الثالث

العفة كما جاءت في القرآن الكريم

الفصل الثالث: العفة كما جاءت في القرآن الكريم

المبحث الأول: ورود مصطلح العفة في القرآن الكريم:

ورد مصطلح العفة في أربع مواضع من القرآن الكريم[1] . مرَّة بصيغة المصدر " **التعفف** "

في قوله تعالى :" لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا " (2)

وثلاث مرات بصيغة الفعل الثلاثي مزيدا بثلاثة أحرف " **استعفف**" في قوله تعالى: "وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ۝ " (3)

وقوله تعالى :" وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ "(4)

وقوله تعالى :"وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ " (1)

---

[1] – محمد فؤاد عبد الباقي ، " لمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم " ، ص466

[2] – البقرة : 272

[3] – النساء : 6

[4] – النور : 33

والآيات مرتبة حسب النزول ، فضلا عن ترتيبها حسب المصحف.

دراسة الآية الأولى :

قال تعالى :"لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾"[2]

آية البقرة جاءت في أعقاب آية أخرى ، حثّ فيها الله عز وجل عباده المؤمنين على الإنفاق في سبيل الله ، وترغيبهم فيه لما في ذلك من جزيل الثواب[3] وعظيم الأجر.

الفقر ، والإحصار ، والضرب في الأرض ، والسمة ،والإلحاف ، مصطلحات تستدعي الوقوف عندها لفهم معنى الآية ومنه حقيقة العفة.

الفقر لغة : الحاجة أي أن الإنسان يفقد ما هو في حاجة إليه ، فلا يجد ما يكفيه لسد حاجاته الضرورية ، فإن فقد ما هو في غنى عنه لا يسمى فقرا [4] ، فالفقير يحمل همَّ الخصاصة وتلبية الحاجة ، بخلاف الغني أو صاحب الكفاف .[5]

واختلف العلماء في تعلق لام "للفقراء " إلى أقوال منها:

---

1 – النور : 58

2 – البقرة : 272

3 – الثواب : ما يستحق به الرحمة والمغفرة من الله تعالى والشفاعة من الرسول ﷺ " ، الجرجاني ، " التعريفات " ص76

4 – ينظر : الجرجاني ، " التعريفات " ، ص 175

5 – ذكر الثعالبي في " فقه اللغة وسر العربية " في باب : تفصيل الغنى وترتيبه فقال : " عن الأئمة الكفاف ثم الغنى ثم الإحراق وهو أن ينمي المال ويكثر " ج1 ، ص11

الأول :أنها متعلقة بمحذوف تقديره وجوب النفقة أو الصدقة للفقـــراء ، فالجار والمجرور -للفقراء- وشبه الجملة في محل رفع خبر لمبتـــدإ محـــذوف تقـــديره الصدقات للفقراء . ذهب إلى هذا القول جماعة من العلماء منهم : الزجاج النحوي في " إعراب القرآن " ومكي بن أبي طالب في "مشكل إعراب القرآن " والزمخشري في تفسيره "الكشاف "

وابن عطية في تفسيره" المحرر الوجيز" والطبرسي في تفسيره "مجمع البيان" وعليه أكثر المفسيرين[1]

قال الزجاج : " (للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله) هذا خبر مبتـــدأ مضـــمر، والتقدير فيه وجوب صدقة البر للفقراء الذين أحصروا " [2]. وقال مكـــي بـــن أبي طالب " قوله (للفقراء) اللام متعلقة بمحذوف تقديره أعطوا للفقراء "[3]

الثاني : (اللام) التي في (للفقراء) مردودة على (اللام) التي في (فلأنفسكم) كأنـــه قال: (وما تنفقون من خير) فللفقراء الذين أحصروا في سبيل الله .أي بين الله تعالى سبيل النفقة ومصرفها ، وهو مذهب الطبري وعلل ذلك فقال : "فلما اعترض في الكلام بقوله : (فلأنفسكم) فأدخل "الفاء" التي هي جواب الجزاء فيه ، تركـــت إعادتها في قوله: (الفقراء)، إذ كان الكلام مفهوما معناه "[4]

---

[1] – ينظر : الزمخشري ، " الكشاف " ،ج1 ص502 ، والطبرسي (ت 548هـ) أبو علي الفضل بن الحسن ، " مجمع البيان في تفسير القرآن " ، دار مكتبة الحياة بيرت لبنان ، د ت ط . المجلد الأول ص354 ، القرطبي ، " الجامع لأحكام القرآن " ، ج4 ص371 ،الثعالبي ، " الجواهر الحسان في تفسير القرآن " ،ج1 ص529 ،أبو السعود" إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم " ،ج1 ص330 ،الألوسي "روح المعاني " ج3 ص46 ،عبد الكريم الخطيب "التفسير القرآني للقرآن " ج2 ص 347 مطبعة السنة المحمدية دار الفكر العربي ، د ت ط ، الطاهر بن عاشور ، " تفسير التحرير و التنوير "،ج3 ص74

[2] – الزجاج (ت311 ه) أبو إسحاق إبراهيم بن السري المعروف بالزجاج النحوي ، "إعراب القرآن " ،ج1 ص40

[3] – مكي بن أبي طالب(ت437 ه) ،" مشكل إعراب القرآن " ، تحقيق : د/ حاتم صالح الضامن ،ط2، مؤسسة الرسالة بيروت لبنان ، ت ط 1405 ه ،ج1 ص142

[4] – الطبري ، " جامع البيان عن تأويل آي القرآن " ،ج5 ص590

ويبدو أن مذهب الطبري في هذه المسألة لم يلق تأييدا من كثير من المفسرين ،بل هو مُتعقب من بعضهم[1]. قال الزجاج : "وقيل اللام بدل من اللام في قوله تعالى " وماتنفقوا من خير فلأنفسكم " " للفقراء الذين أحصروا " وهذا لا يصح، لأن الفقراء مصرف الصدقة، والمنفقون هم المزكون، فإنما لأنفسهم ثواب الصدقة التي أدوها إلى الفقراء "[2] قال الطبرسي مثل ذلك" نقلا عن علي بن عيسى[3] قوله "... وهذا لا يجوز لان بدل الشيء من غيره لا يكون إلا والمعنى يشتمل عليه ، وليس كذلك "[4].

الثالث : "قيل :خبره محذوف تقديره للفقراء الذين صفتهم كذا وكذا حق واجب وهم فقراء المهاجرين"[5]

وإن كان العلماء اختلفوا في تقدير الحذف ، فهم بلا ريب متفقون على أن في الآية حذف .

والسؤال الذي يستوقفنا : **هل الحذف في هذا المقام أبين من الذكر ؟**

الحذف باعتباره واحدا من مقامات الكلام في مقابلة الذكر ، " من سنن العرب في كلامها " [6]استعمل لغرض الارتقاء بالكلام إلى درجة الحسن والبلاغة،

1- مذهب الطبري وجدته دون إحالة في ثنايا بعض كتب النحو والتفسير بصيغة "قيل" أو عبارة "قال بعضهم " : ولم يرجحه أي منهم ، بل عقبوا عليه بقولهم " لا يجوز أو لا يصح .ينظر : الزجاج النحوي ،"إعراب القرآن " ،ج1 ص 40 و الطبرسي ، " مجمع البيان في تفسير القرآن ، المجلد الأول ص354

2 – الزجاج ، " إعراب القرآن " ، ص40

3 – عله علي بن عيسى بن الفرج بن صالح ، أبو الحسن الربعي: عالم بالعربية. أصله من شيراز اشتهر وتوفي ببغداد. له تصانيف في النحو، منها كتاب " البديع " قال الانباري: حسن جدا، و " شرح مختصر الجرمي " و " شرح الإيضاح " لأبي علي الفارسي، و " التنبيه على خطأ ابن جني في فسر شعر المتنبي " الزركلي "الأعلام " ج4 ص318

4 –الطبرسي ، "مجمع البيان في تفسير القرآن " ،المجلد الأول ، ج2 ص354

5 – البغوي ، معالم التنزيل ، المجلد الأول ،ج3 ص337

6 – أحمد بن فارس ،" الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها " ، باب الحذف والاختصار ، ص62 و الثعالبي " فقه اللغة وسر العربية " ج1 ص78 ،

فضلا عن إصابة المعنى ، فقد يؤدي الحذف ما لا يؤديه الذكر. وهو أمر معلوم عند علماء العربية .

قال الجرجاني في باب القول في الحذف :" هو بابٌ دقيقُ المسلكِ ،لطيفُ المأْخذِ ، عجيبُ الأمرِ شبيهٌ بالسِّحرِ فإنك ترى به ترك الذِّكرِ، أفصحَ من الـــذِّكرِ، والصَّمْتَ عن الإفادةِ ، أزيدَ لِلإفادةِ ، وتجدُكَ أنطقَ ما تكونُ إذا لم تنطقْ ، وأَتَمَّ ما تكون بيانًا إذا لم تُبِنْ " [1]

لا شك أنه لو ذكر في الآية الكريمة ما جاء تقديره محذوفا ، وأعيد نظمها ما كان هذا الوقع في النفس الذي أفادته في تحريك مشاعر المؤمنين تجاه هذا الصنف من الفقراء المتعففين عن السؤال ليتفطن لهم ، تاركاً فيهم انطباعا وشـــعورا منـــهم بالتقصير في القيام بواجبهم تجاه إخوانهم ، فتتحرك عزائمهم .

قال عبد الكريم الخطيب في تفسيره لهذه للآية : " والحذف هنا أبلغ من الذكر حيث يشعر بأن أمر هؤلاء الفقراء في غنى عن أن يحرض عليهم فحقهم علـــى المحســـنين واجب لا يحتاج إلى بيان "[2]

وقد أشار إلى القدر الزائد في المعنى الذي يحصل للنفس نتيجة الحـــذف . وفي لفظ " هنا " إشارة إلى المقام ومناسبة الحذف لمقتضى الحال .

وأيا كان الأمر- تعلق الأمر بمذكور صريح أو محذوف مُقدَّر- فإن في الآية دعوة وإرشاد ا من الله تعالى للمؤمنين للإنفاق بوضع الصدقة في أفضل مصارفها وهم الفقراء الذين تميزوا بصفات خمس استحقوا بها المدح والثناء

---

[1] - الجرجاني (ت471هـ) عبد القاهر بن عبد الرحمن ، "دلائل الإعجاز " ، قرأه وعلق عليه : محمد محمود شاكر ، ط 1 ،مكتبة الخانجي القاهرة مصر، ت ط 1984 م ، ص146

[2] - عبد الكريم الخطيب ، " التفسير القرآني للقرآن " ج2 ص347

الصفة الأولى : أحصروا في سبيل الله

الصفة الثانية : لا يستطيعون ضربا في الأرض

الصفة الثالثة : يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف

الصفة الرابعة : تعرفهم بسيماهم

الصفة الخامسة : لا يسألون الناس إلحافا

الصفة الأولى : أحصروا في سبيل الله

أصل الإحصار في اللغة المنع والحبس يقال للرجل الذي قد منعه الخوف أو المرض عن التصرف قد أُحصِرَ فهو مُحصَرٌ ، ويقال للرجل الذي حُبس قد حُصر فهو محصورٌ ونظيره حبسه جعله في الحبس ، وأحبسه عرَّضه للحبس ، وكذلك حَصَرَهُ أوقعهُ في الحصر .والحصير : هو البساط المنسوج من بعض النبات الطويل الساق الحابس المانع من الحركة ثم استعملت للدلالة على كل ما فيه معنى المنع والحبس فأطلقت على البخيل لحبسه رفده[1] ، والعيي[2] إذا عيي في الكلام و لم ينطلق لسانه ، وكذا أطلق الحصير على الذي لا يبوح بسره لأنه حبس نفسه عن البوح به ، والحَصُورُ الذي لا إربة[3] له في النساء ، وعليه فالمعنى لا يخرج عن المنع والحبس .[4]

---

[1] – رفده : الرِّفد بالكسر المعونة بالعطاء والصلة العين ج2ص135 ابن منظور ، " لسان العرب" ، ج3ص181 الجوهري ، " الصحاح " ، المجلد الثاني ، ص475

[2] –العيي : خلاف البيان وقد عيَّ في منطقه فهو عيي ، وقيل أن تأتيَ بكلام لا يهتدي له .ينظر :ابن منظور ، " لسان العرب" ج15ص111، الجوهري " الصحاح " ، المجلد السادس ،ص2442، الزبيدي ،" تاج العروس من جواهر القاموس" ، ج1ص8515

[3] – إربة :الإربة الحاجة. ينظر: ابن منظور ، " لسان العرب" ج5ص184 ، الزبيدي ، " تاج العروس من جواهر القاموس " ج1ص3508

[4] - في معنى الحصر ينظر: ابن منظور ، " لسان العرب" ، مادة :حصر، ص895 وما بعها

أما في القرآن الكريم فقد ورد لفظ " الإحصار " ست مرات [1] ، أولاها هذه الآية التي بين أيدينا ، والثانية في السورة نفسها في سياق الحديث عن مناسك الحج

في قوله تعالى :" وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥ ۚ " [2]

فما الإحصار في هذه وتلك ؟

ففي آية الحج منعهم مانع الخوف أو العدو أو المرض من إتمام الحج والعمرة بمناسكها ، وفي الثانية صيَّر هؤلاء الفقراء إلى حالة يحبسون فيها أنفسهم عن التصرف والكسب .

وإن كان لفظ " في سبيل الله"يوحي بمشروعية المانع إلا أنه يحق لنا أن نتساءل عن طبيعة المانع الذي صيَّر هؤلاء إلى هذه الحال ؟

قال بعض المفسرين[3] المراد ب "سبيل الله" هنا الجهاد ، عليه يكون عجزهم حاصل بالجهاد ، وتكون "في" للسببية والمعنى أن عجزهم وحبس أنفسهم عن التصرف والكسب بسبب تفرغهم للجهاد. وقيل أن المراد ب "سبيل الله " هو الهجرة من مكة إلى المدينة ، فيكون المعنى : أن هؤلاء المهاجرين الذين تركوا ديارهم

---

[1] – محمد فؤاد عبد الباقي ، " لمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم " ، ص 205

(النساء :90 ، التوبة :5 ، البقرة :196 / 272 ، آل عمران : 39 ، الإسراء : 8)

[2] – البقرة : 195

[3] – الزمخشري ، " الكشاف " ج1 ص502 والرازي (ت 604 ه) فخر الدين ، " تفسير الفخر الرازي " المشتهر "بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب ، ط1 ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان ، ت ط1981م ، ج7 ص 86 ، الطاهر بن عاشور " تفسير التحرير و التنوير "،ج3 ص74

و أموالهم بمكة وقدموا المدينة لا خبرة لهم بالزراعة ولا يملكون مالا للتجارة ، وجدوا أنفسهم محصورين ، فكانت الهجرة من هذا الباب ، مصدر إعاقة لهم وعليه فتكون "في " للتعليل [1].

والظاهر أن الذي دفع هؤلاء و هؤلاء إلى التأويل هو ما بلغهم مما روي في سبب النزول ."قال مجاهد و السدي :" المراد بهؤلاء الفقراء : فقراء المهاجرين من قريش وغيرهم ثم تتناول الآية ،كل من دخل تحت صفة الفقراء غابر الدهر.وإنما خص فقراء المهاجرين بالذكر ، لأنه لم يكن هناك سواهم ، وهم أهل الصفة و كانوا نحوا من أربعمائة رجل ،وذلك أنهم كانوا يقدمون فقراء على رسول الله ﷺ ، ومالهم أهل ولا مال ، فبُنيت لهم صُفّة في مسجد رسول الله ﷺ فقيل لهم "أهل الصفة ".

" قال أبو ذر[2] :كنتُ من أهلِ الصُّفّةِ ، وكنا إذا أمسينا حضرنا باب رسول الله ﷺ، فيأمرُ كلَّ رجلٍ فينصرف برجل ، ويبقى من بقي من أهل الصُّفّةِ ، عشرة أو أقل ، فيؤتي النبي ﷺ بعشائه و نتعشى معه ، فإذا فرغنا ، قال رسول الله "ناموا في المسجد" . [3]

---

1 – ينظر: الطاهر بن عاشور ،" تفسير التحرير و التنوير "،ج3ص74

2 – أبو ذر الغفاري (ت 32 ه) وهو جندب بن جنادة الصحابي الجليل من السابقين إلى الإسلام وقصة إسلامه مذكورة في الصحيحين ، كان يوازي ابن مسعود في العلم ، قال فيه النبي ﷺ " يرحم الله أبا ذر يعيش وحده ويموت وحده ويحشر وحده " ابن حجر العسقلاني "الإصابة في تمييز الصحابة " باب الكنى ، ج7ص60

3 – القرطبي ، " الجامع لأحكام القرآن " ، ج4 ص371

الصفة الثانية :لا يستطيعون ضربا في الأرض

" الضرب في الأرض: الذهاب فيها هو ضربُها بالأرجلِ" [1] ، وهو كناية عن التجارة ، باعتبارها الغالب في مصدر العيش في ذلك الوقت ، لأن التجارة تتطلب من صاحبها السفر بضرب الأرض برجله أو بدابته .

والكناية حدها الجامع عند المحققين من علماء اللغة " كل لفظة دلت على معنى يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز "[2]

الحقيقة : الذهاب في الأرض ماشيا أو على دابة، والمجاز : التجارة والكسب ،والوصف الجامع بين المجاز المستور والحقيقة الظاهرة حاضر في الآية كما سبق ذكره ،وعليه ففي الآية كناية بكل المقاييس البيانية .

ومما يؤكد أن الضرب في الأرض جاء كناية عن التجارة قوله تعالى " فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ "[3]

وقوله أيضا :" فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ "[4]

والفضل في اللغة الزيادة من غير استحقاق[5] ، والابتغاء لغة الطلب ،فيصير معنى " يبتغون من فضل الله" يطلبون زيادة الرزق و المال فإن قيل :

---

[1] – الراغب الأصفهاني ، " المفردات في غريب القرآن " ، ص295

[2] – ابن الأثير ، "المثل السائر في أدب الكاتب الشاعر " ، ج1 ص221

[3] – المزمل : 18

[4] – الجمعة : 10

[5] – الفضل أيضا :هو ابتداء إحسان بلا علة . الجرجاني ، " التعريفات " ، ص174

ما الدليل على أن الابتغاء من فضل الله يكون بالكسب والعمل والتجارة ؟

يكون الجواب عليه أن في الآية دعوة إلى الانتشار في الأرض ابتغاء فضل الله ، بعد انقضاء صلاة الجمعة وقد أمرهم بترك البيع والتجارة عند النداء لها ، ومحل الشاهد : أن الله تعالى أذن لهم بعد فراغ الصلاة عما نهاهم عنه عند النداء لها .

وعليه يكون معنى" لا يستطيعون ضربا في الأرض " عدم القدرة عن السعي في الأرض للكسب والعمل والتجارة . ولما كانت الجملة في محل نصب حال ، يكون حال هؤلاء الفقراء وهيئتهم العجز عن الكسب والتجارة لمانع شرعي .

لا شك أن الكناية -كغيرها من أساليب البيان الأخرى - أبلغ من التصريح إذا استعملت في المواطن التي تتطلبها ويقتضيها حسن المعنى في النفس قال السيوطي: " واتفق البلغاء على أن الكناية أبلغ من التصريح والاستعارة[1] أبلغ من الكناية "[2]

من طبيعة النفس الميل إلى ما هو خفي ودقيق ، وخارج عن المألوف ، فتتفاعل معه وكأنه نوع من إثبات الذات ومحاولة للارتقاء ، فوقع الصور البيانية على النفس كوقع الأنامل على الأوتار ، فبقدر بلاغة الصورة البيانية تكون قوة التأثير على النفس .

فلو حل التصريح محل الكناية ما كان لها هذا الوقع في النفس من حسن المعنى والجمال ، فلا شك أنها أبلغ لما استعملت في الموضع الذي يحسن فيه استعمالها في الكناية إظهار المانع الذي صير هؤلاء الفقراء إلى حالة تستوجب الحنو عليهم ، وتحرك مشاعر المؤمنين تجاههم .

---

[1] -الاستعارة : ادعاء معنى الحقيقة في الشيء للمبالغة في التشبيه مع طرح ذكر المشبه من البين ،" التعريفات " ، ص20

[2] - السيوطي ، "الاتقان في علوم القرآن " ، ج1 ص281

الصفة الثالثة : يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف

يحسبهم : يظنهم ،" وحسِب الشيء كائنا يحسِبه ويحسَبُه حسباناً ومحْسَبة ومحسِبة ظنه "[1] قال بعضهم:" الظن ضرب من الاعتقاد وقد يكون حسبان ليس باعتقاد "[2]

فالحسبان إذن قوة المعنى في النفس من غير أن تصل إلى حالة اليقين ، والجهل : " اعتقاد الشيء على خلاف ما هو عليه"[3]

فيكون معنى الآية الكريمة : أن الجاهل اعتقد الفقراء أغنياء وهو خلاف الحقيقة لجهله بحالهم ، أو لقلة خبرته بباطن أحوالهم وتواصل الآية الكريمة معلِّلة منشأ هذا الاعتقاد أو الظن أو الحسبان بقوله تعالى " **من التعفف**"وعليه يكون لفظ "**من** " للتعليل وهي متعلقة ب "**يحسبهم**"

ويستشف مما سبق أن للمعنى الذي يسبق إليه الذهن ، بلا شك له أثره في توجيه الإعراب ، مثلما للإعراب ومعرفة أحوال الكلمة له أثره أيضا في كشف المعنى.

حرف الجر "**من**" متعلقة ب "**يحسبهم**" وليست متعلقة بأغنياء -مستغنين عن التعفف- وذلك لفساد المعنى وإن كان النظر إلى مجرد ظاهر اللفظ ، يحتمل الأمرين.

فكما أن الإعراب يكشف عن المعنى ويُبينه ، فإن العلم بالمعنى المراد من السياق أيضا يوجه الإعراب بل و يُصححه ، والجهل به يوقع الفساد ، وهو ما أشار إليه صاحب "مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب " قبل أن يسوق عشرة أمثلة من القرآن الكريم

جامعة وهران
مصلحة الرسائل الجامعية
المكتبة الجامعية المركزية

1 – ابن منظور، "لسان العرب" ، مادة : ح س ب ، ص866

2 – أبو هلال العسكري ، " الفروق اللغوية " ، باب : الفرق بين الظن والحسبان ، ص99

3 – الجرجاني ، " التعريفات " ، ص 84

بين فيها حصول الفساد في الإعراب بسبب البناء على ظاهر اللفظ وإغفال المعنى ، ولم يخف أن بعضا منها وقع للمعربين .

فقال : "قوله تعالى(يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف) فإن المتبادر تعلق من بِأغنياء لمجاورته له ، ويُفسده أنهم متى ظنهم ظان قد استغنوا من تعففهم علم أنهم فقراءمن المال،فلا يكون جاهلا بحالهم ،وإنما هي متعلقة بيحسب وهي للتعليل"[1]

وإذا كانت "من" متعلقة ب "يحسبهم "فهي بالتأكيد للتعليل فيكون المعنى أن العلة والسبب الذي جعل الجاهل بحالهم يحسبهم أغنياء هو تعففهم .

قال الآلوسي: "أغنياء من التعفف "من أجل تعففهم عن المسألة-فمن-للتعليل " [2]

والجاهل بحالهم قد فوَّت على نفسه فرصة وضع الصدقة في أفضل مصارفها أو إعطاؤها من ليست صفته التعفف ، وهو نوع من التفريط في حق المتعفف لاستحقاقه النفقة وإفراط في حق الملحف ، لحرصه الشديد على المال ، فهو يسأل تكثرا لا فقرا وحاجة وبقدر ما يعطى بقدر ما يطلب المزيد .

قال الإمام علي رضي الله عنه :" **لا نرى الجاهل إلا مفْرِطًا أو مفَرِطا**"[3]

والصفة الثالثة هذه - يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف - حملت صورة من الصور البيانية ألا وهي التشبيه[4] في أبلغ صوره

---

1 – ابن هشام الأنصاري ، "مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب " ، ج2 ص532 / 533

2 – الألوسي ، "روح المعاني " ، ج3 ص47

3 – الإمام علي بن أبي طالب ، "نهج البلاغة " جمعه ونسق أبوابه : الشريف الرضي ، ط1 ، مؤسسة المعارف بيروت لبنان ، ت ط 1996 م ، ص694

4 – التشبيه : الدلالة على مشاركة أمر لآخر في معنى. الجرجاني ، " التعريفات " ، ص60

معلوم أن أركان التشبيه أربعة وهي :المشبه و المشبه به (ويسميان طرفا التشبيه)و أداة التشبيه : وهو اللفظ الدال على المماثلة والاشتراك ، ووجه الشبه : وهو المعنى الذي يشترك فيه طرفا التشبيه

ومعلوم أيضا أن طرفا التشبيه هما الركنان الأساسيان وبدونهما لا يكون تشبيه وعلماء البلاغة ، تكلموا في أنواع التشبيه ومراتبه وخلصوا إلى أنها ليست على درجة واحدة من البلاغة بل بعضه أبلغ من بعض وأن " أعلى مراتب التشبيه في الأبلغية ترك وجه الشبه وأداته "[1] لما في ذلك من قوة المعنى في النفس حيث أن المشبه عين المشبه به ، والنفس بطبيعتها ميالة إلى المبالغة ،وهذا فضلا عما في الصورة البيانية من الإيجاز الناشئ عن الحذف ، الشيء الذي يجعل السامع يصول ويجول بفكره بحثا عن وجه الشبه حتى يلمسه في السياق وعند ذلك يشعر بمتعة ما وصل إليه من الكشف عن صورة وجه الشبه أكثر مما لو كان ظاهرا وجاهزا .

والآية التي بين أيدينا فقد شبه الله تعالى فيها الفقير المتعفف ، بالغني من غير ذكر صريح لأداة التشبيه ولا تصريح بوجه الشبه.

صحيح أنه يلاحظ في الآية الكريمة غياب أداة من أدوات التشبيه نحو: "الكاف" و"مثل" و"كأن" لكنها حاضرة بوجود الفعل الذي ينبئ عن التشبيه وهو فعل " حسب " وهو من أفعال الرجحان ،ويستعمل غالبا عندما يكون وجه الشبه بعيد الإدراك ، بمعنى أنه يدرك بعد إعمال الفكر والنظر ، كإيجاده بين الفقير المتعفف والغني ." وقد تكون الأداة فعلا ينبئ عن التشبيه ولا يصرح به : علمت

[1] – الزركشي ، " البرهان في علوم القرآن " ، ج3 ص424 .والقزويني ، "الإيضاح في علو م البلاغة " ، ج1 ص75

خالدا أسدا (الفعل علمت يوحي بالتشبيه ولا يصرح به) ومثله وحسبته وظننته خلته "[1]

وقد شبه الله تعالى الجبال بالسحاب بقوله تعالى:" وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾

إن وجه الشبه لا يتبادر إلى أذهاننا لأول وهلة ، بل بعد إمعان النظر، ندرك أن الجبال يوم ينفخ في الصور تمر في الهواء كمرور السحاب الذي تسوقه الرياح ، ووجه الشبه هو السرعة.السرعة والحركة وعدم الاستقرار، السحب -أيضا- متحركة وغير مستقرة.

فكان فعل " حسب " في الآية هو الأنسب لأداء المعنى .

وشبه الله تعالى الولدان المخلدون باللؤلؤ المنثور في قوله تعالى :" وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ "[2]

إذا كان الشيخ الطاهر بن عاشور اهتدى إلى أن وجه الشبه هو : حسن المنظر مع التفرق فإن الفخر الرازي يرى أنه يحتمل ثلاثة وجوه دون ترجيح و تبعه في ذلك الثعالبي [3]

---

[1] – محمد عيد إسبر وبلال جنيدي ، " الشامل" وهو معجم في علوم اللغة العربية ومصطلحاتها، ط1 ، دار العودة بيروت ، ت ط 1981 م

[2] – الإنسان :19

[3] – ينظر : الطاهر بن عاشور ،" تفسير التحرير و التنوير "،ج29 ص397 الرازي ، " مفاتيح الغيب" ، ج 18ص120 الثعالبي " الجواهر الحسان في تفسير القرآن " ج 5 ص532

الحقيقة أن فعل " حسب " الذي يفيد الرجحان لا يعتبر أداة في الأصل ولكن ينوب عنها فقط ، لذا فالقول بوجود أداة التشبيه فيه تجوز. وفي هذا الشأن قال بعضهم :

" وقد يغنى عن أداة التشبيه «فعلٌ» يدلُ عليه ، ولا يعتبر أداة، فان كان الفعل لليقين أفاد قرب المشابهة... وإن كان الفعل للشّك أفادُ بعدها نحو

قوم إذا لبسوا الدروع حسبتها *** سحبا مزردة على أقمار [1] " [2]

فأما عن وجه الشبه في قوله تعالى :" يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف" فإن إعمال الفكر في إيجاده يهدي إلى القول أنه: التراهة عن السؤال ، فكما أن الغني مستغن عن السؤال لكفافه وغناه وعدم حاجته إلى الناس ، فكذلك الفقير المتعفف مستغن لتعففه وتجمله .

وإذا علمنا ذلك فما الذي يمكن أن تضيفه الصورة البيانية من معنى في إبراز حقيقة العفة ؟

الجواب عن هذا السؤال يمر حتما بالوقوف على ما يسمى بأغراض التشبيه ومحاسنه على ضوء الآية الكريمة ، ولا شك أن التشبيه في قوله تعالى :" يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف " هو بيان لحال المشبه وهو الفقير المتعفف ، حيث كان مجهول الصفة قبل التشبيه ، فكان عند الجاهل بحاله في عداد الأغنياء ، فجاء التشبيه ليفيد وصفه بأنه من الفقراء وليس ككل الفقراء . فقيرا يشترك مع غيره من الفقراء

[1] - البيت للشاعر علي بن محمد التهامي (ت416هـ) في قصيدة يرثي ابنه الصغير قال ابن بسام الأندلسي في كتاب " الذخيرة " في حقه: "كان مشتهر الإحسان، درب اللسان، مخلى بينه وبين ضروب البيان " له ديوان شعر صغير أكثره نخب . ابن خلكان "وفيات الأعيان " ، ج 3ص378/379

[2] - السيد أحمد الهاشمي ، " جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع " ، ضبط وتحقيق وتوثيق: د/ يوسف الصميلي ط1 المكتبة العصرية بيروت لبنان ، ت ط1999 م ، ص419

في العوز والحاجة ، ويتباين معهم من حيث التراهة عن السؤال نتيجة العفة ، وبلا ريب فالمقام مقام مدح ، لأن الفقر إنما يمدح مع العفة .

فمن عادة الفقير أنه يسأل الناس حاجته لفقره وعوزه ، وأما امتناعه عن سؤال وظهوره بمظهر الغنى فهو ما لم تجر به العادة . ومن عادة الغني التراهة عن السؤال لغناه.

ففي الآية تشبيه لما لم تجر به العادة بما جرت به العادة ، وهو ما عدّه أبو الهلال العسكري واحدا من أجود وجوه التشبيه وأبلغه"[1]

كما نلمس من هذا التشبيه غرض تزين المشبه - وهو الفقير المتعفف - وتحسين صورته من خلال تشبيهه بالغني في نزاهته عن السؤال وعما في أيدي الناس ، وفيه إشارة و دعوة ضمنية الفقراء إلى سلوك طريق العفة ، باعتبارها الأفضل ، لأن المقام مقام مدح وثناء . ولا شك أن في تشبيه الفقير المتعفف ، بالغني المستغني ، يقوي المعنى في النفس ويؤكده .

فلو أسقطنا هذا التشبيه من الآية ، لما أدى ذلك إلى المعنى المراد ، فقد يقع في النفس أن هؤلاء الفقراء يسألون حينا ويتنزهون حينا آخر ، فتكون المعرفة بهم إجمالية ، فاحتيج إلى التشبيه بالغني لبيان قوة الامتناع والتراهة ، ذلك أن امتناع السؤال عند الغني أمر لازم له ،لانعدام الدافع الذي يدفعه إلى ذلك -وهو الحاجة والفاقة - فالتشبيه هنا ، جاء ليقوي معنى الامتناع ويبين أن قوته عند هذا الصنف من الفقراء كقوته عند الأغنياء .

[1] - أبو هلال العسكري ، "الصناعتين الكتابة والشعر " ، تحقيق: محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية صيدا بيروت لبنان ، ت ط 1986م ، ص204

وإذا علمنا ذلك حُقَّ لنا أن نتساءل : ما حقيقة "العفة "التي حالت دون علم الجاهل بحقيقة هؤلاء الفقراء ، وجعلته يخطئ في حقهم وربما فوت ذلك عليه فرصة وضع النفقة في أفضل مصارفها ؟

لفظ " التعفف " جاء على وزن تفعل وهو من صيغ المبالغة ، وأصل الفعل وجذره الثلاثي عفّ ، وتعفُف على وزن(تفعّل) فهو مزيد للفعل الثلاثي بحرفين هما : تاء قبل الفاء وتضعيف العين ، فيكون الفعل تعفف ، يتعفف ، تعففا والمصدر التعفف وهو المذكور في الآية ، وذكر صاحب "شرح ابن عقيل" في سياق حديثه عن أبنية المصادر فقال : " إن كان على وزن تفعل فقياس مصدره بضم العين نحو تجمل تجملا وتعلم تعلما وتكرم تكرما "[1] وعليه يكون مصدر تعفف هو تعففا وأما التعفف فهو اسم المصدر.

والسؤال الذي يستوقفنا : **ما دلالة الفعل عندما يأتي بهذا البناء ؟**

ذكر علماء اللغة أن الفعل بهذا البناء " **تفعل** " يأتي للدلالة على تكلف الشيء وليس به فيكون ، تَعَفَّف تكلَّف العفة . وقد يأتي بمعنى أخذ الشيء نحو تفقه وتعلم فيكون تعفف بمعنى أخذ العفة [2]

وبأدنى تأمل في سياق الآية يهدي إلى : أن التعفف إنما جاء دلالة على التكلف ، والتكلف تحمل الشيء على مشقتة وهي حقيقة هؤلاء الفقراء .

قال البغوي: " وتعفف إذا تكلف في الإمساك " [3] ، فسلوكهم طريق مرضاة الله - سواء بالجهاد أو الهجرة - صيَّرهُم إلى هذه الحال من الفقر والحاجة

---

[1] - ابن عقيل الهمداني ، "شرح ابن عقيل " ، ج1 ص130

[2] -ينظر : الزمخشري ، " المفصل في صنعة الإعراب "ج1 ص371 وكذا المرجع السابق ج3ص130

[3] - البغوي ، " معالم التنزيل " ، ج1 ص338

وذلك أشد على النفس ، مما لو كانوا أصلا فقراء . فهؤلاء تركوا ديارهم وأموالهم وآثروا طريق مرضاة الله ولبسوا لباس التقوى وتحملوا بالعفة ،وسلكوا طريقها على مشقتها.

غير أننا وجدنا صاحب " تفسير المنار " يقول : " وقد فسَّر أهل اللغة التعفف بالعفة وبالصبر والتراهة عن الشيء ،وجعله المفسرون هنا للتكلف ولكن صيغته تفعُّل تأتي لتكلف الشيء وللمبالغة فيه والثاني أظهر هنا ، لأن من يتكلف العفة قلّما يخفى حاله على رائيه ، وأما المبالغ في العفة فهو الذي لا يكاد يظهر عليه أثر الحاجة فهو المتبادر هناوالمقام مقام المدح والمبالغ في الفضيلة أحق به من متكلفها " [1]

الحقيقة أن تعفف على وزن تفعل هي أصلا صيغة من صيغ بناء الأفعال التي تأتي للمبالغة، وأما التكلف فهو معنى من جملة المعاني التي يفيدها هذا البناء للمبالغة إلى جانب المطاوعة والطلب وغيرها[2]

وعليه فمترلة التكلف من المبالغة هي مترلة الأخص ، ولا شك أيضا أنهم بالغوا في العفة ، فلا مجال للترجيح والله أعلم .

التكلف في اللغة : تحمل الشيء على مشقته (ففيه معنى الصبر وقوة التحمل ومغالبة النفس) المبالغة في اللغة : بالغ في الأمر اجتهد فيه و لم يقصر ، فالمتكلف للعفة مجتهد مع تحمل مرارة مجاهدة النفس ، ولا يخفى على عاقل ما في ذلك من مشقة وذلك قدر زائد على الاجتهاد والله أعلم .

---

[1] – محمد رشيد رضا (ت 1354 هـ) ، " تفسير القرآن الحكيم " (المشهور بتفسير المنار) ، ط2 ، دار المنار القاهرة مصر، ت ط 1947 م ، ج3 ص88

[2] – ذكرنا لفظ " وغيرها " ذلك لأن صاحب الشافية أضاف معان أخرى محتملة للبناء ومثل لها فقال :" وللاتخاذ نحو توسد وللتجنب نحو تأثم.

فالتعفف في الآية الكريمة هو التنزه والاستغناء عما في أيدي الناس ، رغم الفقر والحاجة ، فالدافع حاضر وبقوة في النفس البشرية المجبولة على حب المال كما رأينا في الفصل الأول والإثارة هي الأخرى حاضرة وفي أوجها لتحرك شهوات النفس وغرائزها الكامنة ، هذه الإثارة ماثلة في شدة الفقر والحاجة مع وجود مانع الكسب والسعي .

ومع ذلك استطاع هؤلاء الفقراء مغالبة شهوات أنفسهم والتعالي فوق آلامهم ومعاناتهم في سبيل الله ، ولبسوا لباس العفة حفاظا على عزة النفس وكرامتها فاستحقوا بذلك المدح والثناء وهو المعنى الذي حملته الآية الكريمة للعفة ، في بعدها المتمثل في جانب المال .

فالعفة هنا عفة عن شهوة المال عفة حقيقية ، بكل المقاييس[1] وهي بلا ريب واحدة من مجالات العفة. وفي هذا الشأن قال ابن عرفة:" قوله تعالى (أغنياء من التعفف) ولم يقل من تعففهم إشارة إلى اتصافهم بأبلغ وجوه التعفف لأن تعفف المحتاج (المضطر) إلى المسألة ليس كتعفف من لم تبلغ به الحاجة إلى السؤال فأفاد أن هؤلاء لم يتصفوا بتعففهم اللائق بهم بل اتصفوا بالتعفف الإجمالي "[2]

ففيه إشارة إلى التكلف باعتبارهم تعففوا العفة الحقيقية التي هي التراهة عن السؤال البتَّةَ ، متجاوزين العفة التي تليق بحالهم والتي قد تكون السؤال دون إلحاف ولا يخرجهم ذلك عن حدود معنى العفة ، ولا شك أن المتكلف مبالغ ضمنيا .

---

[1] -نقصد بالمقاييس وجود الإثارة ، الدافع

[2] - بن عرفة الورغمي (ت803هـ) محمد بن محمد ، " تفسير ابن عرفة المالكي "، تحقيق : د. حسن المناعي ،ط1 ، دار النشر : مركز البحوث بالكلية الزيتونية تونس ، ت ط 1986 م ، ج2 ص 759 / 760

الصفة الرابعة : تعرفهم بسيماهم

ورد لفظ " سيماهم " بهذه الصيغة في ست مواضع من القرآن الكريم

في هذه الآية آية البقرة قوله تعالى : "تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا "(1)

في سورة الأعراف في قوله تعالى :" وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ

وقوله تعالى :" وَنَادَىٰ أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَاهُمْ "(3)

وفي قوله تعالى :"لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ۝"(4)

وفي قوله تعالى : " سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ" (5)

وفي قوله تعالى : "يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ ۝"(6)

يلاحظ في هذه الآيات مجتمعة تعلق فعل المعرفة (يعرف ، تعرفهم ، يعرفون يعرفونهم ، فلعرفتهم) ب " سيماهم " والمعرفة :" إدراك الشيء على ما هو

---

1 - البقرة : 272

2 - الأعراف : 45

3 - الأعراف : 47

4 - محمد : 31

5 - الفتح : 29

6 - الرحمن : 40

عليه وهي مسبوقة بنسيان حاصل بعد العلم "[1] والسيمة هي العلامة التي تخرج الشيء من حيز الجهل به إلى حيز الإدراك .

والذي نخلص إليه : أن هؤلاء الفقراء مع تعففهم وتجملهم ، لهم علامات يعرفون بها ،فما حقيقة هذه العلامات تحديدا ؟ وإذا كان لهم علامات يعرفون بها فما الذي حال دون معرفة الجاهل بحالهم ؟

المفروض لا شيء ، إلا أن يكون الوصول إلى هذه " العلامات" يتطلب تدخل أمر آخر، غير الحواس ؟

الوقوف على المعنى الدقيق للفظ " السمات " وعلى الفرق بينه وبين العلامة قد يمدنا بالبيان في المسألة " .

لفظ " علامات " وحيدة في القرآن الكريم

فقد وردت في قوله تعالى:" وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ "[2]

واضح من الآية الكريمة أن لفظ " علامات" جاء للدلالة عن الجبال والأنهار والسبل... وما يوجد على الأرض مما يُعدُّ معلماً يُستدل به على الطريق لتجنب التيه والضلال. كما هو واضح أيضا ، أن هذه العلامات لا تحتاج إلى أكثر من الرؤية البصرية ، فهي ميسورة لكل من أنعم الله عليه بنعمة البصر، لا فرق في ذلك بين العالم والجاهل ، الكيس والمغفل.

أما لفظ "التوسم "ورد في قوله تعالى : "إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ [3]

---

[1] - الجرجاني ، " التعريفات " ، ص236

[2] - النحل : 15 /16

[3] - الحجر : 75

قال القرطبي في تفسيره:" قال العلماءُ[1]: التَّوسُّمُ : تفعُّل ،من الوَسْـــمِ ، وهي العلامةُ التي يُسْتدلُّ بها على مطلوبِ غيرِها " [2]

فهي علامة وسيطة ، يتوصل بها إلى الاستدلال على مطلوب كان مجهولا فيتعين لعلاقة بينهما . إيجاد هذه العلاقة هو الذي يتطلب تدخل أمر آخـــر غـــير الحواس .

يقول ابن كثير:" لمن تأمل ذلك وتوسمه بعين بصره وبصيرته[3]" [4]

فالتوسم عند ابن كثير تجاوز مجرد الرؤية البصرية إلى البصيرة . وقريب من هذا مـــا ذهب إليه سيد قطب فقال : "ولكن ذو الحس المرهف والبصيرة المفتوحة يدرك ما وراء التجمل، فالمشاعر النفسية تبدو على سماهم وهم يداروها في حياء " [5]

ويبدو من خلال ما نقل إلينا أن معنى " التوسم " كان واضـــحا لـــدى أسلافنا من العلماء وإن اختلفت ألفاظهم ومبانيهم.

فمعناه : المتفكرين عند المقاتل وابن زيد ، الناظرين عند ابن عباس و الضحاك ، المعتبرين عند قتادة ، المتبصرين عند أبو عبيدة ، المتفرسين عند مجاهد ، المتأملين عند مالك عن بعض أهل المدينة [6]

فالتفكير والنظر و الاعتبار والتبصر والفراسة والتأمل هي أفعال مرتبطة أساسا بالعقل ، فلا ريب أن المراد من قوله تعالى : " تعرفهم بسيماهم" دعوة من

---

[1] – لا شك فيه أنه يقصد علماء اللغة

[2] – القرطبي ، " الجامع لأحكام القرآن " ، ج12 ص234

[3] – البصيرة : قوة القلب المنور بنور القدس يرى بها حقائق الأشياء وبواطنها ، "الجرجاني ، "التعريفات " ، ص 47

[4] –ابن كثير ، " تفسير القرآن العظيم " ، ج4 ص543

[5] – سيد قطب ، "في ظلال القرآن " ، ج1 ص296

[6] – ينظر: الطبري ،" جامع البيان عن تأويل آي القرآن " ،ج17 ص119 ، القرطبي ، " الجامع لأحكام القرآن " ، ج12 ص234 ، ابن كثير ، ج4 ص543

الله تعالى عباده المؤمنين إلى الاجتهاد وإعمال الفكر في الوصول إلى المعرفة لهذا الصنف من الفقراء الذين لا يُتفطَّنُ لهم فيُتصدَّقُ عليهم .

فنحن أمام صنف من الفقراء ليسوا كالفقراء : فقراء آثروا التعفف على السؤال ، والقناعة بالقليل على الشره والاستكثار وبغنى النفس وعزها على الذل والهوان .

ويبدو - والله أعلم -أن القول الأخير (قول مجاهد) في تفسير التوسم بالفراسة هو القول الراجح لما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال :" **اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ ثُمَّ قَرَأَ : إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ** "[1]

إن ربط الرسول ﷺ الحديث بالآية الكريمة يبين بما لا يدع مجالا للشك تفسير التوسم بالفراسة.

قال ابن منظور : " والفراسة بالكسر الاسم من قولك تفرست فيه خيرا ، وتفرس فيه شيء توسمه " ونُقل عن ابن الأثير في الفراسة معنيين: " أحدهما ما دل ظاهرُ الحديث عليه وهو ما يُوقِعُه اللَّه تعالى في قلوب أوليائه فيَعلمون أحوال بعض الناس بنَوْع من الكَرامات وإصابة الظنّ والحَدْس والثاني نَوْع يُتَعَلَم بالدلائل والتَّجارب والخَلْق والأَخْلاق فتُعرَف به أحوال الناس " [2]

فإن لم تحصل للمرء الفراسة بالمعنى الأول ، اجتهد في تحصيلها بالمعنى الثاني وذلك في مقدوره متى اجتهد ، وعمل باتخاذ الأسباب والله تعالى لما خلق العفة خلق الفراسة.

---

[1] - الحديث رواه الترمذي تحت رقم3052 وهو حيث مرفوع إلى النبي ﷺ علق عليه الترمذي بقوله : هذا حديث غريب إنما نعرفه من هذا الوجه وقد روي عن بعض أهل العلم

[2] - ابن منظور ، "لسان العرب" ، مادة ف ر س ،ج39 ص3379

فالجاهل بحالهم ، لم يكلف نفسه عناء البحث عن حقيقة هؤلاء وأحوال معيشتهم ،ومصدر رزقهم وأخلاقهم و لم يمعن الفكر والنظر في كل ذلك.

ومن الطبيعي أن نسجل سكوت النصوص الشرعية عن طبيعة السِّمات التي يُعرف بها الفقراء المتعففون وتترك الأمر للمتوسمين من المؤمنين .وإلا صارت علامات بدل سمات و لم يكن لقوله تعالى :"**يحسبهم الجاهل أغنياء**" معنى .

وما حمله إلينا المفسرون من تأويلات -جازاهم الله عنا خير الجزاء -في تعيين السمات يؤخذ بتحفظ وعلى سبيل الاستئناس ، لمسنا هذا التحفظ عند الإمام الطبري فهو أكثر المفسرين التزاما بالمأثور بعد عرضه لأراء أهل التأويل في السمة التي يعرف بها هؤلاء الفقراء المتعففون قال :فقال بعضهم : هو التخشع والتواضع ،وقال آخرون سيما الفقر وجهد الحاجة في وجوههم ،وقال آخرون : تعرفهم برثاثة ثيابهم ليخلص إلى القول : "وأولى هذه الأقوال بالصواب أن يقال إن الله تعالى أخبر نبيه ﷺ أنه يعرفهم بعلاماتهم و أثار الحاجة منهم " [1]

وحذا حذو الطبري ، محمد رشيد رضا فبعد عرضه لمختلف الأقوال التي قيلت في تحديد السيما عقب على ذلك بقوله : "والصواب أن هذه السيما لا تتعين بهيئة خاصة لاختلافها باختلاف الأشخاص والأحوال ،وإنما تترك إلى فراسة المؤمن الذي يتحرى بالإنفاق أهل الاستحقاق"[2]

[1] -الطبري ،" جامع البيان عن تأويل آي القرآن " ،ج5 ص597

[2] - محمد رشيد رضا ، " تفسير المنار" ، ج3 ص 88

الصفة الخامسة : لا يسألون الناس إلحافا

لم يرد لفظ الإلحاف في القرآن الكريم ، إلا في هذه الآية ، فهي وحيدة صيغة ومادة .وأهل اللغة والمفسرون مجمعون ، على أن معنى الإلحاف الإلحاح ألحف في المسألة بمعنى ألح فيها .

غير أن بعض كتب اللغة أفادت أن ألح تأتي على معنيين: جاء في لسان العرب في مادة : ل ح ح "وألح عليه بالمسألة وألح في الشيء كثر سؤاله إياه كاللاصق به ...وقيل ألح على الشيء أقبل على السؤال لايفتر عنه ، ....ألحت الناقة إذا بركت فلم تبرح مكانها من ألح على شيء إذا لزمه وأصر عليه "[1]

فالأول يتعلق بطريقة السؤال و كيفيته .فالإلحاح يأتي في مقابلة الرفق بحيث أن السائل لا يفارق من يسأله حتى يعطى مسألته. أما الثاني فيتعلق بلزوم السؤال وعدم الانقطاع عنه . فأي المعنيين أقرب إلى معنى الآية ؟

إذا حملنا لفظ " إلحافا "على المعنى الأول يصير معنى الآية : أن الله سبحانه نفى أن يكون هؤلاء الفقراء المتعففين من أولئك الذين إذا سألوا حاجتهم أحرجوا المسؤول،وأصروا عليه و لم يفارقوه إلا أن يعطوا حاجتهم فيكون النفي منصرفا إلى التلطف في المسألة .وهو معنى تشبيه الإلحاح في السؤال باللاصق.

أما إذا حملناه على المعنى الثاني يصير معنى الآية : أن الله سبحانه نفى أن يكون هؤلاء الفقراء المتعففين من أولئك الذين يقبلون على السؤال من غير انقطاع ولم يفتروا[2] عنه ، بل لازموه وأصروا عليه سواء أكانوا في حاجة إليه أوفي غنى عنه

---

[1] – ابن منظور ، " لسان العرب" ، مادة : ل ح ف ، ج45 ص4009

[2] – الفتور : السكون بعد الحدة واللين بعد الشدة . الزمخشري ، "أساس البلاغة "ج2 ص4

. فيكون نفي الفتور يوحي بأن الاستكثار أصبح همُّ السائلين، و فعل التَّسول دوما باق على حِدّته وشِدَّته لا يعرف فترات ضعف أو انكسار.

إلى المعنى الأول ، ذهب الزمخشري فقال : "والإلحاف :الإلحاح وهو اللزوم و أن لا يفارق إلا بشيء يُعطاه"[1] ، وتبعه في ذلك البيضاوي فقال : "(لا يسألون الناس إلحافا) إلحاحا وهو أن يلازم المسؤول حتى يعطيه "[2]

ويستشف هذا الرأي أيضا من عبد الكريم الخطيب:حيث قال : " (لا يسألون الناس إلحافا) هو سمة من سماة المتعففين من ذوي الحاجة ، و أنهم إذا سألوا سألوا في رفق ، وعلى استحياء وذلك أنهم لم يعتادوا السؤال، و لم يقفوا هذا الموقف من قبل"[3]

ويبدوا أن الشيخ رشيد رضا في تفسيره حمل الإلحاف على هذا المعنى ،من خلال سياق كلامه عندما جعل سؤال الإلحاف في مقابلة سؤال الرفق والاستعطاف" [4]

وأما المعنى الثاني -لزوم السؤال - ذهب إليه جمع غير قليل من المفسرين وعلى رأسهم الإمام الطبري و القرطبي وابن كثير والبغوي .

قال الطبري:" زاد إبانة لأمرهم وحسن الثناء عليهم بنفي الشره والضراعة ..." [5] وقال القرطبي:" أي : هذا السَّائلُ يعمُّ الناسَ بِسُؤالِهِ ، فيُلحِفُهم ذلك "[6] وقال البغوي:"قال عطاء : إذا كان عندهم غذاء لا يسألون عشاء وإذا

---

[1] – الزمخشري ، " الكشاف " ،ج1 ص503

[2] – البيضاوي ، " أنوار التنزيل وأسرار التأويل " ،ج1 ص303

[3] –عبد الكريم الخطيب ، " التفسير القرآني للقرآن " ، ج2 ص349 /350

[4] – ينظر : محمد رشيد رضا ،" تفسير المنار" ، ج3 ص89

[5] – الطبري ،" جامع البيان عن تأويل آي القرآن " ، ج5 ص542

[6] – القرطبي ، " الجامع لأحكام القرآن " ، ج 4 ص374

كان عندهم عشاء لا يسألون غذاء "[1] وهذا القول بالتأكيد يوحي باستبعاد الحرص على السؤال ولزومه للحاجة ولغير الحاجة

إذا كان هذا هو حال المفسرين واختلافهم ، فإن الأحاديث النبوية تمدنا بفصل الخطاب في المسألة . روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : " **لَيْسَ الْمِسْكِينُ الَّذِي تَرُدُّهُ التَّمْرَةُ وَالتَّمْرَتَانِ وَلَا اللُّقْمَةُ وَلَا اللُّقْمَتَانِ إِنَّمَا الْمِسْكِينُ الَّذِي يَتَعَفَّفُ وَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ يَعْنِي قَوْلَهُ{ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا }**"[2] و في حديث آخر :"**من سأل وله أوقية أو عدلها فقد سأل إلحافا** "[3] ،

وأخرج النسائي عن أبي سعيد الخذري عن أبيه قال سرحتني أمي إلى رسول الله ﷺ فأتيته فاستقبلني وقال :" **مَنْ اسْتَغْنَى أَغْنَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَمَنْ اسْتَعَفَّ أَعَفَّهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَمَنْ اسْتَكْفَى كَفَاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَمَنْ سَأَلَ وَلَهُ قِيمَةُ أُوقِيَّةٍ فَقَدْ أَلْحَفَ فَقُلْتُ نَاقَتِي الْيَاقُوتَةُ خَيْرٌ مِنْ أُوقِيَّةٍ فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَسْأَلْهُ** "[4]

ويتبين جليا من هذه الأحاديث مجتمعة أن :سؤال الإلحاف أن يشمل الناس بالمسألة وهو مستغن عنها ، والاستغناء حدده رسول الله ﷺ بأوقية أو أربعون درهما ، فمن سأل وله هذا النصاب ،فقد سأل إلحافا . وهذا المعنى يتفق مع أصل الكلمة التي هي مشتقة من اللحاف فكما أن الإنسان يشمل الإنسان في التغطية فإن الملحف يشمل الناس بسؤاله. [5] وفي الحديث إشارة إلى أن المسكنة إنما تحمد مع العفة.

---

[1] – البغوي ، " معالم التنزيل " ، المجلد الأول ، ج 3ص338

[2] –الحديث رواه البخاري في صحيحه ، باب لا يسألون الناي إلحافا ، ج3 ص205

[3] –الحديث أخرجه الإمام مالك في الموطأ ج6 ص159 والنسائي في سننه ج 8 ص397 ،وأبو داوود في سننه ج 4ص 434

[4] –النسائي ، "سنن النسائي ، باب : من الملحف ،ج8 ص395

[5] –ينظر :ابن منظور ،" لسان العرب" ، مادة ل ح ف ،ج45 ص4009

ومن هنا نستخلص أن المقصود بالإلحاف ، الإلحاح بالمعنى الثاني لا الأول الذي وهو الحرص والتشديد على المسؤول وإحراجه ، حتى يصير السائل كاللاصق ذلك لأن راوي الحديث الذي أتى رسول الله ﷺ تكن هذه هي صفته في سؤال رسول الله ﷺ حاجته ، وغير مستبعد أن يكون عليه الصلاة والسلام تفرس فيه حاجته سبب مجيئه من غير يسأل ، فأين الحرص وأين اللُّصوق ؟

بيان حقيقة العفة يستدعي الوقوف على مسألة ظلت محل خلاف بين العلماء ألا وهي انصراف النفي في الآية الكريمة . "لا يسألون الناس إلحافا " أإلى سؤال الإلحاف أم إلى مطلق السؤال ؟ وهما مذهبان . أي : هل كان هؤلاء الفقراء المتعففين يسألون الناس برفق وفي غير إلحاف ؟ أم كانوا لا يسألونهم البتة لا سؤال إلحاف ولا غير إلحاف ؟ وهل التركيب اللفظي يحتمل المعنيين ؟

إلحافا إعرابها مصدر موضع الحال والحال كما هو معلوم يأتي ليبين هيئة صاحب الحال فيكون المعنى لا يسألون ملحفين أو في حال الإلحاف . ويجوز أن يكون مفعولا لأجله ويكون المعنى لا يسألون الناس لأجل الإلحاف [1] وفي جميع الأحوال فإن المتبادر من معنى العبارة هو نفي السؤال الإلحاف استنادا إلى الإعراب طبعا .

وإلى هذا المعنى ذهب الزمخشري فقال :" ومعناه : أنهم إنْ سألوا سألوا بتلطف و لم يلحوا "[2] ومن الطبيعي أن يكون هذا هو مذهبه في المسألة ، ليتوافق مع مذهبه في معنى الإلحاح كما سبق ، ومع ذلك ، لم يستبعد أن يكون المعنى نفي

[1] - ينظر : ابن حجر العسقلاني ، "فتح الباري بشرح صحيح البخاري" ، ج12ص387

[2] - الزمخشري ، " الكشاف " ،ج1 ص503 / 504

مطلق السؤال حيث قال :" وقيل هو نفي للسؤال والإلحاف معا كقولـه" على لاحب[1]لا يُهتدى بمناره[2]

" يريد نفي المنار والاهتداء به" [3]

فظاهر اللفظ نفي الاهتداء بالمنارة الموجودة بالطريق ، إلا أن السياق يفيـد نفي وجود المنارة أصلا بالطريق الواضح (اللحب) ، ومن هذا الباب حملت الآية على مطلق النفي.

ويبدو أن العلماء اهتموا بالسياق أكثر من اهتمامهم بظاهر اللفظ تماشيا مع روح الآية فرجَّح أكثرهم نفي مطلق السؤال في الآية .

قال القرطبي :" وعلى هذا جُمهورُ المفسِّرين "[4] وقال محمد رشيد رضا: " وعليـه المحققون "[5] وقال الطبرسي (ت548هـ) :": أنهم لا يسألون الناس أصلا ...وهـو قول الفراء والزجاج وأكثر أرباب المعاني[6]"[7]

ومن الذين ناقشوا المسألة الطبري في تفسيره حيث بدا أكثر حزما ، حين قال : " غير جائز أن يكون كانوا يسألون الناس شيئا على وجه الصدقة إلحافـا أو غير إلحاف. وذلك أن الله عز وجل وصفهم بأنهم كانوا أهل تعفف ، وأنهم إنما

---

1 -لاحب : من اللحب وهو الطريق الواضح واللاحب مثله ، ابن منظور "لسان العرب " ، مادة : ل ح ب ، ج45 ص4003

2 - البيت هو لامرئ القيس، عَـلـى لاحِـبٍ لا يَـهـتَـدِي بِـمَـنَـارِهِ إذا سـافَـهُ الـعَـوْدُ الـنَّـبَـاطِيُّ جَـرْجَـرَا[7]

ديوان امرئ القيس : اعتنى به وشرحه : عبد الرحمان المصطاوي ، ط2 ،دار المعرفة بيروت لبنان ، ت ط 2004 م ، ص 96

وأمثاله كثير في لغة العرب ذكر بعضها ابن جني(ت 392 هـ)في باب :" جمع الأشباه من حيث يغمض الاشتباه "

ومثيلها في القرآن الكريم كثير

3 - الزمخشري ، " الكشاف " ، ج1 ص504

4 - القرطبي ، " الجامع لأحكام القرآن " ، ج 4ص275

5 - محمد رشيد رضا ، " تفسير المنار " ، ج3 ص89

6 - أرباب المعاني : عله يقصد الذين ألفوا في معاني القرآن

7 - الطبرسي ، " مجمع البيان في تفسير القرآن " المجلد الأول،ج 3 ص355

كانوا يُعرفون بسيماهم فلو كانت المسألة من شأنهم ، لم تكن صفتُهم التعفف ، ولم يكن بالنبي ﷺ إلى علم معرفتهم بالأدلة والعلامة حاجة ، وكانت المسألة الظاهرة تنبئ عن حالهم وأمرهم "[1]

واستدل بالحديث الذي رواه أبو سعيد الخذري وفي قول أبي سعيد :" **فما سألت رسول الله ﷺ شيئا** "وعقب على ذلك بقوله :" الدلالة الواضحة على أن التعفف معنى ينفي المسألة من الشخص الواحد وأن من كان موصوفا بالتعفف فغير موصوف بالمسألة إلحافا أو غير إلحاف "

ويحق لنا أن نتساءل: ما وجه إضافة السؤال إلى الإلحاف ؟ وبمعنى آخر إذا كان المراد هو نفي السؤال البتة فلم قيد بالإلحاف ؟

الحقيقة أنه وإن كان المقصود هو نفي مطلق السؤال ، إلا أن إضافة قيد الإلحاف إليه أبلغ ، ذلك لأنه خروج عن العادة والعرف الذي ألفناه من إلحاف السائلين ، الشيء الذي يجعل المرء يقف وقفة تأمل : ما الذي جعل هؤلاء الفقراء متميزين بخروجهم عن العادة والعرف ؟ فالعرف يقتضي أن تكون للأرض الواسعة منارة يُهتدى بها فلم فقدت ؟

الآية بهذه النظم -والله أعلم - تحمل مدحا وثناء على هؤلاء الفقراء المتعففين الذين تجاوزوا المسألة في غير إلحاف وهي مباحة في حقهم ،إلى الامتناع عن السؤال البتة.

حملت الآية صورة بيانية وفنا من أبدع الفنون البيانية تعرف ب " نفي الشيء بإيجابه " قال ابن الأثير في المثل السائر : "ولقد مكثت زمانا أطوف على أقوال

[1] -الطبري ،" جامع البيان عن تأويل آي القرآن " ،ج 5 ص598

الشعراء قصداً للظفر بأمثلة من الشعر جارية هذا المجرى[1] فلم أجد إلا بيتا لامرئ القيس وهو:

على لاحب لا يُهتدي لمناره ... إذا سافه العود الديافي جرجرا

فقوله " لا يهتدي لمناره " أي أن له منارا إلا أنه لا يهتدي به، وليس المراد ذلك، بل المراد أنه لا منار له يهتدي به." [2]

ولا شك أن السياق يحمل معنى المبالغة في التعفف عن السؤال من جانب هؤلاء الفقراء ،فكان مثلهم كمثل الأغنياء في امتناعهم عن السؤال .ولا ريب أن عزة النفس وكرامتها عند هؤلاء ،كانت وراء هذا التجمل وإخفاء الحاجة .فرغم أن السؤال في حقهم مباح ، إلا أنهم آثروا العفة وسلكوا طريقها ، وربوا نفوسهم عليها حتى صارت خلقا راسخا .

ونخلص إلى القول : أن العفة في الآية الكريمة تجاوزت حدود الكف عما لا يحل - وهو المعنى الذي حمله بعض أهل اللغة - إلى ما هو أبعد من ذلك ، مما لا يليق بالمرء فعله فالسؤال في حقهم ليس حراما ، ومع ذلك ترفعوا عنه ،فذاك قدر زائد على مجرد الكف عن الحرام .

وعليه يكون التعريف الأقرب إلى معنى العفة وحقيقتها من خلال الآية هو " الكف عما لا يحل ولا يجمل" على أن تكون الواو ،هي واو المعية بمعنى أن المتعفف تجاوز درجة الكف عما به بأس ، إلى ما لا بأس به سعيا منه إلى بلوغ درجة الكمال في الأخلاق. وتلكم هي حقيقة العفة التي حملتها لنا الآية الكريمة في واحدة من مجالاتها وهي " العفة عن شهوة المال ".

---

[1] - نفي الشيء بإيجابه

[2] - ابن الأثير ، " المثل السائر" ، ج1 ص172

ولن نغادر هذه الآية الكريمة قبل أن نعرض إلى لفتة طيبة من سيد قطب رحمه الله والتي تنبئ بحق ، عن عمق فكره ووجدانه في تفسيره لختام الآية وكأنها ردا على من سأل : لم ختم الله عز وجل الآية بقوله تعالى :" **وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم** " ؟

فقال :" هؤلاء الفقراء الكرام الذين يكتمون الحاجة كأنما يغطون العوز ... لن يكون إعطاؤهم إلا سرا وفي تلطف لا يخدش إباءهم ولا يجرح كرامتهم ومن ثم كان التعقيب موحيا بإخفاء الصدقة وإسرارها ، مطمئنا لأصحابها على علم الله بها وجزائه عليها "[1]

[1] – سيد قطب ، "في ظلال القرآن " ، ج1 ص296

دراسة الآية الثانية :

قوله تعالى:" وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُواْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ۝٦ "(1)

هذه الآية من سورة النساء ، خطاب من الله تعالى لأولياء اليتـــامى ، أمرهم باختبار اليتامى من حيث الرشد وحسن التصرف في الأموال ، فإذا كمـــل عقلهم وأونس منهم رشدهم بعد أن يبلغوا سلم إليهم أموالهم مع الإشهاد عليهم.

وفي الآية نهي عن أكل ماله بغير ما أباحه الله والمبادرة بذلك قبل كبرهم ورشدهم وقسم الأمر بين أن يكون الوصي غنيا أو فقيرا . فأمر الغني بالاستعفاف وأباح للفقير الأكل بالمعروف .

وسوف لن نتحدث عما جاء في الآية مما يتعلق بابتلاء اليتامى وامتحان رشدهم ولا كيفيته ، ولا حتى عن الشروط التي إذا استوفاها اليتيم نسلم إليه المال ، لأن ذلك لا علاقة له بموضوعنا .

وإنما سنركز على حقيقة العفة من خلال قوله تعالى :"**ومن كان غنيا فليســـتعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف** "

[1] – النساء : 6

أخرج البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها في قوله تعالى **"(من كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأمر بالمعروف) أنها نزلت في مال اليتيم إذا كان فقيرا أنه يأكل منه مكان قيامه عليه بمعروف "**[1]

يستعِفف ماضيه استعفَفَ على وزن استفعل ، وهو واحد من أبنية الفعل الثلاثي المزيد بثلاثة أحرف جدر عفّ أو عفف ،وبزيادة همزة الوصل والسين والتاء يصبح الفعل استعفف على وزن استفعل.

يقول علماء اللغة :"إن بناء استفعل يأتي للدلالة على الطلب نحو استغفر طلب المغفرة واستنجد طلب النجدة واستعفف طلب العفة [2] و عليه قوله تعالى : " فليستعفف " فليطلب العفة أي فليطلب من نفسه أن يكون متعففا . قال القرطبي:"عَفَّ الرَّجلُ عن الشيءِ واستَعَفَّ : إذا أمسك ، فأمر الغني بالإمساك عن مال اليتيم وأباح الله للوصي الفقير أن يأكل من مال يتيمه بالمعروف "[3] أما قوله تعالى :" ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف " فإعرابها نفس إعراب ما قبلها جملة وتفصيلا .

فالله عز وجل قسم الأمر بين أن يكون الولي غنيا أو أن يكون فقيرا فالأول مطلوب منه الاستعفاف ، والثاني أبيح له الأكل بالمعروف

والسؤال الذي يستوقفنا والذي نراه يتوقف عليه مفهوم العفة وحقيقتها في الآية : **هل للوصي على اليتيم حق في ماله كأجرة لقيامه عليه** ؟ فإن كان الجواب بالإيجاب فما وجه اشتراط الفقر ودلالته في إباحته الأكل بالمعروف من مال اليتيم ؟ وإن كان الجواب بالنفي ، فأي معنى يكون لاستعفاف الغني ؟

---

[1] – الحديث :أخرجه البخاري في صحيحه ، باب : من كان فقيرا فليأكل بالمعروف ،ج 3 ص215

[2] – ينظر : المفصل في صنعة الإعراب ج1 ص45 ، شرح بن عقيل ج4 ص260 ابن جني ، " الخصائص " ، ج2ص153

[3] – ابن عطية (ت546هـ) ،" المحرر الوجيز " ،ج 2 ص11 والقرطبي ، " الجامع لأحكام القرآن " ، ج6 ص81

وعلى ما يستحق المدح والثناء إذ هو لم يفعل أكثر من امتناعه عن أخذ ما لا يحل له ؟

وقبل إلقاء الضوء على المسألة ، لابد من تحديد جملة من المفاهيم وضبطها، لتوطئ أمامنا الطريق ، للوصول إلى حقيقة العفة في الآية منها:

ما حقيقة " الغنى " الذي يُطلب به الاستعفاف ؟

وما حقيقة " الفقر " الذي يباح به الأكل بالمعروف ؟

ثم ما حقيقة "المعروف " الذي يُعد مقياسا في الحكم على الأكل من مال اليتيم بالإفراط أو التفريط ؟

الغنى في اللغة الاكتفاء واليسر، وضده الفقر الذي هو العوز والحاجة[1]"والغنى يكون بالمال وغيره من القوة والمعونة وكل ما ينافي الحاجة "[2]

وغير بعيد عن المعنى اللغوي المعنى الاصطلاحي

ذهب مالك والشافعي وأحمد أن الغنى : هو ما تحصل به الكفاية ، فإن لم يكن محتاجا حرمت عليه الصدقة ، وإن لم يملك شيئا . وإن كان محتاجا حلت له الصدقة وإن ملك نصابا ويبدو أن مقياس الفقر و الغنى ليس عن قلة العرض أو كثرته ، وإنما الضابط في ذلك [3] الحاجة.

---

[1] – ابن منظور ، " لسان العرب" ، مادة : غ ن ا ، ج37ص3308

[2] – أبو هلال العسكري ، " الفروق اللغوية " ، ص 175 176

[3] – ينظر : الخطابي(ت388 ه) ، أبو سليمان حمد بن محمد "معالم السنن " ، طبعه وصححه : محمد راغب الطباخ ، ط1 ، المطبعة العلمية حلب سوريا ، ت ط 1933م ، ج2 ص56

قال تعالى:" ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ " [1]

أي المحتاجون إليه . فالغنى ، الأصل فيه عن الشيء لا بالشيء يصير المرء غنيا ، بمعنى آخر أن الغني لا يتحدد بامتلاك نصابا من العرض به يصير غنيا ، وإنما بمدى استغناءه عن ذلك العرض وعدم حاجته إليه ، فالمسألة أقرب إلى الجانب النفسي الروحي منها إلى المادي . ذاك هو الغني الحقيقي لذا قال ﷺ: " **لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ**"[2] وجاءت أشعار العرب مؤيدة لهذا المعنى قال سالم بن وابصة الأسدي[3]

غنى النفس ما يكفيك من سدِّ خُلَّة *** فإن زاد شيئاً عاد ذاك الغني فقرًا [4]

الخلة : الحاجة والمعنى متى وَجد المرء ما يسد حاجته فهو في الأصل غني ومستغن ، فإن طلب زيادة عن كفايتك صار محتاجا فيرجع غناه فقرا .

قال الشافعي في الديوان :

غَنِيٌّ بلا مالٍ عنِ النَّاسِ كُلِّهُم *** ولَيْسَ الغِنَي إِلَّا عَنِ الشَّيءِ لا بِهِ [5]

---

[1] – فاطر : 15

[2] – الحديث رواه البخاري في صحيحه ، باب الغنى غنى النفس ، ج4ص 182 ،ومسلم في صحيحه ،باب ليس الغنى غنى العرض، ج5ص268 وغيرهما .

[3] – سالم بن وابصة بن معبد الأسدي (ت125هـ) الطبقة الأولى من التابعين، كان سالم شاعراً مسلماً متديناً عفيفاً ، سكن الكوفة ولي الرقة عن محمد بن مروان. ، واستمر بها نحو ثلاثين عاما. تُوُفّي سالم بن وابصة في آخر خلافة هشام بن عبد الملك .الزركلي " الأعلام " ج3 ص73، ابن حجر ، " الإصابة في تمييز الصحابة ج 1 ص412

[4] – المرزوقي ،"شرح ديوان الحماسة" ، ج1 ص351

[5] – الشافعي (ت 204 هـ) محمد بن إدريس ، "ديوان الإمام الشافعي " ، اعتنى به : عبد الرحمن المصطاوي ، ط 3 ، دار المعرفة بيروت لبنان ، ت ط 2005 م ، ص29

وقال الشافعي (ت204هـ) :" قد يكون الرجل بالدرهم غنيا مع كسب ولا يغنيه الألف مع ضعفه في نفسه وكثرة عياله "[1]

وهذا المذهب - مذهب الغنى والفقر- "هو الذي تُعضِّده الشريعة بنصوصها وروحها كما تؤيده اللغة واستعمالاتها"[2] ،وبهذا يتبين جليا أن الغنى والفقر إنما يتحدد نسبة إلى الحاجة وعدمها.

إذا كانت هذه هي حقيقة الغنى والفقر فماذا عن حقيقة ومعنى المعروف ؟ ورد لفظ " المعروف " في القرآن الكريم اثنان وثلاثون مرة [3] (32) جاء جميعها مجرورا بحرف الباء باستثناء آية واحدة في سورة التوبة. كما جاء أغلبها في سياق الأمر بالمعروف ومقابلة النهي عن المنكر ، فيكون لفظ المعروف اسما جامعا لكل ما عرف من طاعة الله تعالى والتقرب إليه. أو كل ما ندب إليه الشرع واستحسنه [4]

وقد يتبادر إلى الأذهان ، أن هذا المعنى لا يتفق مع سياق الآية التي بين أيدينا ، إلا أننا لو تأملنا الآية ونظرنا إلى الوصي الفقير وهو يأكل من مال اليتيم ويقتصر في ذلك على الحد الأدنى الذي يسُدُّ به حاجته - من سد الجوعة وستر العورة - دون مجاوزته ، ندرك أن ذلك ما استحسنه الشرع ، وأما بقية الآيات التي حملت المفردة جاءت إما في سياق الحديث عن نفقة الزوج على وزوجته و أولاده . أو في سياق ما تُعطاه المرضعة ، أو ما تُعطاه ملك اليمين من مهر عند نكاحها ،أو ما تُعطاه المرأة المطلَّقة من الأجر قبل الدخول بها أو بعده على سبيل المتاع .

---

1 - الخطابي ، "معالم السنن " ، ج2 ص56

2 - ترجيح القرضاوي لمذهب مالك و الشافعي في المسألة .في كتابه "فقه الزكاة "، ج2 ص555

3 - محمد فؤاد عبد الباقي ، " لمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم " ، ص 458

4 - الاستحسان : : هو عد الشيء واعتقاده حسناً . الجرجاني ، " التعريفات " ، ص 18

وفي جميعها قدر مشترك هو: عدم التقدير، وإنما الضابط فيه بالنسبة للنفقة على الأولاد والزوجة هو كفاية الحاجات الضرورية المعروفة شرعا ، فهي إذن نسبية حسب الوسع والطاقة.

أما غير ذلك من مهر الزوجة ،و متاع المطلقة وأجر المرضعة فإن لفظ المعروف فيها يحمل على عرف الناس ونقول : أمر معروف أي إذا رأوه لا ينكرونه ،وفي جميع الأحوال لا يخرج معنى اللفظ في القرآن الكريم عن قدر الحاجة والعرف وهو ما يتفق مع المعنى اللغوي قال ابن منظور:" والمَعْرُوف ضدُّ المُنْكَر والعُرْفُ ضدّ النُّكْر وهو ما تعرفه النفس من الخير و تبسأ به وتطمئن إليه "[1] و لم يأت معنى " المعروف " بمعنى القرض ولا بمعنى أقل الأمرين من الأجرة والحاجة في أي منها. ذلك لأنه لا يستقيم المعنى

قال ابن حجر" في شرح حديث " **إن أبا سفيان رجل شحيح ...خدي ما يكفيك وأولادك بالمعروف** "[2] قال: " وفيه اعتماد العرف في الأمور التي لا تحديد فيها من قبل الشرع"[3] فَأَحَالَهَا عَلَى الْعُرْفِ فِيمَا لَيْسَ فِيهِ تَحْدِيدٌ شَرْعِيٌّ ، وقال في موضع آخر :" حَدِيث عَائِشَة فِي قِصَّةِ هِنْد بِنْت عُتْبَة وَفِيهِ " أَذِنَ النَّبِيّ ﷺ لَهَا بِالْأَخْذِ مِنْ مَال زَوْجهَا بِقَدْرِ حَاجَتِهَا "[4]

وفي موضع آخر قال:" وَالْمُرَاد بِالْمَعْرُوفِ الْقَدْر الَّذِي عُرِفَ بِالْعَادَةِ أَنَّهُ الْكِفَايَة قَالَ : وَهَذِهِ الْإِبَاحَة وَإِنْ كَانَتْ مُطْلَقَة لَفْظًا لَكِنَّهَا مُقَيَّدَة "

---

[1] – ابن منظور ، " لسان العرب" ، ج9 ص236

[2] – ابن حجر العسقلاني ، " فتح الباري بشرح صحيح البخاري " ، ج 9ص420

[3] – ابن حجر العسقلاني ، " فتح الباري بشرح صحيح البخاري " ، ج 7 ص 44

[4] – ابن حجر العسقلاني ، " فتح الباري بشرح صحيح البخاري " ، ج7 ص370

ومثله قال الإمام النووي : واستدل بقول عائشة -رضي الله عنها - في قوله تعالى :"ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف" أنه يجوز للولي أن يأكل من مال اليتيم بالمعروف إذا كان محتاجا . وقال :هو أيضا مذهب الشافعي والجمهور "[1]

وعلى ضوء تحديد ألفاظ الغنى والفقر ثم لفظ المعروف في الآية يتحدد مفهوم الاستعفاف ، فالغنى والفقر وصفان يتحددان بالحاجة .والمعروف وصف حدد بالحاجة والعرف . وقوله تعالى :"ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف" هي عطف على سابقتها " ولا تأكلوها إسرافا وبدارا أن يكبروا " التي تحمل معنى النهي عن أكل أموال اليتامى مقيدة بالإسراف والمبادرة.

مسألة : هل للوصي الحق في مال اليتيم لقيامه عليها ؟

قال الزمخشري : "ولفظ الأكل بالمعروف والاستعفاف مما يدل على أن للوصي حقا لقيامه عليها"[2] ، واستدل بأحاديث يُعضِّد بها ما ذهب إليه ، مفادها أن الرسول ﷺ أباح للذي جاءه يستأذن في الأكل من مال اليتيم ، كما أباح للآخر في شرب من لبن إبله .

والملاحظ في كلتا الروايتين أن السائل لم يقيد بوصف الغنى أو الفقر، بل جاء مطلقا ففي الرواية الأولى "**أن رجلا قال** ..."وفي الرواية الثانية"**أن ولي اليتيم قال**..." مما يؤيد صحة ما ذهب إليه ،فيكون الزمخشري في استدلاله هذا قد زاوج بين الاجتهاد العقلي والنص الشرعي .

[1] – الإمام النووي ، "شرح الإمام مسلم " ، ج9 ص398

[2] – الزمخشري ، " الكشاف " ، ج2 ص24

واقتفى البيضاوي أثر الزمخشري في مذهبه لفظا ومعنى فقال :" ولفظ الاستعفاف والأكل بالمعروف مشعر بأن الولي له حق في مال الصبي" [1] وقال أبو السعود مثل ذلك فذكر عبارة الزمخشري المشهورة وقد أشار الطبري إلى هذه المسألة في تفسيره فقال: " يعني بقوله جل ثناؤه " ومن كان غنيا " من ولاة أموال اليتامى على أموالهم ،فليستعفف بماله عن أكلها - بغير الإسراف والبدار أن يكبروا - بما أباح الله له أكلها به "[2] فالعبارة الأخيرة توحي بأن الطبري يرى أحقية ولي اليتيم في الأكل من ماله غير أنه مطالب بالاستعفاف والتنازل عن حقه لصالح اليتيم ، ما دامت الحاجة لم تعزه إلى ذلك .فيكون الاستعفاف تفضلا منه.

غير أن عددا غير قليل من المفسرين لم يصرحوا بالقول في المسألة واكتفوا بالقول أن الله عز وجل أمر الغني بالإمساك وأباح للفقير الأكل بالمعروف ، بيد أن هناك قرائن ، توحي بأن مذهبهم في المسألة ، أن ليس للولي إن كان غنيا الحق في مال اليتيم منها :

أ- تحفظهم الشديد في إباحة الفقير للأكل من مال اليتيم ، حتى أن بعضهم اعتبر ذلك الأكل بالمعروف على سبيل القرض ولزمه متى أيسر ، ثم ذكرهم اختلاف العلماء في ذلك ، فإذا كان حالهم وموقفهم من الوصي الفقير المعوز فمن باب أولى يكون بالنسبة للغني .

ب- استعمالهم في التفسير لفظ " **أمر** " على إطلاقه ومن المعلوم عند علماء الأصول أن الأصل في الأمر أنه ينصرف إلى الوجوب ما لم توجد قرينة تصرفه من الوجوب إلى غيره كالاستحباب أو الندب

---

[1] - البيضاوي ، " أنوار التنزيل وأسرار التأويل " ،ج1 ص431

[2] -الطبري ،" جامع البيان عن تأويل آي القرآن " ،ج7 ص581

ويبدو أن الذي حملهم على ذلك ، هو تورعهم وخشيتهم من أن يحمل كلامهم محمل الاستخفاف والتساهل في التعامل مع مال اليتيم ، فأنزلوه منزلة الشبهة مخافة الوقوع في الحرام .

قال ﷺ :"فَمَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ الحَرَام "[1] . هذا من جهة ومن جهة أخرى قد يكون هذا التحفظ مرده إلى حمل لفظ " المعروف " على القرض الذي وجب رده متى حصل اليسر.

ويبدوا أن الذي حملهم على التأويل هو لتبرير ما غلب على ظنهم أن الآية ناسخة

لقوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ "[2]

وللوقوف على المسألة كان لزاما علينا البحث في أهم الكتب التي تخصصت في هذا الفن من علوم القرآن وهو الناسخ والمنسوخ ونستعرض آراءهم وأقوالهم حسب الترتيب الزمني

أولا :الناسخ والمنسوخ لأبي جعفر النحاس (ت338ه)

عرض النحاس تنازع العلماء في المسألة بين قائل بعدم حلية الوصي في الأكل من مال اليتيم مطلقا غنيا أو فقيرا ، وبين قائل بحلية الأكل من مال اليتيم بالمعروف عند الحاجة

[1] – الحديث :رواه مسلم في صحيحه، باب :أخذ الحلال وترك الشبهات ، ج 8 ص290 وأبو داوود في سننه ، باب :في اجتناب الشبهات ، ج 9 ص160

[2] – النساء : 10

فأما أصحاب الرأي الأول فهم على قسمين من حيث الاستدلال

أ – قسم استدل إلى ما ذهب إليه بما غلب على ظنه من أن الآية " ومن كان غنيا " منسوخة بآية البقرة وهي قوله تعالى :" يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم " قال النحاس فمنع جماعة من أهل العلم الوصي من أخذ شيء من مال اليتيم " ، والبعض الآخر بما بلغه من الخبر من أن ابن عباس رصي الله عنه في إحدى رواياته أنه قال : ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف قال : نسخ الظلم والاعتداء ونسختها " إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا "

ب – القسم الثاني ممن ذهب هذا المذهب لم يكن منعه بسبب النسخ ذلك لأن هؤلاء يرون أن الآية محكمة[1] على حد تعبير أبي جعفر النحاس –بل يرجع إلى تأويل لفظ " المعروف " بالقرض وعليه قالوا لا يحل للوصي أن يأخذ مال اليتيم إلا قرضا [2]، ودليلهم في ذلك قوله تعالى في آخر الآية :" فإذا دفعتم إليهم أموالهم فاشهدوا عليهم"

وسواء أكان المنع مطلقا أو منعا مع استثناء القرض فالاستلزام عدم أحقية الوصي في مال اليتيم .

وأما أصحاب الرأي الثاني القائلون بحلية الأكل بالمعروف للوصي عند الحاجة

---

[1] - يبدو أنه جاء بلفظ محكمة في مقابلة المنسوخة ، والمحكم : ما أُحكم المراد به عن التغيير والتبديل أي التأويل والتخصيص والنسخ الجرجاني ، " التعريفات " ، ص115

[2] - القرض :أن تأخذ من مال الرجل درهما لترد عليه بدله درهما فيبقى دين عليك إلى أن ترده. أبو هلال العسكري " الفروق اللغوية " باب : الفرق بين القرض والدَّين، ص171

قال النحاس :" وذهب جماعة من العلماء إلى ظاهر الآية فقالوا : له أن يأخذ منه مقدار قوته " ونقل النحاس عن الحسن قوله إذا احتاج ولي اليتيم أكل بالمعروف وليس عليه إذا أيسر قضاؤه والمعروف قوته "[1]

ويظهر جليا من هذا النص أن اختيارهم هذا المذهب مرده تفسير لفظ " المعروف " بالقوت ، ويؤكد هذا القول ما نقل عن إبراهيم في قوله عز وجل " ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف " قال : ما سدّ الجوعة ووارى العورة .هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن ابن عباس رضي الله عنه في ثاني رواياته قد أفتى الأعرابي الذي كان تحته يتيم وله إبل فأفتاه بحلية حلبها غير مُضر بنسل.

ويبدو من خلال الرواية أن الأعرابي لم يكن من ذوي الحاجة بدليل قوله "إن لي إبلا " ولما كان مذهب النحاس هو المنع ، ورواية ابن عباس صحيحة كان لا بد له أن يجد لها مُصوغا فقال : " وهذا إسنادا صحيح غير أنه لو كان هذا على التأويل وأن الوصي إنما يأخذ بمقدار عمله كان الغني والفقير في ذلك واحد وقد فرق الله عز وجل بينهما في الآية بعينها "

بتأمل بسيط في هذا النص يهدي إلى أن مذهب النحاس في المسألة عدم استحقاق الوصي للأجرة غنيا كان أو فقيرا ، بدليل استحسانه لرواية ابن العباس الثالثة في قوله :

" ومن كان غنيا فليستغفف بغناه ولا يأكل مال اليتيم ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف قال " يقوت على نفسه حتى لا يحتاج إلى مال اليتيم " عَقَّب النحاس على

[1] - أبو جعفر النحاس ، " الناسخ والمنسوخ " ، ج1 ص228

ذلك بقوله :" وهذا من أحسن ما روي في تفسير الآية ، لأن أموالا الناس محصورة لا يطلق منها شيء إلا بحجة قاطعة "[1]

ثانيا : الناسخ والمنسوخ لهبة الله بن سلامة بن نصر المقري (ت410 هجرية)

إن كان النحاس نقل إلينا ما يقيد أن الآية منسوخة فإن المقري يرى عكس ذلك ـ أنها ناسخة ـ فقال :" ومن كان غنيا فليستعفف عن أكل مال اليتيم ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف " والمعروف ههنا القرض فإن أيسر رد وإن مات وليس بموسر فلا شيء عليه .فصارت الآية هذه ناسخة لقوله تعالى :" إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما "[2]

ويبدو أن الذي حمله على هذا القول تفسير للفظ " المعروف "في قوله تعالى :" ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف " بالقرض واستعماله " فصارت " يوحي بذلك ،أي: فصارت بهذا المعنى ، ثم أن الآية أخف في الحكم وهي بالتالي أيسر في العمل من حيث أنها رخصت للفقير القرض -على حد قوله ـ من سابقتها التي جاءت مجملة في منع أكل مال اليتيم .

ثالثا : الناسخ والمنسوخ بن حزم الظاهري (ت 456 ه)

وما ذكره ابن حزم في هذه المسألة لم يخرج عن ما قاله المقري جملة وتفصيلا

---

[1] – أبو جعفر النحاس ، " الناسخ والمنسوخ " ، ج1 ص231

[2] – ابن سلامة المقري ، " الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم" ، ج1 ص10

[2] – أبو بكر الكرمي ،" قلائد المرجان في بيان الناسخ والمنسوخ في القرآن

رابعا : الناسخ والمنسوخ لأبي بكر الكرمي (ت1033 هـ)

وما يقال عن ابن حزم يقال عن الكرمي غير أن ابن حزم تبع المقـــري في مبدأ النسخ دون أن يتبعه في العلة التي حملته على القول بالنسخ ، وكأن المسألتين مستقلتين عن بعضهما البعض حيث قال :" قلت والمعروف عند الإمام أحمد الأقل من كفايته وأجرة المثل "[1] ، بمعنى أن الكرمي يرى استحقاق الفقير الأكل من مال اليتيم غير أنه يتم له ذلك بعد تقدير أجرة مثله في القيام بعمل الوصـــاية وتقـــدير كفايته الضرورية فيأخذ أقلهما . وذاك معنى آخر يضاف إلى المعني السابقة في تأويل لفظ " المعروف "

ومذهب أقل الأمرين وجدناه عند ابن قدامة المقدسي (ت620 هجرية) حيث قال :" وإن كان فقيرا فله أقل الأمرين من أجرته أو قدر كفايته لأنه يستحقه بالعمل والحاجة جميعا "[2] ، وإن كان الإمام أحمد يرى أن استحقاق الأكل يكفي فيه تحقق الفقر والحاجة، فإن المقدسي يرى أنه لابد من تحقق شرط آخر هو العمل فلا يجزئ أحدهما عن الآخر ، وهو ما أفتى به ابن تيمية (ت728هـ) حين سئل عن رجل وصي على مال يتيم وقد قارض فيه مدة ثلاث سنين وقد ربح فيه فائدة مـــن وجه حل فهل يحل للموصي أن يأخذ من الفائدة شيئا أو هي لليتيم خاصة ؟

فأجاب : "الربح كله لليتيم لكن إن كان الوصي فقيرا وقد عمل في المال فلـــه أن يأخذ أقل الأمرين من أجرة مثله أو كفايته فلا يأخذ فوق أجرة عمله وإذا كانـــت الأجرة أكثر من كفايته لم يأخذ أكثر منها"[3]

---

[2] – ابن قدامة المقدسي ، " الشرح الكبير " ، ج 4 ص531

[3] –ابن تيمية ، " الفتاوى الكبرى " ، ج 6 ص396

وبعد هذه الجولة في رحاب هذه الآية الكريمة يمكننا استخلاص جملة من الملاحظات نوردها فيما يلي:

أولا: اختلاف العلماء في معنى الآية الكريمة مرده ، إلى اختلاف وتباين مواقفهم من الناسخ والمنسوخ بين مقصر ومتوسع ومقتصد.

ثانيا : قد يبنى فهم المفسر للآية على مبدأ النسخ اعتمادا على ما وصله من أخبار السلف من أن الآية ناسخة أو منسوخة ، وقد يكون المسار عكسيا ، فيغلب على ظنه أن الآية ناسخة ومنسوخة بناء على فهمه للآية .

ثالثا : اختلاف العلماء في التأويل وذهابهم مذاهب شتى كما هو شأن في لفظ " المعروف " وهو ما يطرح إشكالية المصطلح واستعمالاته المتعددة في الزمان والمكان "فالمصطلح هو ابن بيئته "[1] فالبيئة التي نشأ هي التي تُؤطره والمعلوم أن غياب الاصطلاح يؤدي إلى تفكك العلاقة بين اللفظ والمعنى وهذا يطرح بدوره إشكالية التواصل .

ويلتمس الزرقاني في كتابه " مناهل العرفان " الأعذار لعلماء فن الناسخ والمنسوخ الذين سبق ذكرهم وغيرهم فقال : " ومنشأ تزيدهم هذا أنهم انخدعوا بكل ما نقل عن السلف أنه منسوخ ،وفاتهم أن السلف لم يكونوا يقصدون بالنسخ هذا المعنى الاصطلاحي بل كانوا يقصدون ما هو أعم منه مما يشمل بيان المجمل وتقييد المطلق ونحوها "[2]

رابعا : تعارض الأدلة والنصوص مع صحة أسانيدها يعمق الاختلاف ويفسح المجال على مصراعيه للتأويلات ، فعلى سبيل المثال روايات ابن عباس رضي الله عنه

---

[1] – عبارة أخذتها عن أستاذي د/أحمد حساني

[2] – الزرقاني ، " مناهل العرفان " ، ج2 ص197

الثلاث المتباينة في المسألة الواحدة. وهنا تبرز أهمية تفسير النص من خلال الظروف المحيطة به ، وعلى ضوء ملابساته من سياق وبلاغة وتماش مع روح الشريعة ومقاصدها ، ولعل بذلك يزول الإشكال وما كان يظن متعارضا ومختلفا هو في الحقيقة مؤتلفا .

وعليه يكون قول الجمهور في استحقاق الوصي للأجرة ، للندب والاستحباب لا للوجوب هو القول الراجح المحقق لمعنى العفة بكل ما تحمله من معان ، متماشيا مع روح الشريعة ومقاصدها .

ويكون استعفاف الغني في قوله تعالى :" ومن كان غنيا فليستعفف تعففا بغناه عن مال اليتيم ، تنازلا عن حقه في الاستحقاق إتباعا لما هو أفضل وترفعا عن الدناءات من باب قوله تعالى :" ﴿ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ "[1]

وفي الآية نوع طريف من أنواع البيان يطلق عليه : "قوة اللفظ لقوة المعنى "فليستعفف " فإن لفظ " استعف " أبلغ من "عف "كأنه يطلب زيادة العفة والمبالغة فيها هضما لنفسه [2]

وهذا النوع تكلم فيه علماء اللغة والبيان وذكروا أن : اللفظ إذا كان على وزن من الأوزان ثم نقل إلى وزن آخر أكثر منه فلا بد من أن يتضمن من المعنى أكثر[3] فالمبالغة في العفة هضما للنفس هي الأنسب في المقام لاستحقاق الولي الأجرة في عمالته لمال اليتيم.

---

[1] – الزمر : 17

[2] – ينظر : محي الدين الدرويش ، "إعراب القرآن وبيانه " ط7 ، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان ، ت ط 1999م ج4 ص619

[3] – ذكر ذلك ابن الأثير في " المثل السائر " ج 1 ص 169 وقبله ابن جني في " الخصائص " ج 1 ص309

فالاستعفاف تجاوز مجرد الكف عن أكل مال اليتيم بغير حق ، إلى ما هو أفضل بالتنازل عن حقه في عمالته في مال اليتيم وقيامه عليه ، فهو امتناع مع القدرة - بحكم وصايته وضعف اليتيم في رده عن ذلك لقصره- وهنا يكمن القدر الزائد الذي من أجله سُمي الفعل عفة، وسُمي من صار فعل العفة خلقا وطبعا راسخا فيه" متعففا " واستحق المدح والثناء.

ومن يدري لعل مذهب عمر بن الخطاب رضي الله عنه القائل برد المال عند اليسر لما أُكل من مال اليتيم عند الحاجة ، من باب اتباع الأفضل واطمئنان القلب في تبرئة الذمة لا من باب الإلزام. وهو تأويل محتمل وما يقال عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه يقال عن غيره من علماء السلف الذين ذهبوا مذهبه ممن حملهم على ذلك ورعهم وتقواهم والله أعلم.

دراسة الآية الثالثة :

قال تعالى :" وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ " (1)

خطاب من الله عز وجل للمؤمنين الذين عجزوا عن النكاح و لم يتيسر لهم سبله يأمرهم بالاستعفاف إلى أن يجعل الله لهم مخرجا ويرزقهم من حيث لا يحتسبوا ،ذاك مجمل معنى الآية عند القراءة الأولية لها.

"وليستعفف" من استعفف على وزن استفعل أي طلب من نفسه العفة .وهو من أبنية المبالغة - كما سبق ذكره - ليدل على بذل الوسع والاجتهاد في حمل النفس على العفة .

من المعلوم أن إشباع الغريزة مطلب جسدي لا يقل أهمية عن بقية المطالب الأخرى والزواج هو الطريق الذي ارتضاه الله تعالى لعباده لإشباعها بما يحفظ عرضه ويصون كرامته

قال تعالى:" وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٢٩ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٣٠ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٣١ (2)

وللوقوف على حقيقة الاستعفاف في الآية الكريمة يتعين علينا فهم :

أ – معنى الوُجد في قوله تعالى : " الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا "

ب – معنى الغِنى في قوله تعالى : " حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ "

---

1 – النور : 33

2 – المعارج : 29 /31

يرى بعض العلماء[1] أن في الآية حذف تقديره "الذين لا يجدون طول نكاح" أو "لا يجدون القدرة على النكاح" فحذف المضاف .قال الزمخشري: " لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا :أي استطاعة تزوج "[2]

بينما يرى البعض الآخر[3] أن : لا حذف في الآية وأن نكاحا هو اسم ما ينكح به أو يمكنه من النكاح كالمهر والنفقة ،نحو : لباسا تقع على ما يلبس ،ولحافا تقع على ما يلتحف به ، فيصير معنى الآية : الذين لا يجدون مالا يمكنهم من النكاح من باب إطلاق المسبب على السبب وهو نوع من المجاز قال الزركشي: " (وليستعف الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا) إنما أراد - والله أعلم - الشيء الذي ينكح به من مهر ونفقة وما لا بد للمتزوج منه "[4] . غير أن هذا الرأي متعقب ، وَوُصف بأنه ضعيف لما فيه من تخصيص المأمورين بالاستعفاف من عدم المال ، دون غيرهم ممن تعذر عليهم النكاح بأي وجه آخر من وجوه التعذر[5] .

ولما كان أغلب الموانع عدم المال - الذي يتطلبه الزواج من مهر ونفقة - وعد الله تعالى المستعففين بالغنى من فضله ، لكن هذا لا يمنع من أن يكون الأمر بالاستعفاف عام في كل من تعذر عليه الزواج بأي وجه. وقد يكون تعذر إيجاد "امرأة موافقة " [6] ترضى به زوجا لها مع امتلاكه للمال .

---

1 – منهم : الزمخشري و القرطبي ، البيضاوي ، الطاهر بن عاشور

2 –الزمخشري ، " الكشاف " ،ج4 ص301

3 – منهم : الطبري ،في" جامع البيان عن تأويل آي القرآن " ، البغوي ، في " معالم التنزيل " ، الزركشي ، في " البرهان في علوم القرآن "

4 – الزركشي ، " البرهان في علوم القرآن " ، باب : إيقاع المسبب موقع السبب ، ج2 ص260 وينظر: السيوطي،"الاتقان في علوم القرآن " باب في حقيقته ومجازه ،ويندرج تحته :إطلاق المسبب على السبب ، ج4 ص1513

5 –ينظر :ابن عطية ، "المحرر الوجيز " ج4 ص181، و القرطبي ، " الجامع لأحكام القرآن " ، ج12 ص243

6 –السمرقندي(ت375 ﻫ) الليث نصر بن محمد بن إبراهيم ، " بحر العلوم " ، تحقيق: د.محمود مطرجي ، دار الفكر بيروت لبنان ، ج 2ص511

وتخصيص العام لا يكون إلا بقرينة والقرينة قوله تعالى : " حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ " ومعنى"لا يجدون " لا يتمكنون من الوصول إليه ، قال الفخر الرازي :"لا يجد المرء الشيء إذا لم يتمكن منه ،قال تعالى : (فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ) والمراد بالإجماع من لم يتمكن ،ويقال في أحدنا هو غير واجد للماء وإن كان موجودا إذا لم يمكنه أن يشتريه "[1]

وأما" الغنى" في قوله تعالى:" حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ "اختلف فيها تبعا لاختلافهم في "نكاحا" على أنها اسم لما ينكح به فلا حذف في الآية أو أن فيها حذف تقديره طول نكاح

أو قدرة نكاح أو استطاعة نكاح أو ما شابه ذلك.

فأصحاب الرأي الأول يرون أن الغنى هو غنى المال لا غير ، أما أصحاب الرأي الثاني ، يرون أن الغنى كل ما يحقق الاستعفاف ويبعد عن الحرام كأن "يجد امرأة ترضى باليسير من الصداق أو تزول عنه شهوة النساء" [2]

وهذا المعنى وجه من الوجوه الذي تفيده الآية .ذكر ذلك الماوردي فقال :"يغنيهم الله بقلة الرغبة فيه " [3]والضمير يعود على النكاح ، ويعضده قوله ﷺ : **" يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنْ اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ "** [4]

خص رسول الله ﷺ الشباب بالخطاب لأنهم مظنة النكاح ولوجود قوة الداعي فيهم أكثر من الشيوخ ، ففي هذه المرحلة تبلغ قوة الغريزة مداها ،سنة الله في خلقه.

---

[1] – الرازي ، " مفاتيح الغيب " ، ج23 ص216

[2] – القرطبي ، " الجامع لأحكام القرآن " ، ج12 ص243

[3] – الماوردي ، " النكت والعيون "،ج4 ص99

[4] –الحديث وراه البخاري في صحيحه في باب: من لم يستطع الباءة فليصم ، ج3 ص355

إن آية النور جاءت في أعقاب آية يدعوا فيها المولى عز وجل عباده إلى ما يعصم من الفتنة من غض للبصر وحفظ للفرج ثم بالنكاح الذي فيه حفظ للدين والعرض ، فالمنهج قائم على ثنائية تقوية باعث الدين ، وإضعاف باعث الشهوة .للوصول بمجتمع يأمن فيه الناس على دينهم وأعراضهم .

لذا فالأمر يتطلب بذل الوسع والاجتهاد في مغالبة النفس الأمارة بالسوء بالاستعفاف ، والصوم لإضعاف باعث الشهوة . ففعل" استعفف " هو الأنسب للمقام من "تعفف" فزيادة في اللفظ أو المبنى يقابله زيادة في المعنى ، فيكون القدر الزائد على مجرد الكف عن الحرام هو الوسع والطاقة في مغالبة النفس ، وقد يكون: الصبر على نكاح الأمة حتى يحصل له الطول لنكاح حرة ، لأن آية النور هذه

وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ

جاءت مطلقة ولها علاقة بآية النساء التي هي أخص[1] منها وهي :

قوله تعالى : وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ "[2]

وسيأتي بيانها في المبحث الموالي .

[1] -ينظر :ابن كثير ، " تفسير القرآن العظيم " ،ج 6 ص51

[2] - النساء : 25

دراسة الآية الرابعة :

قال تعالى :" وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ "(1)

القواعد : جمع قاعد بدون هاء التأنيث لأنه وصف خاص بالمؤنث - لعدم جدوى التفريق بين المذكر والمؤنث - امرأة قاعد : إذا قعدت عن المحيض ،وعن الولد ، وهي أيضا الكبيرة في السن ، وهذه كلها معان محتملة للفظ القعود .وقعدت النخلة إذا حملت سنة و لم تحمل أخرى (2) ، قال الخليل الفراهيدي: "وامرأةٌ قاعدٌ ، وتُجمَعُ قواعدَ وهُنَّ اللَّواتي قَعدْن عنِ الولدِ فلا يرْجون نكاحًا " (3)

وهذا يعني ضمنيا القعود عن الحيض لأنه لازم له . والقعود عن الحيض ومنه عن الولد إنما يكون لكبر السن " وسُمِّين بذلك لأنه بعد الكبر يكثر منهن القعود "(4)

وأما التَّبَرُّج :" إظهار المرأَة زينتَها ومحاسنَها للرجال " أو: هو إظهار الزينة وما يُستدعى به شهوة الرجل ":(5) ، وتتمثل الرخصة في وضع المرأة القاعد ثيابها .

---

1 - النور: 58

2 - ينظر ابن منظور ، " لسان العرب" ، مادة : ق ع د ، ج41 ص3689

3 - الفراهيدي ، "كتاب العين " ، ج3ص410

4 - الماوردي ،" النكت والعيون "،ج4 ص121

5 - ابن منظور ،" لسان العرب" ، مادة : ب ر ج ، ج2 ص211

وتعود الصورة البيانية في قوله تعالى " مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ نفي الشيء بالإيجاب " أو ما يُعرف ب" عكس الظاهر "كما يسميه البعض[1]وقد سبقت الإشارة إليه أي القواعد من النساء اللاتي لا زينة لهن فيتبرجن بها " وكأن الغرض من ذلك أن هؤلاء استعفافهن عن وضع الثياب خير لهن، فما ظنك بذوات الزينة من الثياب ؟ وأبلغ ما في ذلك أن جعل وضع الثياب في حق القواعد من الاستعفاف إيذانا بأن وضع الثياب لا مدخل له في العفة هذا في القواعد فكيف بالكواعب "[2]

إن الآية الكريمة إذ ترفع الحرج على القواعد من النساء في الوضع من ثيابهن الخارجية ، غير قاصدات بهذا الوضع التبرج وإظهار الزينة ، إنما تُكرس المنهج الوقائي الذي يحول دون وقوع الفتنة ، ومتى أمنت الفتنة ، وقلّت فُرص الإثارة، جاء الترخيص في التكاليف متماشيا مع ضعف النفس وطبيعتها . " فإن الشريعة ما جعلت في حكم مشقة لضرورة إلا رفعت تلك المشقة بزوال الضرورة وهذا معنى الرخصة "[3]، كما أنها تركت الباب مفتوحا لأصحاب الهمم العالية الذين يسعون نحو الأفضلية والخيرية متسامين فقال الله تعالى" **وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ** "

فسمى الله تعالى إيثار المرأة القاعد البقاء بلباسها الشرعي ، وتركها لما أبيح لها من وضع الثياب استعفافا ، من باب إتباع الأفضل .قال الزمخشري : " لما ذكر الجائز عقبه بالمستحب. بعثا منه عن اختيار أفضل الأعمال وأحسنها "[4]

ويتأكد مرة أخرى ، أن العفة تجاوزت حدود المباح والجائز ، طلبا لما هو خير وأفضل.

---

[1] – منهم : ابن الأثير في "المثل السائر "

[2] - محي الدين الدرويش ، "إعراب القرآن وبيانه" ج18 ص317

[3] – الطاهر بن عاشور ،" تفسير التحرير و التنوير "، ج18ص297

[4] –الزمخشري " الكشاف " ،ج4 ص322

المبحث الثاني : الآيات التي تناولت العفة دون ذكر المصطلح

قال تعالى : " وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۚ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ "[1]

استقراء أقوال العلماء في الآية يكشف لنا ، أنهم وإن اختلفوا في معنى الطول فإنهم مُجمعون على أن المراد بالمحصنات في الآية الحرائر.قَالَ أَبُو بَكْرٍ الجصاص:" لَا خِلَافَ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْمُحْصَنَاتِ هَهُنَا الْحَرَائِرُ"[2]

واختلف العلماء في معنى الطول في الآية الكريمة وترتب على هذا الاختلاف ،اختلافهم في الأحكام والمسائل الفقهية منها :

نكاح الأمة هل هو عزيمة حكمها حكم نكاح الحرة أم رخصة أباحها الله تعالى عند عدم القدرة على نكاح الحرة ؟ ذكر الطبري أن أهل التأويل من السلف اختلفوا في معنى "الطول" إلى قولين :

أولهما :أنه الفضل والمال والسعة السلف في ذلك عن ابن عباس ومجاهد وقتادة وسعيد بن جبير والسدي وابن زيد وهو مذهب الشافعي ومالك: ثم

---

[1] – النساء : 25

[2] – الجصاص ، "أحكام القرآن " ، ج 4 ص304

قال مجاهد :الطول الغنى ، وقال ابن عباس وقتادة وسعيد بن جبير والسدي : الطول السعة وهو ما ذهب إليه صاحب المدونة حيث قال : "وَالطَّوْلُ عِنْدَنَا الْمَالُ ، فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ الطَّوْلَ وَخَشِيَ الْعَنَتَ فَقَدْ أَرْخَصَ اللَّهُ لَهُ فِي نِكَاحِ الْأَمَةِ الْمُؤْمِنَةِ ." [1].

فيكون معنى الآية : من لم يقدر لقلة ماله وسعته أن ينكح حرة ، فله أن ينكح أمة مؤمنة إذا خشي على نفسه العنت . وعليه فنكاح الأمة لا يباح إلا بشرطين : عدم الطول إلى الحرة وخشية العنت

ثانيهما : الطول : الهوى ، ثم عرض أقوال السلف في ذلك .

فيكون المعنى من أحب أمة وهويها لدرجة أنه لا يستطيع الصبر عليها ، وخشي على نفسه العنت ، فإن له أن يتزوجها ، وإن كان ذو سعة في المال لنكاح حرة . روي" عن جابر: أنه سئل عن الحرِّ يتزوج الأمة، فقال: إن كان ذا طول فلا. قيل: إن وقع حبّ الأمة في نفسه ؟ قال: إن خشي العَنَت فليتزوجها." [2]

ورجح الطبري القول الأول فقال : "وأولى القولين في ذلك بالصواب، قولُ من قال: معنى"الطَّوْل" في هذا الموضع، السعة والغنى من المال" [3]مستندا إلى : إجماع الجميع على أن الله تعالى لا يحرم حراما ثم يُحله لأجل غلبة الهوى أو لقضاء لذة وإنما يُحله لضرورة يخاف معها المضطر على هلاك نفسه كأكل الميتة عند الضرورة بالقدر الذي يحفظ حياته وليس الأمر كذلك

---

1 – الإمام مالك بن أنس(ت 179هـ) ، " المدونة الكبرى " ط1 ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، ت ط 1994م ، ج2 ص137

2 – الطبري ،" جامع البيان عن تأويل آي القرآن " ، ج 8 ص184

3 – الطبري ،"نفس المرجع والصفحة

وأوصل الماوردي الاختلاف في معنى الطول إلى ثلاثة أقوال : فزاد عما سبق قولا ثالثا لمعنى الطول انفرد به أبو حنيفة وخالف به قول الجمهور فقال : الطول : أن تكون تحته حرة

فيكون المعنى أن نكاح الأمة مباح لمن ليست تحته حرة ، فإن كانت تحته حرة لم يجز له أن ينكح أمة وإن خشي العنت. رُوِيَ عَنْ أَبِي يُوسُفَ أَنَّهُ تَأَوَّلَ قَوْله تَعَالَى :" **وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا** " عَلَى عَدَمِ الْحُرَّةِ فِي مِلْكِهِ وَأَنَّ وُجُودَ الطَّوْلِ هُوَ كَوْنُ الْحُرَّةِ تَحْتَهُ

ورجحه الجصاص في كتابه أحكام القرآن فقال : " وَهَذَا تَأْوِيلٌ سَائِغٌ ؛ لِأَنَّ مَنْ لَيْسَ عِنْدَهُ حُرَّةٌ فَهُوَ غَيْرُ مُسْتَطِيعٍ لِلطَّوْلِ إلَيْهَا ؛ إذْ لَا يَصِلُ إلَيْهَا وَلَا يَقْدِرُ عَلَى وَطْئِهَا ، فَكَانَ وُجُودُ الطَّوْلِ عِنْدَهُ هُوَ مِلْكُ وَطْءِ الْحُرَّةِ . "[1]

وقال السرخسي:" الْحُرَّ إذَا لَمْ يَكُنْ تَحْتَهُ حُرَّةٌ ، وَلَكِنَّهُ قَادِرٌ عَلَى طَوْلِ الْحُرَّةِ عِنْدَنَا لَهُ أَنْ يَتَزَوَّجَ الْأَمَةَ وَالْأَوْلَى أَنْ لَا يَفْعَلَهُ "[2]

الطول في اللغة :

استقراء المعاجم اللغوية في مادة " ط و ل" يُظهر أن لفظ "الطول " لا يخرج عن معنى الفضل والسعة والقدرة ، بل نكاد تُجمع على ذلك [3] ونلخصها فيما يلي. الطول : القدرة : عند الخليل و الصاحب بن عباد

الطول :الفضل والغنى والسعة :عند ابن فارس وابن دريد والأزهري والزمخشري

---

1 – الجصاص ، " أحكام القرآن " ، ج4 ص315

2 – السرخسي ، " المبسوط في شرح الكافي " ، ج 6ص 302

3 – ينظر : الفراهيدي ، "كتاب العين " ، ج 3ص67 ، أحمد بن فارس ، " معجم مقاييس اللغة " ، ج3 ص433 ، ابن دريد ، " جمهرة اللغة " ، ج2 ص20 ، الأزهري ، " تهذيب اللغة " ، ج4 ص420 ، الصاحب بن عباد " المحيط في اللغة " ، ج2ص329 ، الزمخشري ، " أساس البلاغة " ج1 ص619 ، ابن منظور ،" لسان العرب " ،ج31ص2725 ، الفيروز آبادي ، " القاموس المحيط " ، باب : اللام فصل: الطاء ، ج4 ص9

وجمع المعاني كلها ابن منظور في" لسان العرب " وتبعه في ذلك الفيروزابادي في" القاموس المحيط" و لم يثبت في المعاجم اللغوية أن العرب استعملوا الطول بمعنى الهوى ولا بمعنى كون الحرة في عصمته.

"الطَّوْلَ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ الْغِنَى وَكَثْرَةُ الْمَالِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ يُرِيدُ أُولِي الْغِنَى وَلَا نَعْلَمُ اسْمَ الطَّوْلِ يَقَعُ عَلَى الْحُرَّةِ بِوَجْهٍ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ كَمَا لَا يَقَعُ عَلَيْهَا اسْمُ الْغِنَى وَالْيَسَارِ"[1]

والحقيقة أنه : من يُفترض أنهم أصحاب القول الثاني - الطول : الهوى - وكذا أصحاب القول الثالث -وجود حرة تحته - لم ينكروا المعنى الأصلي للطول في كلام العرب الذي هو القدرة والغنى والسعة - وهذا ما يستنبط من أقوالهم - وإنما تأولوها [2]في هذا الموضع من الآية . لذا فالقول على أن الطول جاء على معان ثلاث فيه تجوز[3]

فقالوا : الطول يحتمل الغنى والقدرة ويحتمل الفضل واستدلوا إلى ذلك بقوله تعالى : " شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِ "[4]

ويكاد المفسرون على اختلاف مدارسهم يجمعون على معنى الطول[1] في هذه الآية على أنه الغنى والمال والسعة. وقال أبو عبيدة:" الطول: السَّعَة والفضل، تقول للرجل: مالك علي فضلٌ ولا طَوْلٌ." [2]

---

[1]- الباجي (ت494 هـ) أبو الوليد سليمان ، "المنتقي شرح موطأ مالك " تحقيق :محمد عبد القادر أحمد عطا ، ط1 ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، ت ط1999 م ، ج3 ص205

[2] - التأويل: صرف الآية عن معناه الظاهر إلى معنى يحتمله، إذا كان المحتمل الذي يراه موافقاً بالكتاب والسنة ، الجرجاني ، " التعريفات" ، ص52

[3] - تجوز : من المجاز وهو: " اسم لما أريد به غير ما وضع له لمناسبة بينهما "- ا الجرجاني ، " التعريفات " ، ص214

[4] - غافر :3

ورود لفظ "الطول" في القرآن الكريم :

ورد لفظ "الطول " في القرآن الكريم بهذه الصيغة مرتين[3]

أولاها :في قوله تعالى :"وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٧﴾ " [4]

وأخراها : في قوله تعالى :"حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ " [5]

السياق الذي جاء فيه نص الآيتين ، واستقراء أقوال المفسرين في كليهما يظهران أن معنى" الطول" جاء موافقا للاستعمال اللغوي القدرة والفضل والسعة واستبعاد معنى الهوى ومعنى امتلاك حرة أو تحته حرة [6]

والعنت : الجهد والمشقة ، وقد ورد خمس مرات في القرآن الكريم ، ثلاث منها بصيغة "عِنتُّم " ومرة بصيغة "أعْنتكُم " ومرة بصيغة المصدر "العَنَت"[7] جاءت جميعها بمعنى المشقة في التزام الدين ومجانبة الوقوع في الفاحشة.

---

[1] -منهم : الماوردي ، " النكت والعيون "،ج1 ص473 ، الزمخشري ، " الكشاف " ، ج 2 ص58، ابن كثير ، " تفسير القرآن العظيم " ،ج2 ص260 ، أبو السعود ، " إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم " ، ج 2 ص166 ، سيد قطب ، "في ظلال القرآن " ،ج 2 ص91 الطاهر بن عاشور ،" تفسير التحرير و التنوير " ،ج 5 ص12

[2] -أبو عبيدة (ت210 هـ) معمر بن المثنى التيمي " مجاز القرآن " ، عارضه بأصوله وعلق عليه : محمد فؤاد سركني ، مكتبة الخانجي القاهرة مصر، ت ط 1954م ، ج1ص123

[3] - محمد فؤاد عبد الباقي ، " لمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم " ، ص 432

[4] - التوبة : 87

[5] - غافر : 1 / 3

[6] - ينظر : الطبري ،" جامع البيان عن تأويل آي القرآن " ، ابن كثير ، " تفسير القرآن العظيم " ، الطبرسي ، " مجمع البيان في تفسير القرآن" المجلد الثاني ص85/84 والزمخشري ، " الكشاف " ، أبو السعود ، " إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم " ج2ص166 ، الطاهر بن عاشور، " تفسير التحرير و التنوير "، ج5 ص12

[7] - محمد فؤاد عبد الباقي ، " لمعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم " ، ص 489

عنتم (آل عمران : 118 ، التوبة : 129 ، الحجرات : 7) ، أعنتكم : (البقرة: 218) ، العنت :(النساء :25)

فإذا كانت ظروف المسلم تحول بينه وبين الزواج من حرة تحصنها الحرية وتصونها العفة عقبات وعقبات فقد رخص له في الزواج من غير الحرة ، إذا هو لم يصبر وخشي المشقة أو الفتنة إلى أن ييسر الله عليه وتتهيأ له الظروف لنكاح حرة قال تعالى " وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ (1)

وإن جاءت آية النور[2] مطلقة فبالتأكيد لها علاقة بآية النساء هذه التي هي أخص منها وهي قوله تعالى :" وَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ مِنكُمۡ طَوۡلًا أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ (3)

فالآية الكريمة صريحة في الترخيص في نكاح الأمة عند عدم الطول لنكاح الحرة وخشية العنت مع قله الصبر في انتظار ما وعد الله المتعففين بالغنى من فضله لنكاح حرة .وهذا يشعر بأن نكاح الأمة إنما هو رخصة[4] أبيح لظروف خاصة ومؤقتة ،وليست حالة عادية طبيعية بديلة عن نكاح الحرة الذي هو عزيمة[5] بدليل قوله تعالى "حتى " التي تفيد "انتهاء الغاية." [6] جاءت بمعنى "إلى" وقوله "وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ " وفيه تفضيل الصبر على نكاح الأمة .

---

1 – الطلاق :2 / 3

2 – قوله تعالى : " وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ " النور: 31

3 – النساء : 25

4 – الرخصة : اسم لما شرع متعلقا بالعوارض ، الجرجاني ، " التعريفات " ، ص36

5 – العزيمة : اسم لما هو أصل المشروعات غير متعلق بالعوارض ، " التعريفات " ، ص48

6 – ينظر : أحمد ابن فارس ، " الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها " ، ص122 ، والمرادي ، " الجنى الداني في حروف المعاني " ج1 ص92

والسؤال الذي يستوقفنا : **لم كان الصبر أفضل من نكاح الأمة مع إباحته عند عدم طول الحرة وخشية العنت ؟**

إن الاعتبارات والأعراف التي ميَّزت الواقع الاجتماعي ، كلها أمور وملابسات[1] تعين على بيان أحكام هذه الآية وفي هذا الشأن يقول سيد قطب :

"الحرة تحصنها الحرية ؛ وتعلمها كيف تحفظ عرضها ، وكيف تصون حرمة زوجها "ويضيف: "فالحرة ذات أسرة وبيت وسمعة ولها من يكفيها ، وهي تخشى العار ، وفي نفسها أنفة وفي ضميرها عزة ، فهي تأبى السفاح والانحدار . ولا شيء من هذا كله لغير الحرة . ومن ثم فهي ليست محصنة ، وحتى إذا تزوجت ، فإن رواسب من عهد الرق تبقى في نفسها ، فلا يكون لها الصون والعفة والعزة التي للحرة . فضلاً على أنه ليس لها شرف عائلي تخشى تلويثه . . مضافاً إلى هذا كله أن نسلها من زوجها كان المجتمع ينظر إليهم نظرة أدنى من أولاد الحرائر . فتعلق بهم هجنة الرق في صورة من الصور" [2]

" فَإِنَّ الْبِغَاءَ إِنَّمَا كَانَ عَلَى عَهْدِهِمْ فِي الْإِمَاءِ دُونَ الْحَرَائِرِ وَلِهَذَا قَالَتْ هِنْدُ : وَقْتَ الْبَيْعَةِ " أَوْ تَزْنِي الْحُرَّةُ ؟ " [3]وبحكم تلك الملابسات فللحرة من دواعي العفة ما ليس للأمة فهي أقرب إلى الاتصاف بالعفة منها إلى الأمة ، وعندها ندرك أن الوصول إلى إيجاد مجتمع يتحلى أفراده بالعفة ، هو الغاية والمقصد الكامن وراء الأحكام والنصوص.

ويعضده ما ذهب إليه المفسرون في قوله تعالى :" وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ "

---

[1] - الالتباس من "لبس " اللام والباء والسين أصل واحد صحيح يدل على مخالطة ومداخلة " مقاييس اللغة – مادة : ل ب س ، ج 5ص230

[2] - سيد قطب ، "في ظلال القرآن " ، ج2 ص91

[3] -ابن قيم الجوزية ، " زاد المعاد "، ج5 ص686

قال الطبري: "القول في تأويل قوله : وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ يعني جل ثناؤه بذلك:"وأنْ تصبروا"، أيها الناس، عن نكاح الإماء "خير لكم" [1] وقال الرازي: " الأولى تركه - أي نكاح الإماء مع توفر شروطه - لما بيّنا من المفاسد الحاصلة في هذا النكاح " [2] ، وقال الماوردي:"(وَأَن تَصْبِرُواْ) في محل الرفع على الابتداء ، أي وصبركم عن نكاح الإماء متعففين (خَيْرٌ لَّكُمْ) "[3] وقال مثله كل من: الزمخشري والبيضاوي وابن الجوزي و أبو السعود [4]" وقال الطاهر بن عاشور:"وقوله : (وأن تصبروا خير لكم) أي إذا استطعتم الصبر مع المشقّة إلى أن يتيسّر له نكاح الحرّة فذلك خير ، لئلا يوقع أبناءه في ذلّ العبودية المكروهة للشارع لولا الضرورة ، ولئلا يوقع نفسه في مذلّة تصرّف الناس في زوجه "[5] و قال سيد قطب: "ثم تنتهي الآية ببيان أن الزواج من الإماء رخصة لمن يخشى المشقة أو الفتنة . فمن استطاع الصبر - في غير مشقة ولا فتنة - فهو خير . لما أسلفناه من الملابسات التي تحيط بالزواج من الإماء " [6]

وبعد هذه الجولة في ثنايا كتب التفسير والتي تبرز وحدة معانيها وإن اختلفت في ألفاظها ومبانيها نخلص إلى القول : أنه إذا ربطنا آية النور والتي جاءت مطلقة ،بآية النساء التي هي أخص منها ،تبين لنا بأن الاستعفاف تجاوز مجرد الكف عن الحرام - بارتكاب فاحشة الزنا - إلى ترك المباح الذي لا يجمل بالمرء فعله وهو

---

[1] -الطبري ،" جامع البيان عن تأويل آي القرآن " ،ج 8 ص207

[2] - الرازي ، " مفاتيح الغيب " ، ج 5 ص170

[3] - الماوردي ، " النكت والعيون "، ج 1 ص 289 ، الزمخشري ، " الكشاف " ،ج 1ص 399

[4] - ينظر : الزمخشري ، " الكشاف " ،ج 1ص 399 ، والبيضاوي ، " أنوار التنزيل وأسرار التأويل " ،ج 1 ص 446 ، و ابن الجوزي ، جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد ،" زاد المسير في علم التفسير " ط3 ، دار الكتاب الإسلامي بيروت لبنان ، ت ط 1984 م ، ج 2 ص 15

[5] - الطاهر بن عاشور، " تفسير التحرير و التنوير "، ج3 ص388

[6] - سيد قطب ، "في ظلال القرآن " ، ج 2 ص94

نكاح الأمة ، فضلا عن تحمل مشقة الصبر في مغالبة النفس ، في غريزة هي من أقوى الغرائز ، مع قدرته على سلوك الطريق السهل على النفس و الموافق لهواه. ليتأكد مرة أخرى القدر الزائد في بيان حقيقة العفة حتى يكاد يكون الأمر مطردا في الآيات جميعها .

العفة في الآية الكريمة تكمن في الصبر عن نكاح الأمة المستوفية للشروط المذكورة عند العجز عن نكاح الحرة مع العنت طلبا لما هو خير وأفضل .

إن الصبر عن الشهوة المحرمة عند القدرة على تلبيتها مع وجود الداعي إليها يُعد عفة ، فكيف بالصبر عن الشهوة المباحة .

فتكون العفة بهذا مستوفية لشروطها وأركانها : داعي الشهوة إلى النكاح حاضر وبقوة نكاح الأمة خشية العنت مباح...فالعفة تقتضي ترك المباح والصبر عليه ابتغاء مرضاة الله تعالى .

ملاحظة :

الوقوف على حقيقة العفة كما جاءت في القرآن الكريم ، جعلنا نسجل تحفظا على بعض الآيات التي أوردها أصحاب المعاجم الموضوعية للقرآن الكريم على أن موضوعها العفة ، فإن دلت على العفة والله أعلم – فإن دلالتها عليها تجوزا بالقياس إلى حقيقة العفة كما جاءت في القرآن الكريم .بحيث لم نلمس فيها القدر الزائد على مجرد الكف عن الحرام الذي لمسناه في الآيات الأربع التي تناولت العفة بذكر المصطلح ، وبالمقابل ، فإن هناك آيات دلالتها على العفة واضحة لفظا ومعنى ومع ذلك لم تذكر في هذه المعاجم في موضوع العفة.

على سبيل المثال : في "المعجم الموضوعي لآيات القرآن الكريم " ل عبد الرؤوف عصر في باب موسوم : **العفة والإحصان** [1]

أورد اثنا عشر نصا قرآنيا من عشر سور وهي على النحو التالي :

1- قوله تعالى : " وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا ... غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ النساء :25

2-قوله تعالى : " ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ... ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾ " المائدة:6

3-قوله تعالى :" قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ " مريم: 19

4-قوله تعالى :"وَٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ... " الأنبياء :91

5-قوله تعالى :" وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ... هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ المؤمنون: 7/5

6-قوله تعالى :" قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ .. تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾ " النور 31/30

7-قوله تعالى : "وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا ... غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾" النور :33

8-فوله تعالى :" و وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ... سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٨﴾ " النور:60

9-قوله تعالى :" وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ... يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ "الفرقان :67

10-قوله تعالى :"إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ .. وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ " الأحزاب :35

11-قوله تعالى:" وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِيٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا . مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾ التحريم :12

12-قوله تعالى :" وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ ... هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ المعارج :21

جمع المؤلف موضوعي العفة والإحصان في باب واحد ، لما بينهما من التقارب الكبير في المعنى من جهة ، ومن جهة أخرى أن لفظ "الإحصان" من

[1] - صبحي عبد الرؤوف عصر ، " المعجم الموضوعي لآيات القرآن الكريم " دار الفضيلة للنشر والتوزيع القاهرة مصر ، ت ط1999م ، ص402/399

المشترك اللفظي[1] جاء في الآيات السالفة بمعنى العفة[2] غير أن ذلك لا يمنع من تسجيل بعض الملاحظات :

أولا :لست أدري كيف أغفل المؤلف نصين صريحين من صميم موضوع العفة وهما : آية البقرة قوله تعالى : " يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ "[3] وآية النساء قوله تعالى: " وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ "[4]

ثانيا : إذا استثنينا النصوص الأربعة التي أوردت المصطلح (البقرة: 272 ، النساء:6 ، النور:33 ، النور:60) والآية الأولى آية النساء. يلاحظ ما يلي :

آية المائدة : فيها بيان لما أحله الله تعالى من نكاح المحصنات أي العفائف من المؤمنات و نكاح المحصنات من نساء أهل الكتاب وهن العفائف من اليهوديات والنصرانيات و أن العفة مقصد شرعي في تشريع النكاح يجب مراعاته ، ولا يضر بعد ذلك إن كانت المرأة مؤمنة أم كتابية .

فهل كل من امتثل إلى أمر الله تعالى ووافق مقاصد الشريعة الإسلامية في الزواج باختيار المرأة العفيفة عفيف بالمعنى ؟ ثم أين الدافع ؟ وأين الإثارة ؟ الذي يستوجب وجود قوة ضابطة تكبح جماح النفس حتى يمكن الحديث عن حصول العفة من عدمها ؟

---

[1] - المشترك اللفظي: " المشترك :ما وضع لمعنى كثير ، كالعين، لاشتراكه بين المعاني، ومعنى الكثرة ما يقابل الوحدة لا ما يقابل القلة، فيدخل فيه المشترك بين المعنيين فقط، كالقرء، والشفق، فيكون مشتركاً بالنسبة إلى الجميع، ومجملاً بالنسبة إلى كل واحد" الجرجاني ، " التعريفات " ، ص229

[2] - ينظر : السيوطي ، "الاتقان في علوم القرآن " ، ج1 ص 165

[3] - البقرة : 272

[4] - النساء : 6

وفي آيتي مريم والأنبياء تزكية من الله عز وجل -وهو يعلم الظاهر والباطن- لمريم عليها السلام رمز العفة والطهر في تحصين فرجها .

وفي سورتي المؤمنون والمعارج بيان لصفات المؤمنين من حفظ الفرج وصرف شهوة الفرج فيما أحل الله من نكاح الزوجات أو ملك اليمين إن وجدت فالعفة في الآية حاضرة من وجه الامتناع عن الحرام والاستغناء بالحلال عن الحرام فهي عفة موافقة لمن حصرها في الكف عما لا يحل دون القدر الزائد أي- الكف عما لا يجمل-

وعليه الآيات القرآنية التي نراها أقرب إلى حقيقة العفة كما جاءت في القرآن الكريم وإن لم تورد المصطلح هي :قوله تعالى: "وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾

البقرة :235

وقوله تعالى :" وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسُرَةٍ ۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ "

البقرة: 280

وقوله تعالى : " وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾

النور: 22

وقوله تعالى : " لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾

آل عمران: 186

وقوله تعالى : " وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾

النحل:126

وقوله تعالى :" وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾

فصلت: 34

وقوله تعالى : " وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ "

الشورى 38/37

قوله تعالى : " وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴿١٣١﴾ لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣٢﴾ "

طه: 130/129

قوله تعالى : "الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾" آل عمران: 134

ففي أولى البقرة العفة تكمن في تنازل المطلق طلاقا رجعيا قبل الدخول في التنازل عن حقه في نصف المهر وهو قدر زائد

وفي أخرى آية البقرة تكمن العفة في تنازل الدائن عن حقه والتصدق به للمدين المعسر اتباعا للأفضل.

وفي آية النور التي نزلت في حق أبي بكر الصديق -رضي الله عنه – عندما حلف على أن لا ينفق على مسطح بن أثاثة – رضي الله عنه – لخوضه في الإفك فنزلت الآية تنهى أبو بكر وغيره[1] عن الإيلاء عن فعل الخير ابتغاء رضا الله تعالى ورجاء مغفرته فعاد أبو بكر يُنفق على مُسطح وقال : والله لا أقطعها عنه أبدا .

وفي آية آل عمران تكمن في صبر المرء على الابتلاء ومغالبة النفس وهي تمس في مالها وكرامتها من خلال إيذاء أهل الكتاب والمشركين فس سبيل مرضاة الله تعالى .

وفي آية النحل تكمن في التنازل عن حق المرء بالدفاع عن نفسه بمقابلة العدوان بالعدوان وإيثار الصبر على ذلك

وفي آية فصلت تكمن في مقابلة الإساءة بالإحسان واعتبار من بيننا وبينه عداوة ولي حميم ، والأمر يتطلب مغالبة النفس .

[1] العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب

وفي آية الشورى تمكن : في تفضيل العفو عند المقدرة على الانتصار للنفس بعد ظلمها رغم أن ذلك من حق المرء المشروع لقوله تعالى: " **فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ** "

وفي آية طه إيثار الحياة الآخرة على الدنيا ومتاعها وعدم التطلع إلى ذلك بل والزهد فيها .

وفي أخرى آل عمران تكمن إنفاق المال على حبه في جميع أحوال حال اليسر والعسر، وكظم الغيظ وحبسه ، والعفو عمن صدر منه ظلم ،لبلوغ درجة المحسنين روى عقبة بن عامر - رضي الله عنه - أن رسول اللهﷺ قال له :" **يَا عُقْبَةُ صِلْ مَنْ قَطَعَكَ وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ وَأَعْرِضْ عَمَّنْ ظَلَمَكَ** " (1)

وعليه تكون لآيات السالفة الذكر- والله أعلم - الأكثر دلالة على العفة لاشتراكها في القدر الزائد الذي هو تجاوز الكف عن الحرام إلى الكف عن المباح طلبا لمعالي الأمور ،والارتقاء بالنفس إلى لتتحلى بالأخلاق الفاضلة التي تعد العفة من أبرزها .

(1) الحديث : رواه الإمام أحمد في مسنده باب : حَدِيثُ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ الْجُهَنِيِّ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قال التِّرْمِذِيُّ : هذا حديثٌ حسنٌ.

الفصل الرابع

يوسف عليه السلام

المثل الأعلى للعفة

الفصل الرابع : يوسف عليه السلام المثل الأعلى للعفة

قسم العلماء الصبر إلى مجالات ، فإن كان صبرا على شهوات النفس سمي عفة ، وأعتى الشهوات وأشدها حِدَّةً على النفس ، شهوة الفرج ، حتى أن بعضهم صرف العفة عند إطلاقها - دون تقيدها بالإضافة - إلى شهوة الفرج . فمن كان عفيفا عنها فهو لغيرها أعفُّ.

وقد أشار القرآن الكريم في محكم تنزيله ، إلى شهوة الفرج من خلال قضية المراودة في قصة يوسف عليه السلام ." وخير من يمثل هذا النوع من الصبر في القرآن يوسف الصديق عليه السلام الذي راودته امرأة العزيز عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك قال معاذ الله " [1]

المبحث الأول : عفة عن شهوة الفرج

المطلب الأول : حقيقة المراودة

ورد فعل المراودة بصيغه المختلفة تسع مرات[2] في القرآن الكريم ، سبع منها في سورة يوسف عليه السلام .

في قوله تعالى : " وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ " (3)

وفي قوله تعالى :" قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى " (4)

---

1 – د/ يوسف القرضاوي ، " الصبر في القرآن " ، ط3 ، مكتبة وهبة القاهرة مصر، ت ط 1989م ، ص 38

2 – محمد فؤاد عبد الباقي، " المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم " ص328

3 – يوسف : 23

4 – يوسف: 26

وفي قوله تعالى :" وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ " (1)

وفي قولـــــــه تعـــــــالى :" قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ " (2)

وفي قوله تعالى : " قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ (3)

وفي قوله تعالى : "قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾(4)

وف في قوله تعالى : "وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ " (5)

المراودة على وزن مفاعلة نحو المداينة والمكاتبة والمطالبة والمداواة وغيرهـــا مما يكون من أحد الجانبين الفعل ومن الآخر سببه(6).

1 – يوسف : 30
2 – يوسف : 32
3 – يوسف : 51
4 – يوسف : 61
5 – القمر: 37
6 – الألوسي ، "روح المعاني " ، ج12ص210

فالفعل كان من امرأة العزيز والسبب كان من يوسف عليه السلام ماثلا في جماله ، وحسن صورته بدليل قوله تعالى :" قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا "[1]

وقوله أيضا : " فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ " [2]

والمراودة من الرَّود " ويُقال رادَ ، يَرودُ ، إذا جاءَ وذهبَ و لم يطمئِنَّ " [3] تماما مثلما تفعل الأنعام بحثا عن الماء والكلأ والمترل.

ويبدو أن المقصود من نفي الاطمئنان نفي السكون ، فالمراودُ في حركة مستمرة غير مكترث ولا مبال ، بغية الوصول إلى غرضه ومُبتغاه ، ومنه سميت المرأة الطوافة في بيوت جاراتها ، ولا تثبت في بيتها بامرأة رادة [4]

قال ابن فارس: "رود" الراء والواو والدال معظم بابه يدل على مجيء وذهاب من انطلاق في جهة واحدة .تقول راودته على أن يفعل كذا إذا أردته على فعله ، والرادة السهلة من الرياح لأنها ترود لا تهب بشدة...أرودت في السير إروادا ومُرودا . ويقال ومَرودا أيضا .وذلك من الرفق في السير"[5]

يرى علماء اللغة أن المراودة ليست إلا الإرادة والطلب، تقول :راودت فلان إذا أردته أن يفعل كذا أو طلبت منه أن يفعل كذا وكذا.

---

1 – يوسف: 31

2 – يوسف: 31

3 – الفراهيدي ، "كتاب العين " ، ج2 ص161، ابن منظور ، " لسان العرب " ، ج3 ص187 ، الزبيدي ، " تاج العروس " ، ج1ص177

4 - ينظر: الفراهيدي ، نفس المرجع ، نفس الصفحة

5 – أحمد ابن فارس ، " معجم مقاييس اللغة " ، ج2 ص457 / 458

قال الخليل الفراهيدي " والإرادة أصلها الواو، ألا ترى أنك تقول: راوَدْتُه أي أردْتُه على أن يفعَلَ كذا، وتقول: راوَدَ فلانٌ جاريتَه عن نفسها، وراوَدَته هي عن نفسه إذا حاوَل كلٌّ منهما من صاحبه الوَطْءَ والجماعَ، ومنه قول الله جلَّ وعزَّ : " تُراوِدُ فَتاها عن نفسه " ، فجَعَل الفعل لها." [1]

غير أن بعض العلماء يرون أن المراودَةَ طلبٌ برفق ولين ،وهذا قدر زائد على مجرد الطلب والإرادة ،فلا ريب في ذلك إذا علمنا أن :

الرُّود : المرأة الناعمة الجسد . والرَّود : الريح اللينة الهبوب .والرُّؤد من الأغصان: ما نبت في سنته أرطب وألين ما يكون .وفلان يمشي رويدا أي برفق . وما جاء في الحديث أن النبي ﷺ **راود عمه أبا طالب على الإسلام** [2]

ونلمس في كل ما سبق حضور معنى الرفق واللين في عمل المراودة ، ويؤيده ما ذهب إليه القرطبي فقال: " أصل المراودة الإرادة والطلب برفق ولين"[3]

فالمراودة لفظ يحمل في طياته بلا شك ، معنى التكرار والمعاودة إلى جانب اللين واللطف في الطلب ،و المخادعة كما ذهب إليه البعض[4].

كل ذلك يوحي بقوة الفتنة والإغراء التي تعرض لها يوسف عليه السلام من امرأة العزيز . لا شك أنها من أشد أنواع الفتن والابتلاء في نظر الكثير من العلماء لأن المراود يحرص على الوصول إلى غايته بأية وسيلة كانت.

---

1 – الفراهيدي ، " كتاب العين " ،ج2 ص161 الأزهري ، في " تهذيب اللغة " ج 4ص472 و الزبيدي ، في " تاج العروس " ، ج1ص2001

2 – ابن منظور ، " لسان العرب " ،ج 3 ص187

3 – القرطبي ، " الجامع لأحكام القرآن " ، ج9 ص163

4 – قال الفيومي : " وكأن في المراودة معنى المخادعة لأن الطالب يتلطف في طلبه تلطف المخادع ويحرص حرصه " "المصباح المنير في غريب الشرح الكبير " ، ج4 ص10

هذا هو أصل استعمال لفظ" المراودة " ثم شاع استعماله فيما يريده الرجل من المرأة وما تريده المرأة من الرجل من الوطء والجماع.

فقال أبو منصور الثعالبي:"المراودة :طلب النكاح" [1] ، وقال الزركشي : قوله تعالى : "(وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ) كناية عما تطلب المرأة من الرجل ." [2]وقال الخليل الفراهيدي: "والإرادة أصلها الواو ألا ترى أنك تقول راودنه أي أردته أن يفعل كذا وتقول :راود فلان جاريته عن نفسها ، وراودته هي عن نفسه إذا حاول كل منهما من صاحبه الوطءَ والجماعَ "[3]

وهذا المعنى هو محل اتفاق بين المفسرين على اختلاف مناهجهم ومدارسهم وإن اختلفت ألفاظهم وصيغهم .

عبر عنها كل من الطبري والقرطبي والبيضاوي بالمواقعة قال الطبري :" وراودته امرأة العزيز وهي التي كان يوسف في بيتها (يوسفَ) عن نفسه أن يواقعها "[4] وقال القرطبي: "قوله تعالى: (وراودته التي هو في بيتها عنه نفسه) وهي امرأة العزيز، طلبت منه أن يواقعها." [5] ، وقال البيضاوي"{ وَرَاوَدَتْهُ التي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِ } طلبت منه وتمحلت أن يواقعها"[6] وعبر عنها الماوردي بالدعوة إلى النفس فقال: "فراودته امرأة العزيز عن نفسه استدعاء له إلى نفسها" [7]

1– الثعالبي ، " فقه اللغة وسر العربية " ، ج 1 ص40

2 – الزركشي ، " البرهان في علوم القرآن " ، ج 2ص304 ، السيوطي ، "الاتقان في علوم القرآن " ، ج1 ص219

3 – الفراهيدي ، " كتاب العين " ، ج2 ص161 ،ونفس العبارة ذكرها ابن منظور ، " لسان العرب " مادة :رود ، ص 1774 والزبيدي ، في" تاج العروس " ، ج1ص177

4 – الطبري ،" جامع البيان عن تأويل آي القرآن " ، ج 16 ص24

5 – القرطبي ، " الجامع لأحكام القرآن " ،–ج9 ص162

6 – البيضاوي ، " أنوار التنزيل وأسرار التأويل " ، ج3 ص141

7 – الماوردي ، " النكت والعيون "،ج3 ص22

ويستوقفنا هنا لفظ " حاول " فيما ذكره الفراهيدي في حد المراودة وتبعه في ذلك غيره ، حيث آثر استعمال لفظ المحاولة على الطلب ذلك أن المحاولة طلب الشيء بالحيلة[1] فالحيلة هي الأخرى حاضرة في معنى المراودة بل جعلها بعضهم مرادفة لها

قال الطاهر بن عاشور:" والمراودة : محاولة رضَى الكَاره شيئاً بقبول ماكرهه "[2] وهو نفسه حدُّ الحيلة كما سبق .

ولا شك أن الإغراء والإثارة هي وسائل وأساليب هذا التحول - من كره شيء إلى محبته - وفي هذا الشأن يقول سيد قطب: "فلا بد كانت هناك إغراءات شتى خفيفة لطيفة ، قبل هذه المفاجأة الغليظة العنيفة ." [3]

ويبدو أن انتقال امرأة العزيز في طلبها من التلميح إلى التصريح ، ومن الستر إلى السفور كانت ضرورة فرضت نفسها . وكان في مقدورها الاستغناء عن ذلك ، فيما لو استجاب يوسف عليه السلام لمغرياتها ووقع في شراكها .وبهذا تكون المرأة قد استفرغت جهدها وطاقتها ، واستنفذت وسائلها التي كانت تُراهن عليها دون جدوى.

إن فعل المراودة ،بشكل من الأشكال ضرب على أوتار النفس البشرية لرصد مكمن الضعف فيها.

أ- اللطف والليونة في الطلب : والنفس بطبيعتها ميالة وقريبة الاستجابة لهذا الأسلوب. فلا ريب فهو أسلوب الدعوة إلى الله تعالى .

1- الحيلة :اسم من الاحتيال، وهي التي تحول المرء عما يكرهه إلى ما يحبه.الجرجاني ، " التعريفات " ، ص100
ينظر : الثعالبي ، " فقه اللغة وسر العربية "ج1 ص40 ، وأبو هلال العسكري ، " الفروق اللغوية " ، ص484

2 – الطاهر بن عاشور ،" تفسير التحرير و التنوير "، تفسير: ج27 ص206

3 – سيد قطب ، "في ظلال القرآن " ، ج4 ص300

قال سبحانه وتعالى :" ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ "(1)

ب- التكرار والمعاودة للفعل :وما يقرره الفعل في النفس ويرسخه فيها فالأمر إذا تكرر تقرر.

ج- استخدام الحيلة في الطلب : وما تحمله هذا الأسلوب من الإثارة والإغراء مع ضعف النفس البشرية حيالها ، فضلا عن طبيعة حبها للشهوات كما سبق ذكره .

كل ذلك يجعلنا نخلص إلى القول : أن يوسف عليه السلام واجه فتنة كان ركن الإثارة فيها قد بلغ مداه .

1 - النحل : 125

المطلب الثاني : حقيقة الهم

ورد فعل "الهم "في القرآن الكريم تسع مرّات[1] نوردها مرتبة حسب نزولها وهي على النحو التالي :

قال تعالى :" وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ (2)

وفي قوله تعالى : " وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ " (3)

وفي قوله تعالى : " إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ "(4)

وفي قوله تعالى:" ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ " (5)

وفي قوله تعالى: " وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ " (6)

---

[1] – محمد فؤاد عبد الباقي ، " المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم " ، ص738

[2] – يوسف : 24

[3] – غافر: 4

[4] – آل عمران : 122

[5] – آل عمران : 154

[6] – النساء : 113

وفي قوله تعالى : " يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ " (1)

وفي قوله تعالى : " أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّواْ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ (2)

وفي قولـــــــــه تعالى : " يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ " (3)

ففي آية غافر "وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ" لاشك أن الهـــم في الآية العزم والإصرار على الأخذ للرسول ، الذي هو الإهلاك والأسر والحـــبس للقتل فترتب على ذلك عقاب من الله تعالى.

وفي آية آل عمران " إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّـــهُ وَلِيُّهُمَـــا" فالظاهر أن الهم مجرد حديث النفس عند الهلع" ثم يردها الثبات والصبر ويوطنها على احتمال المكروه "(4) ولو صار الهم هنا عزيمة وإصرارا على الخذلان والتولي لما استحق هؤلاء نصرة الله وولاءه لهم .

---

1 – المائدة : 11

2 – التوبة :13

3 –التوبة : 75

4 – ينظر :الزمخشري ، " الكشاف " ، ج1 ص319

فالمقام مقام مدح ، بدليل ما جاء في صحيح البخاري عن جابر رضي الله عنه- قال : " **فينا نزلت " إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا" قال : نحن الطائفتان بنو حارثة وبنو سلمة وما نحب أنها لم تنزل لقول الله عز وجل " وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا "**[1]

وفي آية النساء ، ورد الهم بمعنى العزم والإصرار والتصميم على إلحاق التهمة باليهودي وتبرئة طعمة ، وليس مجرد حديث نفس.

وفي آية المائدة "إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ " نزلت في قوم من اليهود يستعينهم في دية ، فهموا بقتله ، فالهم هنا مرة أخرى هم عزم وتصميم و لم يكن خاطرة ولا حديث نفس.

وقل مثل ذلك في أولى هم آية التوبة : " وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ" نزلت في كفار مكة هموا بإخراج الرسول ﷺ من مكة. فلا شك أن الهم هم عزم وتصميم.

وما يقال عن أُولى هم آية التوبة يقال عن أُخراها "يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا " التي نزلت في المنافقين.

تتبع معنى الهم في القرآن الكريم ، يهدي إلى أن أكثر وروده بمعنى العزم والتصميم ، دون إقصاء احتمال وروده بمعنى حديث النفس ،وإن كان وحيدا ، مما يوحي أن الأصل في معنى الهم العزم والإصرار، وقد ينصرف إلى معنى آخر نحو حديث النفس أو طبيعة الشهوة أو المقاربة أو غيرها لقرينة . نحو قول الشاعر :

---

1 – الحديث : رواه مسلم في صحيحه عن جابر بن عبد الله "رضي الله عنه" باب فضائل الأنصار ، ج12 ص 308

أَقُولُ لمسْعود بجَرْعاء مالك *** وَقَدْ هَم دَمْعي أَن تَسُح أَوَائلُه[1]

فالدَّمع لا يجوز عليها العزم ، وإنما أراد أنه كاد أو قارب [2] ، فلا يستقيم المعنى عند حمل الهم على العزم والتصميم والإصرار. فهل القرينة موجودة لصرف همّ يوسف عليه السلام إلى غير العزم والتصميم في حال افتراض حصوله ؟

لا شك أن أنبياء الله ورسله هم صفوة الخلق ، وبالاقتداء والتأسي بهم ، والسير على نهجهم ،أمر الله عز وجل عباده المؤمنين في الكثير من النصوص القرآنية .ومن كان كذلك كيف يجوز عليه العزم على المعصية ؟

قال تعالى: " إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ "[3] تزكية من الله تعالى الذي يعلم ظاهره وباطنه بأنه من الذين أخلصوا دينهم لله وقال أيضا :

قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ "[4]

لا شك أن يوسف عليه السلام داخل في طائلة هذا الاستثناء فلا يملك الشيطان غوايته لأنه من عباد الله المخلصين. وفي قوله تعالى:" وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ "[5] واستعصم طلب العصمة [6]فتأبى عليها في أن

---

[1] – البيت لذي الرمة " ديوان ذي الرمة " ، ط1 ، دار المعرفة بيروت لبنان ، ت ط 2006 م ، ص209

وذو الرمة: شاعر، من فحول الطبقة الثانية في عصره.قال أبو عمرو بن العلاء: فتح الشعر بامرئ القيس وختم بذي الرمة. وكان شديد القصر، دميما، يضرب لونه إلى السواد. أكثر شعره تشبيب وبكاء أطلال، يذهب في ذلك مذهب الجاهليين. وكان مقيما بالبادية، يحضر إلى اليمامة والبصرة كثيرا . الزركلي "الأعلام " ج5 ص124

[2] – ينظر : د/ محمد ماضي ، " سياحة إيمانية في سورة يوسف "، ، ط1 ، دار المجتمع للنشر والتوزيع –1993م ، ص42

[3] – يوسف : 24

[4] – ص: 82/81

[5] – يوسف : 32

[6] – العِصمة : ملكة اجتناب المعاصي مع التمكن منها. الجرجاني ، " التعريفات " ، ص 156

يجيبها إلى طلبها فيوسف عليه السلام لما قُدِّر له أن يُفتن ،آثر أن يُفتن في دنياه على أن يُفتن في دينه.

قال تعالى :"قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ "[1]

يوسف عليه السلام لما قُدر أن يُفتن ، آثر أن يُفتن في دنياه على أن يفتن في دينه .

من القراءة الأولية في تتبع معنى لفظ "الهمّ " في المعاجم اللغوية يهدي إلى أن هناك تباين في تحديده ، وتراوح بين : مجرد حديث النفس وخطور الشيء بالبال إلى العزم والتصميم والإرادة ، وخلص البعض إلى القول أنه يأتي على وجوه مختلفة يختلف معناه باختلاف سياق النص ، فهو إذن من المشترك اللفظي .

فالهم مرادف للنية والإرادة والعزم عند ابن منظور حيث قال "وهَمَّ بالشيءَ يهمُّ هَمّاً: نواه وأَرادَه وعزَم عليه"[2] ، وهو مرادف للعزم أو حديث النفس عند ابن دريد قال: "هَم بالشيء يَهُمُّ هَماً، إذا عزم عليه أو حَدث به نفسَه"[3] ، وهو مرادف للإرادة ،وهَمَمْتُ بالشيء أهُمُّ هَمًّا، إذا أردته.

والذي يتبادر إلى الذهن أن الهم فعل نفساني-يتعلق بما يجري داخل النفس - يسبق القيام بالفعل سواء تعلق الأمر بالخاطر أو العزم أو التصميم

ومنه قول جميل :

هممت بهمٍّ من بثينة لو بدا *** شفيت غليلات الهوى من فؤاديا[4]

جامعة وهران
المكتبة الجامعية المركزية

1 – يوسف :33

2 – ابن منظور،" لسان العرب " ، مادة : همم ، ص 4703

3 – ابن دريد ، " جمهرة اللغة " ، ج 1ص61

4 – البيت لجميل بن معمر استدل به الماوردي ،" النكت والعيون "،ج3ص24 و القرطبي ، " الجامع لأحكام القرآن " ، ج9 ص166

امتنع شفاء الغليل لامتناع ظهور الهم [1]

لا شك أن المرء يخطر بباله خاطرة ، أو ترد عليه فكرة أو تحدثه نفسه بفعل شيء ما خيرا كان أو شرا ، فقد يتوقف الأمر عند هذا الحد. أو يتعدى إلى العزم والتصميم والإصرار على الفعل. فيكون ذلك آخر أحوال الفعل النفسي قبل الشروع في العمل.

ولعل فعل الهم يصدق عليها جميعا والسياق وحده كفيل بتحديد المعنى .

يقول ابن تيمية (ت728هـ) : "الهم اسم جنس تحته نوعان كما قال الإمام أحمد الهم همان هم خطرات وهم إصرار"[2]

وظهر أثر المعنى التوسعي لمادة همم جليا في كتب التفسير وبصوره خاصة في تفسير قوله تعالى : "وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا "

وإذا كان جمهور المفسرين على اختلاف اتجاهاتهم ومناهجهم لم يترددوا في القول في طبيعة هم امرأة العزيز على أنه هم عزم وإصرار طلبا للمواقعة ، لوجود القرائن التي لابست الأحداث ، فقد اختلفوا في طبيعة همّ يوسف عليه السلام وذهبوا فيه مذاهب شتى .

مسألة اتفاق الهمين أو اختلافهما ضلت من المسائل التي لم تنضج و لم تحترق ، وقد وقف عندها المفسرون وقفة طويلة ، وهذا التطويل[3]،كان إما للاستدلال[4]إلى ما ذهبوا أو إبطال ما ذهب إليه غيرهم ممن خالفهم .

---

[1] – لَوْ : تدل على امتناع الشيء لامتناع غيره– أحمد ابن فارس ، " الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها " ، ص40

[2] – ابن تيمية (ت 728هـ) أحمد بن عبد الحليم ، "دقائق التفسير" ، تحقيق :د/محمد السيد الجليند ، ط2 ، مؤسسة علوم القرآن دمشق سوريا ، ت ط1984 م ، المجلد الثاني ج 3 ص 272

[3] – التطويل : هو أن يزاد اللفظ على أصل المراد، وقيل: هو الزائد على أصل المراد بلا فائدة . الجرجاني ، " التعريفات "،ص 19

[4] – الاستدلال : هو تقرير الدليل لإثبات المدلول الجرجاني ، المرجع السابق ، ص20

ونستطيع من خلال قراءاتنا لبعض كتب التفسير في المسألة ،تصنيف الآراء إلى ثلاث مذاهب :

الرأي الأول : ذهب إلى أن همه عليه السلام كان من جنس همها ، كان عزم إصرار وتصميم وفسروا همه بحل الهميان السراويل ، وجلوسه بين رجليها مجلس الرجل من امرأته ،أو مجلس الخاتن كما جاء في الآثار وأنه لولا أن الله تعالى عصمه لفعل، بمعنى أن العناية الإلهية تدخلت بالبرهان الذي أراه الله إياه في قوله تعالى :" لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ" فحال ذلك دون ارتكابه للفاحشة ، واستجابته لدعوة امرأة العزيز له إلى نفسها.

قال ابن الجوزي(ت597هـ) :" وإلى هذا المعنى ذهب الحسن وسعيد ابن جبير والضحاك والسدي وهو قول عامة المفسرين المتقدمين ، واختاره من المتأخرين جماعة منهم : ابن جرير وابن الأنباري ، وقال ابن قتيبة :" لا يجوز في اللغة هممت بفلان وهم بي وأنت تريد اختلاف الهمين" [1]

أورد الطبري في تفسيره عددا غير قليل من الروايات[2]المأثورة عن السلف في مجملها تفيد : تأويل هم يوسف عليه السلام بالذي ذكرناه

ولعل إيراد الطبري هذا العدد الكبير من الروايات وهو أمر ملفت للنظر-خصوصا أن جميعها تؤكد نفس المعنى - لبيان أن المسألة مجمع عليها من قبل علماء السلف لكثرة طرق الأحاديث الموقوفة[3]

---

1 – ابن الجوزي "زاد المسير " ، ج3 ص415

2 – أحصيت هذه الروايات ، فإذا هي سبع عشرة رواية معظمها عن ابن عباس رضي الله عنه

3 – الموقوف من الحديث: ما روي عن الصحابة من أحوالهم وأقوالهم، فيتوقف عليهم ولا يتجاوز به إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم. الجرجاني ، " التعريفات " ، ص79

عقب الماوردي (ت450هـ) وهو يعرض هذا الوجه من تأويل هم يوسف عليه السلام بقوله : "وهو قول جمهور المفسرين "[1]

واضح أن هذا الرأي يقوم أساسا على المأثور من أقوال علماء السلف من الصحابة والتابعين ، غير أن المتأخرين ممن اختاروا هذا الرأي وذهبوا إليه ، دافعوا عنه وبشدة ...ليس فقط من خلال إيجاد مبرِّرات تأويل علماء السلف في مسألة هم يوسف عليه السلام فحسب ،بل وبالرد على من خالفهم الرأي ومحاولة إبطال حججهم.

تركزت أساسا في حسن الظن بهم ، وأن قصدهم من ذلك قصدا شريفا وأن الله عز وجل أجرى على أنبياءه المعصية وابتلاهم بها لحكمة عظيمة

وقال أبو عبيد القاسم بن سلَّام: وابنُ عباس ومنْ دونَه لا يختلفون في أنه همَّ بها، وهُمْ أعلمُ بالله وبتأويل كتابه، وأشَدُّ تعظيماً للأنبياءِ من أن يتكلَّموا فيهم بغير عِلم." [2]

1- أن ابتلاء الله عز وجل أنبياءه ورسله بالخطيئة ليجدوا ويجتهد في العبادة والطاعة الله إشفاقا مما ارتكبوه ، ورجاء عفوه ورحمته

ولعلهم أرادوا القول كما قال ابن عطاء الله: " مَعْصِيَةٌ أَورَثَتْ ذُلاً وافْتِقاراً خَيرٌ مِنْ طاعَةٍ أَوْرَثَتْ عِزّاً وَاسْتِكْباراً. "[3]

2- أن الله تعالى ابتلاهم بذلك ، لكي لا ييأسوا من التوبة ومن عفوه إذا تابوا ، ويجعلهم أئمة لأهل الذنوب .

---

[1] – الماوردي ، " النكت والعيون " ، ج2 ص152

[2] – القرطبي ، " الجامع لأحكام القرآن " ، ج11 ص313

[3] – ابن عطاء الله السكندري (ت 709هـ) ، " الحكم العطائية " ، تحقيق : أنس الزفتاوي ،ط 1 ،مجموعة زاد الاقتصادية القاهرة مصر ، ت ط 2004م ، حكمة رقم :97

3- أن الله تعالى إنما ابتلاهم بذلك، لتعريفهم بنعمه عليهم ، وصفحه عنهم [1]

الرأي الثاني : اختلاف الهمَّين وفيه قسمان :

أ- حمل الهم على العزم والإصرار مع اختلاف متعلق الهم . ب- حمله على العزم والإصرار بالنسبة لامرأة العزيز وحمله على مجرد حديث النفس بالنسبة ليوسف عليه السلام ،

ب- فأما القسم الأول فأنهم حملوا الهمَّ على معنى العزم والتصميم ، وعليه فلا مناص من تأويل همه عليه السلام تأويلا يليق به.

فقيل هم يوسف بضربها وبدفعها عن نفسه **وقيل** :" أنها همت به أن يفترشها وهم بها ، أي : تمناها أن تكون له زوجة ، رواه الضحاك عن ابن عباس"[2]

وقيل أنه هم بالفرار منها حكاه الثعلبي و لم يقدموا أصحاب هذا الرأي أي دليل على ما ذهبوا إليه غير أنهم رأوا أن لا مناص من تأويل همه عليه السلام بما يحقق عصمة الأنبياء من الصغائر والكبائر وفي هذا يقول الشوكاني : " ولما كان الأنبياء معصومين عن الهمّ بالمعصية والقصد إليها شطح أهل العلم في تفسير هذه الآية بما فيه نوع تكلف"[3]

وأما القسم الثاني يري أن امرأة العزيز ترقت في همها فهمت به هم عزم وتصميم للمواقعة متجاوزة عتبة الهم الابتدائي الذي هم مجرد حديث النفس

---

[1] – في مصدر هذه الأقوال :ينظر : الطبري ،" جامع البيان عن تأويل آي القرآن " ج16 ص33 .أوردها دون إحالة أو على غير عادته واكتفى بالقول : "وقال بعضهم " وجاء ذلك في معرض الإجابة عن تساؤل طرحه : فإن قال قائل :وكيف جوز أن يوصف يوسف بمثل هذا وهو لله نبي ؟

[2] – ابن الجوزي "زاد المسير " ، ج4 ص205

[3] – الشوكاني ، محمد بن علي بن محمد ، " فتح القدير الجامع بين فن الرواية والدراية في علم التفسير " مطبعة مصطفى بابي الحلبي وأولاده مصر ، ت ط 1930م ، ج4ص19

بينما لم يكن همه عليه السلام غير حديث النفس أو هم شهوة سرعان ما تلاشي برؤية البرهان

قال ثعلب[1]:" همت زليخا بالمعصية وكانت مصرّة ، وهمّ يوسف ولم يوقع ما همّ به ، فبين الهمين فرق"[2]

ويبدو أن الزمخشري خلص إلى هذا الرأي - اختلاف الهمين- عند تفسيره للآية في نهاية المطاف .غيرأن مقدمة كلامه في بادئ الأمر توحي بأنه يميل إلى اتحاد الهمين ، لكن سرعان ما يتبدد هذا الرأي ، قال الزمخشري : "همّ بالأمر إذا قصده وعزم عليه ... وقوله : وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ معناه . ولقد همت بمخالطته وَهَمَّ بِهَا وهمّ بمخالطتها لَوْلا أَن رأى بُرْهَانَ رَبِّهِ جوابه محذوف ، تقديره : لولا أن رأى برهان ربه لخالطها ، فحذف؛ لأنّ قوله: وَهَمَّ بِهَا يدل عليه ، كقولك : هممت بقتله لولا أني خفت الله ، معناه لولا أني خفت الله (لقتلته). فإن قلت : كيف جاز على نبيّ الله أن يكون منه هم بالمعصية وقصدٌ إليها؟ "[3]

فبعد الحديث عن العزم والقصد ، يتغير الأمر ليصبح الحديث عن منازعة الشهوة والميل إلى المخالطة عن شبه القصد ، ومحل الشاهد في مذهبه إلى اختلاف الهمين قوله :" ولو كان همه كهمها عن عزيمة ، لما مدحه الله بأنه من عباده المخلصين"

---

1 – أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار الشيباني بالولاء، أبو العباس، المعروف بثعلب(ت291هـ): إمام الكوفيين في النحو واللغة. كان راوية للشعر، محدثا، مشهورا بالحفظ وصدق اللهجة، ثقة حجة. ولد ومات في بغداد. من مصنفاته : (معاني القرآن)، (إعراب القرآن) ،(كتاب القراءات) الرزركلي "الأعلام " ج1ص261

2 – الشوكاني ، "فتح القدير "، ج4 ص19

3 – الزمخشري ، " الكشاف " ، ج3ص159

الرأي الثالث : انتفاء الهم البتة ، سواء أكان هم عزم وإصرار أم كان هم حديث النفس عن يوسف عليه السلام دليلهم في ذلك أن في الآية تقديم وتأخير بمعنى أن جواب لولا مقدم عليها والتقدير وهمت به ولولا أن رأى برهان ربه لهم-أي لخالطها- بها ومعنى هذا أن يوسف عليه السلام لم يصدر منه هم البتة وعليه فالوقف عند قوله تعالى "ولقد همت به" ثم استئناف "وهم بها لولا أن رأى برهان ربه"

"قال أبو حاتم : كنت أقرأ غريب القرآن على أبي عبيدة[1] فلما أتيت على قوله : ولقد همّت به وهمّ بها الآية قال أبو عبيدة : هذا على التقديم والتأخير ، أي تقديم الجواب وتأخير الشرط ، كأنه قال : ولقد همّت به ولولا أن رأى برهان ربه لَهَمّ بها"[2] .

فكان البرهان عاصما له من الهم وفي هذا الرأي تتريه يوسف عليه السلام عن الصغائر والكبائر على اعتبار أنه ليس فقط لتأبى عن الوقوع في الفاحشة بل عن الهم والإصرار أيضا

ذهب إلى هذا الرأي الفخر الرازي اعتبره وجها مقبولا في تفسير همه عليه السلام إلى جانب الوجه الآخر الذي فيه تأويل همه بالشهوة

قال: "المقام الأول : أن نقول لا نسلم أن يوسف عليه السلام هم بها . والدليل عليه : أنه قال تعالى : (وَهَمَّ بِهَا لَوْلا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ) وجـــواب (لَوْلاَ) هاهنا مقدم "[3] ، وتبعه في ذلك الطاهر بن عاشور الذي يرى :

---

[1] – أبو عبيدة معمر بن المثنى التميمي (ت 210 ه)، من أئمة العلم بالأدب واللغة. مولده ووفاته في البصرة. استقدمه هارون الرشيد إلى بغداد سنة 188 ه وقرأ عليه أشياء من كتبه. قال الجاحظ: لم يكن في الارض أعلم بجميع العلوم منه. الرزركلي "الأعلام " ج7ص272

[2] – الشيخ الطاهر بن عاشور، " تفسير التحرير و التنوير "،ج12 ص253

[3] – الرازي ، " مفاتيح الغيب" ، ج 18ص120

أن في الآية تقديم جواب لولا عليها ليخلص إلى القول : "وبذلك يظهر أن يوسف عليه السّلام لم يخالطه همّ بامرأة العزيز لأن الله عصمه من الهمّ بالمعصية بما أراه من البرهان"[1].

وبعد هذه الجولة في ثنايا كتب التفسير واستعراض مجمل الآراء التي قيلت في همه عليه السلام ، بقي لنا استقراء الآيات السالفة التي ورد فيها لفظ "الهم" لنستخلص منها الدلالة الشرعية أو الاصطلاحية للفظ بشكل عام وفي الآية بشكل خاص فالقرآن يفسر بعضه بعضا ثم نقف عند الآية وقفة لغوية بيانية

الدراسة اللغوية والبيانية لقوله تعالى : "وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ"

لا شك أن علوم القرآن بجميع فنونه يخدم بعضه بعضا .فالوقف باعتباره فنا من الفنون التي لابست القرآن الكريم كان له أثره في تحديد وبيان المعنى .

نقرأ للزركشي في باب معرفة الوقف والابتداء قوله :" وهو فن جليل وبه يعرف كيف أداء القرآن ويترتب على ذلك فوائد كثيرة واستنباطات غزيرة وبه تتبين معاني الآيات ويؤمن الاحتراز عن الوقوع في المشكلات"[2]

فكان الوقف على قوله تعالى :" وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ" معينا ومستندا لبعض العلماء في بيان استقلالية هم امرأة العزيز عن هم يوسف عليه السلام غير أن البعض الآخر كان الابتداء من المعنى موصلا لهم إلى تحديد مواضع الوقف لذا نجدهم يقولون : وعلى هذا يحسن الوقف عند كذا وكذا .وبالمقابل عندما نقرأ للسيوطي تفي سياق حديثه عن الوقف قوله :" وأما احتياجه[3] إلى

---

[1] – الطاهر بن عاشور ،" تفسير التحرير و التنوير " ، ج 12 ص253

[2] – الزركشي ، " البرهان في علوم القرآن " ، ج 1 ص342

[3] – الضمير يعود على الوقف

المعنى فضرورة، لأن معرفة مقاطع الكلام إنما تكون بعد معرفة معنـــاه"[1] ندرك جليا أن الوقوف على معنى الآية ضرورة بل وأنه أصل في معرفة مقـــاطع الكلام –الوقف والابتداء- وعليه فمثل هذه النصوص تبين أن فنـــون القـــرآن متداخلة متقاطعة .

الحقيقة أن الوقف على قوله تعالى :" وَلَقَدْ هَمَّتْ بِـــهِ" إذا ثبـــت ، لا يؤخذ كمقياس لبيان معنى الآية بل تحديد الوقف متعلق بالمعنى فـــالمعنى يحكـــم الوقف وليس العكس وهو ما لمسناه من كلام المحققين.

قال زكريا الأنصاري: "ولقد همت به كاف[2]"[3]وقال في مقدمة حديثـــه عـــن مراتب في الوقف : "و الكافي ما يحسن لابتداء بما بعده والوقف عليه إلا أن له به تعلقا معنويا "[4]

وعليه لا نعول على الوقف في بيان معنى الآية إلا على سبيل الاستئناس .فالتعويل على الدراسة النحوية والبيانية

إن قوله تعالى : "وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ" داخل تحت القسم والواو هي واو القسم ،ففي الآية توكيد ، توكيد همها وعزمها وإصرارها وجديتها على مخالطة يوسف عليه السلام .

وحول سؤال : هل جملة "وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ" داخلة تحت القسم ؟ يرى الزمخشري أن الأمرين جائزان ،وأن من ذهب إلى أنها غير داخلة تحته حُقَّ له الوقوف عند قوله "وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ" وفي ذلك إشعار بوجود فرق بين الهمين

---

1 – السيوطي ، "الاتقان في علوم القرآن " ، ج1ص103

2– الكاف هو رتبة من مراتب الوقف إلى جانب التام والقبيح وغيره

3 – زكريا الأنصاري ، "التلخيص ما في المرشد في الوقف والابتداء " ، ج1 ص56

4 – المرجع نفسه ، في معرض حديثه عن مراتب الوقف في مقدمة الكتاب ج1ص3

على تقدير حذف جواب لولا فيصير المعنى وهم بها ولولا أن رأى برهان ربه لخالطها ، وبانتفاء الهم كلية لمن يرى أن جواب لولا محذوف والتقدير لولا أن رأى برهان ربه لهم بها .

وسواء تعلق الأمر بتقدير حذف جواب لولا أو تقديمها عليها فالمحصلة واحدة،وفي كلا المعنين تتريه ليوسف عليه السلام من سيئ الهم الذي هو معصية في حد ذاته بحكم العصمة.

فالتأويل الأول افتراق الهمين ،يقضي بأن كان همه عليه السلام مجرد حديث النفس إذ لم يرق إلى العزم والتصميم الذي هو معصية برؤية البرهان ، برهان ربه الذي حال دون ذلك على اعتبار أن الهم متعدد.

وأما التأويل الثاني يقضي بانتفاء الهم وأنه لم يحصل منه هم أصلا على اعتبار أن الهم عزم وإصرار ليس إلا .

والذي نميل إليه في هذه المسألة والله أعلم. أن حقيقة الهم هو العزم والإصرار وإنما قد يكون الهم دلالة على حديث النفس وما يخطر بالبال واعتبار ذلك هَمًّا فيه تجوز.

إن حصول الهم من عدمه ، إنما يكون نتيجة صراع يتم داخل النفس بين باعث الشهوات ،شهوات النفس و باعث الدِّين فإذا تغلب باعث الدين على باعث الشهوة انكفأ الهم.. و لم يتجاوز حدود حديث النفس وإذا تغلب باعث الشهوة على باعث الدين ترقى الهم إلى العزم والإصرار.

فالاشتراك بين الهمين إنما كان في بداية الأمر ثم ترقّى همها إلى العزم والإصرار بدليل المراودة وتغليق الأبواب وخروجها من التلميح إلى التصريح بقولها " هيت لك" عبارة تدعوه فيها إلى نفسها ، في حين نزل هم يوسف عن رتبته

بدليل قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام : "قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾"(1)

وقوله أيضا:" قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ "(2)

قال القشيري: "ما ليس بفعل الإنسان مما يعتريه- بغير اختياره ولا بِكَسْبه- كان مرفوعاً لأنه لا يدخل تحت التكليف ، فلم يكن « الهمُّ » منه ولا منها زَلَّةً ، وإنما الزَّلَّةُ من المرأة كانت من حيث عَزَمَتْ على ما هَمَّتْ ، فأمّا نفسُ الهمّ فليس مما يَكْسِبُه العبد .ويقال اشتركا في الهمِّ وأُفْرِد- يوسف عليه السلام- بإشهاده البرهان" (3)

والحقيقة أن نفي الهم كلية عن يوسف عليه السلام سواء أكان هم عزم وإصرار أم خطور الشيء بالبال - والله أعلم فيه نوع من المبالغة - التي تخرج يوسف عليه السلام عن الطبيعة البشرية التي فطر الله الناس عليها، من حيث نزوعها إلى حب الشهوات والميل الشديد إليها ،وعليه لم يُصبح لامتناعه وتأبِّيه معنًى ، وما استحق المدح والثناء لوجود عامل الإثارة الذي هو حاضر وبقوة وغياب دافع الشهوة، وعليه فالصراع بين باعث الشهوة وباعث الدين غير قائم أصلا .وفي هذا الشأن يقول الزمخشري " ولو لم يكن ذلك الميل الشديد المسمى

---

1 - يوسف : 23

2 - يوسف : 33

3 - القشيري ، " تفسير القشيري " ، ج3 ص412

هماً لشدّته ، لما كان صاحبه ممدوحاً عند الله بالامتناع؛ لأن استعظام الصبر على الابتلاء ، على حسب عظم الابتلاء وشدته" [1]

لطيفة :

يرى بعض العلماء أن هناك فرق بين المراودة عن الشيء والمراودة على الشيء فالتركيب الأول - تعدية المراودة ب"عن" -للمجاوزة والمباعدة بمعنى أن امرأة العزيز طلبت من يوسف عليه السلام أن يجعل نفسه لها أي يسلمها إرادته وحكمه في نفسه -يضع عنان نفسه في يدها - والنفس هنا كناية عن غرض المواقعة والعفاف. وأما التركيب الثاني - تعدية المراودة ب "على" -حصول الشيء ومثاله راود الرسول ﷺ عمه على الإسلام أي كان يرجو حصول اعتناق عمه أبا طالب للإسلام ." [2]

[1] -الزمخشري ، " الكشاف " ،ج3ص268

[2] - ينظر : الطاهر بن عاشور ،" تفسير التحرير و التنوير "،ج12ص250

المطلب الثالث :حقيقة البرهان

ورد لفظ البرهان في القرآن الكريم ثمان[1] مرات نوردها مرتبة حسب نزولها

في قوله تعالى :" أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ "[2]

وفي قوله تعالى : ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ "[3]

وفي قوله تعالى :

" وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ "[4]

وفي قوله تعالى :" وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ "[5]

وفي قوله تعالى : " أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ "[6]

---

1 – محمد فؤاد عبد الباقي، " المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم " ص118

2 – النمل: 66

3 – القصص : 32

4 – القصص : 75

5 – يوسف : 24

6 – الأنبياء :24

وفي قوله تعالى :" وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ " (1)

وفي قوله تعالى :" وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ (2)

وفي قوله تعالى :" يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ ".(3)

لم يرد في القرآن الكريم ولا في السنة النبوية الشريفة نص في بيان طبيعة البرهان الذي رآه يوسف عليه السلام والذي صرفه عن سيء الهم وصرف عنه السوء والفحشاء . واختلف المفسرون في ذلك

ذكر القرطبي (ت671 ه) رواية عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنها قامت إلى صنم مكلل بالدر والياقوت في زاوية البيت فسترته بثوب فقال: ما تصنعين ؟

قالت : أستحي من إلهي هذا أن يراني في هذه الصورة ، فقال يوسف : أنا أولى أن أستحي من الله "

[1] – المؤمنون : 118

[2] – البقرة : 110

[3] – النساء : 173

وعقب على ذلك القرطبي قائلا :" وهذا أحسن ما قيل فيه ، لأنّ فيه إقامة الدليل "[1] وفيه إشارة إلى أن روايات كثيرة قيلت في مسألة البرهان.

جمع الطبري في تفسيره عددا جما [2] من هذه الروايات منها :

أنه نودي يا يوسف أتزني فتكون كالطير وقع ريشه فذهب يطير فلا ريش له

ومنها : أنه رأى وجه أبيه يعقوب عليه السلام عاضًّا على أصابعه

ومنها : أنه نودي يوسف فقيل : أنت مكتوب في الأنبياء وتعمل عمل السفهاء

ومنها : أنه رفع رأسه إلى سقف البيت فإذا كتاب في حائط البيت "وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ " [3]

وبعد عرضه لكل هذه الأقوال يخلص للقول : "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: إن الله جل ثناؤه أخبر عن همِّ يوسف وامرأة العزيز كل واحد منهما بصاحبه ، لولا أن رأى يوسف برهان ربه ، وذلك آيةٌ من الله ، زجرته عن ركوب ما همَّ به يوسف من الفاحشة وجائز أن تكون تلك الآية صورة يعقوب وجائز أن تكون صورة الملك وجائز أن يكون الوعيد في الآيات التي ذكرها الله في القرآن على الزنا ولا حجة للعذر قاطعة بأيِّ ذلك كان من أيٍّ . والصواب أن يقال في ذلك ما قاله الله تبارك وتعالى ، والإيمان به ، وترك ما عدا ذلك إلى عالمه. " [4]

---

[1] – القرطبي ، " الجامع لأحكام القرآن " ، ج11 ص317

[2] – أحصيتها فإذا هي ثمان وخمسون رواية بسندها ، يلاحظ في غالبيتها تكرارا للمتن مع اختلاف السند ، هذا فضلا عن روايات لم يسندها واكتفى فيها بالقول :فيما بلغني . ينظر: الطبري ،" جامع البيان عن تأويل آي القرآن " ، ج16ص38 وما بعدها

[3] – الإسراء :32

[4] – الطبري ،" جامع البيان عن تأويل آي القرآن " ، ج16 ص49

إذا كان الطبري يرى الوقوف عما قاله الله تعالى من مسألة البرهان وترك الخوض في ذلك أولى ، مادمنا لا نملك الحجة القاطعة .

فإن الزمخشري يرى أن البرهان ليس إلا مجاهدة من يوسف عليه السلام لنفسه مجاهدة أولى العزم بالنظر في دليل التحريم ووجه قبح الفاحشة ، فلم يزِلّ ،وأنه من أجل ذلك استحق المدح والثناء[1].

[1] – ينظر : الزمخشري ، " الكشاف " ، ج 3 ص270

المبحث الثاني : عفته عن شهوة المال

قال تعالى :" قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ ۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ "[1]

قُدِّر ليوسف عليه السلام أن يُبتلى ويُمتحن بالنعمة كما امتُحن من قبل بالشدة ، امتحانا لعفته عن شهوة المال وهذا من كمال إيمانه ، فلم يتغير يوسف عليه السلام وهو على خزائن الأرض عن يوسف السجين ،ملك التصرف في المال وأي مال -خزائن الأرض- لكن المال لم يملك قلبه فيقول وبثقة نفس فيما حكاه عنه القرآن الكريم.

"ومن كان أمينا على الأعراض ،فهو أولى أن يكون أمينا على الأموال وخزائن الأرض ، وإذا كان كبار الموظفين في بلاط الملك كانوا يمرون في فترة تجريبية فحتما فإن يوسف قد كان تجاوز هذه المرحلة في عيني الملك لما كان قد حصل عليه من أوسمة الشرف والنزاهة والترفع عن الدنايا والسوء والفحشاء." [2]

وكان إذا وُضع الطعام أمامه أكل لقيمات يقيم بها صلبه دون الشبع ولما سؤل كيف لا تشبع وأنت على خزائن الأرض قال أخشى إذا شبعت أن أنسى الفقراء .وروي أن نبي الله يوسف الصديق عليه السلام، كان يكثر من الصيام تطوعاً لله عز وجل فقيل له: لِمَ تجوع وأنت على خزائن الأرض؟ فقال كلمته الحكيمة: «أخشى إنْ أنا شبعتُ أن أنسى الجائع»[3].

كان يري المسؤولية الكبرى الملقاة على عاتقه امتحانا للعفة في بعدها الآخر - عفة عن المال - غير تلك التي يراها البعض أنها مكافأة له على أمانته ،وجزاء على

---

[1] – يوسف : 55

[2] – محمد علي أبو حمدة ، "في التذوق الجمالي لسورة يوسف " ، ص84

[3] – محمد علي الصابوني ، " فقه العبادات " ، ص 50

صبره على المحن فالدنيا دار عمل وابتلاء والآخرة دار جزاء قال سيد قطب: "وإلى هنا تنتهي محنة السجن ومحنة الاتهام، وتسير الحياة بيوسف رخاء ، الاختبار فيه بالنعمة لا بالشدة." [1]

فهو لم يطلب شيئا لنفسه لما قال الله تعالى على لسان الملك :" إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ " وإنما رأي أن يستعمل الأمانة كقوة لحفظ حقوق العباد في أوقات المحن والشدائد وهي على نمط قوله تعالى على لسان ابنة شعيب:" قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾"[2]

قال الطاهر بن عاشور : "واقتراح -يوسف عليه السلام- ذلك إعداد لنفسه للقيام بمصالح الأمة على سنة أهل الفضل والكمال من ارتياح نفوسهم للعمل في المصالح"[3]

ويرى ابن كثير أن يوسف عليه السلام مدح نفسه وحُقَّ له ذلك" ويجوز للرجل ذلك إذا جُهِل أمره، للحاجة "[4]

ولفظ" الحاجة " عند ابن كثير و"المصالح " عند الطاهر بن عاشور يوحيان أن يوسف عليه السلام ، كان يبتغى من التمكين في الأرض إيصال الحقوق للعباد وإيثار المصلحة العامة على المصلحة الخاصة وهو بهذا يحقق معنى الخلافة في الأرض. إنها عفة عن شهوة المال تضاف إلى عفته عن شهوة الفرج لتكتمل الصورة ويكون نموذجا للعفة في جميع أبعادها .

---

1 – سيد قطب ، "في ظلال القرآن " ، ج4 ص315

2 – القصص : 26

3 – الطاهر بن عاشور ،" تفسير التحرير و التنوير "، ج13 ص8

4 –ابن كثير ، " تفسير القرآن العظيم " ، ص395

المبحث الثالث: عفته عن شهوة حب الجاه

قال تعالى:" ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾ " [1]

بين الله تعالى طبيعة النفس البشرية ويصفها بأنها " أمَّارة بالسوء" و أمَّارة على وزن فعّالة وهي من صيغ المبالغة ، فهي لا تأمر صاحبها بالسوء والمعصية مرة ومرتين وثلاث وتقف عند هذا الحد ، بل كثيرة الأمر حتى صار ذلك طبعها - طبيعة متأصلة فيها -فهي كارهة للتكاليف الإلهية شاقة عليها ،راغبة في النواهي لما فيها من المتعة وتلبية لنداء الغريزة وما تخلص أحد من شرِّها إلا برحمة من الله.

اختلف العلماء في نسبة هذا القول في قوله تعالى "وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي " أهو من كلام يوسف عليه السلام أم هو من تمام كلام امرأة العزيز ؟ حتى اعتبره بعضهم[2] مشكل[3]

ذهب كل من ابن جرير الطبري والزمخشري والطبرسي والبيضاوي وأبو السعود والألوسي وغيرهم أنه من كلام يوسف عليه السلام ، ولم يتردد بعضهم بالقول أن هذا الرأي عليه أكثر المفسرين .

بينما ذهب كل من ابن كثير ، وسيد قطب والطاهر بن عاشور أنه من تمام كلام امرأة العزيز.

---

[1] – يوسف : 53

[2] – إشارة إلى الفخر الرازي في تفسيره : " مفاتيح الغيب " يرى أن في نسبة القول إلى يوسف عليه السلام إشكال ، وعلى اعتبار أنه من تمام قول امرأة العزيز فيه إشكال أيضا ج 18 ص160

[3] – المشكل : هو الداخل في أشكاله أي في أمثاله وأشباهه. الجرجاني ، " التعريفات " ، ص230

وبقليل من التأمل يهدي إلى أن الخلاف يكمُن في أن بعضهم اعتبر أن الكلام موصول بعضه ببعض دون اعتراض من قوله تعالى : " وقالت امرأة العزيز...إلى قوله تعالى وما أبرئ نفسي . فكان ذلك على الحقيقة بعد الإقرار على نفسها بالمراودة ، وتبرئة ساحة يوسف عليه السلام من الافتراء وتنزيهه معبرة بلفظ "فاستعصم "الذي يفيد قوة التأبي.

فلم يحتاج أصحاب هذا المذهب إلى التأويل أو حتى البحث عن القرينة ، فالسياق عندهم كفيل بقبول هذا المذهب واستحسانه ودليهم في ذلك أن هذا الكلام قيل في مجلس الملك قبل خروج يوسف عليه السلام من السجن.

غير أن الرازي في مناقشته للمسألة يرى بأن ما يبدو مقبولا وموافقا للسياق يلحقه الإشكال فقال: "كلام لا يحسن صدوره إلا ممن احترز عن المعاصي، ثم يذكر هذا الكلام على سبيل كسر النفس، وذلك لا يليق بالمرأة التي استفرغت جهدها في المعصية." [1]

يبدو –والله أعلم– أن كلام الرازي رحمة الله عليه لا يؤخذ على إطلاقه ، فقد يقول مثل هذا الكلام وأكثر من ارتكب المعصية ،وقد استفرغ جهده طاقته فيها وقت ارتكابها عند التوبة والإنابة إلى الله تعالى لأن وقتها يرتفع عنه الإيمان قال ﷺ : " **لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرَبُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَا يَسْرِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ** ...." [2]

---

[1] – الرازي ، " مفاتيح الغيب " ، ج18ص 160

[2]– الحديث : رواه البخاري في صحيحه ، باب : إثم الزناة ، ج4 ص252 ، ج 8 ص369 ، ومسلم في صحيحه ، باب : بيان نقصان الإيمان ، ج 1 ص187

ومن ذهب إلى أنه من قول يوسف عليه السلام يرى أن في النص وقف حقيقي واعتراض ، ويرون أن قوله تعالى: «ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ» من قول يوسف عليه السلام كره نبيّ الله أن يكون قد زكّى نفسه فقال: «وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي» لأنّ تزكية النفس مذمومة ؛ لقوله تعالى:" فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ " (1)

قال الزمخشري: " ثم أراد أن يتواضع لله ويهضم نفسه، لئلا يكون لها مزكياً وبحالها في الأمانة معجباً ومفتخراً ،كما قال رسول الله ﷺ:" أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ "(2) وليبين أنّ ما فيه من الأمانة ليس به وحده، وإنما هو بتوفيق الله ولطفه، وعصمته ، فقال

(وَمَا أُبَرِّئ نَفْسِي) من الزَّلل، وما أشهد لها بالبراءة الكلية ولا أزكيها." (3)

وعلى احتمال أن يكون الكلام من يوسف عليه السلام ، يكون قد ضرب مثلا للعفة في واحد من مجالاتها إنها عفة عن حب الجاه ، فهو يغبط نفسه البشرية ويرجع صبره على البلاء والانتصار في محنة اجتمعت فيها كل عناصر القوة ، لتدخل العناية الإلهية ورحمة الله تعالى له وهو مستثنى بفضل ذلك ليس إلا.

قوله تعالى:وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ "(1)

---

1 – النجم : 31

2 – الحديث : رواه ابن ماجه في سننه ، باب :ذكر الشفاعة ، ج12 ص 366 قال الحاكم :هذا حديث صحيح الإسناد ولم يُخرجاه "المستدرك على الصحيحين " ج9 ص465

3 –الزمخشري ، " الكشاف " ، ج 3 ص 296 / 297

ومرّة أخرى تظهر عفة يوسف عليه السلام وترفعه عن الأخلاق الدَّنية من حب الانتقام والتشفي والانتصار للنفس ،حين تمكن من إخوته لأبيه أولئك الذين أرادوا أن يقتلوه ليخلو لهم وجه أبيهم. ثم ألقوه في غيابات الجب، ثم باعوه بثمن بخس دراهم وعرضوه للذل والعبودية لقد جاءوا مصر من فلسطين يطلبون المدد والزاد، وبمقدور يوسف عليه السلام الانتقام منهم، ولكنه عفا وغفر قال تعالى على لسان يوسف عليه السلام: " قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾ "[2]

المبحث الرابع : طريق اكتساب العفة

العفة باعتبارها خلقا فرديا هي أيضا مطلبا شرعيًا واجتماعيًا ،مطلب صعب في زمن والعولمة والفضائيات وشبكات الانترنت الهادفة إلى توحيد النمط الثقافي والاجتماعي بل وحتى العقائدي ، ولكنه ممكن التحقيق فالمنظومة الأخلاقية التي جاءت بها الشريعة الإسلامية مُهَّددة أكثر من أي وقت مضى.

في ظل هذه الظروف يجب أن تقوى العزيمة وتعلو الهمم ، فهي بالتأكيد لن تكون بأي حال من الأحوال أشد من ظروف محنة يوسف عليه السلام وصفها بعضهم بأنها حال تُذهب بالعقول[3] لكن باعث الدين كان الأقوى فصرع باعث الشهوة.

---

1 – يوسف : 100

2 – يوسف : 92

3 – ينظر : الزمخشري ، " الكشاف ".

لقد تمسك يوسف عليه السلام بقوارب النجاة، ويمكن لنا اعتبارها طريقا لاكتساب العفة منها :

أولا : خوف الله تعالى

قال تعالى : " قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾"[1]

خوف الله تعالى ومن عقابه ، نابع من الإيمان به وسبحانه وتعالى ويظهر جليا تداخل العقيدة بالأخلاق، فتطهير القلب من الشبهات يسبق تطهيره من الشهوات ،وبذلك تحقق سلامة القلب .

قال تعالى:" يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾"[2]

ولا ريب في ذلك فإن خوف الله يهزم اللذات ويضعف الشهوات وفي الحديث من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله:" رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله..." [3]

ثانيا : البعد عن أسباب المعصية

قال تعالى :" وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ "[4]

---

[1] – يوسف : 23

[2] – الشعراء : 89

[3] – والحديث بتمامه ((سبعة يظلهم الله في ظله ، يوم لا ظل إلا ظله : الإمام العادل ، وشاب نشأ في عبادة ربه ، ورجل قلبه معلق في المساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ، ففاضت عيناه)) رواه البخاري في صحيحه ، في باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد ، ج1ص219 ، ومسلم في صحيحه باب : فضل إخفاء الصدقة ، ج5 ص229 ورواه غيرهما

[4] – يوسف: 25

كانت الفتية هي الساعية إليه وهو الفارُّ منها .

فالابتعاد عن المثيرات - ما يثير النفس ويحرك فيها الغرائز الكامنة - ومقربات الزنا والفاحشة والخلوة، وبالمقابل التمسك بآداب غض البصر والاستئذان هو منهج وقائي يذلل الطريق الاكتساب العفة .هذا في مجال شهوة الفرج قال الشاعر:

كل الحوادث مبدأها مـــن النظر *** ومعظم النار من مستصغر الشرر

كم نظرة بلغت من قلب صاحبها *** كمبلغ السهم بين القوس والوتـــر[1]

أما في مجال شهوة المال بأن يرضى المرء بما قسمه الله له وما كتب له من رزق والاستغناء عما في أيدي الناس قال تعالى :" تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا " [2]

ثالثا : الدعاء واللجوء إلى الله تعالى

قال تعالى :" وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ " [3]

المرء ضعيف بطبعه وقد أرجأ العلماء طبيعة هذا الضعف إلى قلة الصبر الشهوات والتي تعتبر شهوة الفرج أعتاها وأشدها على الإنسان[4]

---

[1] - البيتين : من غير نسبة لم أجد لهما تخريجا في كل الكتب التي أوردت البيتين ل يكتفي أصحابها بالقول قال الشاعر قديما أو وأنشدوا شعرا ...

[2] – البقرة : 272

[3] – يوسف :ا 34/33

[4] – كما بينا ذلك في الفصل الأول في مبحث :الإنسان ضعيف بطبعه

فهو يستمد من عون الله تعالى قوته للتغلب على ضعفه ، فكان لزاما عليه أن يدعوه ويتضرع إليه قال ﷺ لابن عباس رضي الله عنه" **يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ احْفَظْ اللَّهَ يَحْفَظْكَ احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلْ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ...**" [1]

رابعا : تعظيم المعاصي وحدود الله

من قوله تعالى :" **قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ** "[2]

لقد عظم يوسف السلام المعصية واعتبرها تجرؤا على حدود الله ، وتذكر سوء عاقبتها في الآخرة حين قال كما حكاه عنه **إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ**

وآثر أن يفتن في دنياه على أن يفتن في دينه ، ولا شك أن يوسف عليه السلام استحضر عظمة الله في قلبه فكان باعثا له على قمع الشهوة ، فهان عليه السجن والتعذيب

يوسف عليه السلام بتمسكه بالعفة في جميع مجالاتها عن شهوة الفرج وشهوة المال وشهوة حب والجاه...استحق أن يكون نموذجا ومثلا أعلى للعفة في جميع أبعادها .

---

[1] – الحديث : رواه الترمذي في سننه ،ج9 ص56

[2] – يوسف : 33

الخاتـــمـــة

الخاتمة :

لقد أوصلني البحث المتواضع هذا إلى جملة من النتائج نلخصها فيما يلي :

أولا:

أن العفة في القرآن الكريم تجاوزت مجرد لكف عن الحرام إلى الكف عما لا يجمل ولا يليق بالمرء فعله مما هو مباح في حقه .

وهو ما لمسناه من استقراء الآيات القرآنية الأربع التي تناولت موضوع العفة مـــع ذكر المصطلح وهي: البقرة 272 ، النساء 6 ، النور 33 ، النور 60.

في آية البقرة: عرضت صنف من الفقراء ليسوا كالفقراء ، يشتركون معهم في العوز والحاجة ويتباينون عنهم في صفات استحقوا بها المدح والثناء لتعففهم عن المسألة ، رغم أن المسألة جائزة في حقهم إلا أنهم تجملوا و لم يظهروا الخصاصة حتى ظنـــهم الجاهل بحالهم أغنياء وهو قدر زائد استحقوا به وصفهم بالمتعففين .

فالمتعفف تجاوز درجة الكف عما به بأس إلى ما لا بأس به سعيا منـــه إلى بلوغ درجة الكمال في الأخلاق ، وتلكم هي حقيقة العفة التي حملتها لنا الآيـــة الكريمة في واحدة من مجالات العفة وهي "العفة عن شهوة المال"

وفي آية النساء : استعفاف الغني عن الأكل من مال اليتيم في قوله تعالى :" ومن كان غنيا فليستعفف "تعففا بغناه عن مال اليتيم ، تنازلا عن حقه في الاستحقاق اتباعا لما هو أفضل وترفُّعا عن الدناءات.

فالاستعفاف تجاوز مجرد الكف عن أكل مال اليتيم بغير حق إلى مـــا هـــو أفضل بالتنازل عن حقه في عمالته في مال اليتيم وقيامه عليه ، فهو امتناع مع القدرة بحكم وصايته وكفالته من جهة وعجز اليتيم في رده عن ذلك لقصره وضعفه وهنـــا

يكّمن القدر الزائد الذي من أجله سمي الفعل عفة ، وسمي من صـــار فعـــل العفة خلقا راسخا له وطبعا راسخا فيه "متعففا"

وفي أولى آية النور: الاستعفاف في الآية تجاوز مجرد الكف عن الحرام - بارتكـــاب فاحشة الزنا -إلى ترك المباح الذي لا يجمُل بالمرء فعله وهو نكاح الأمة لمن لم يستطع طول حرة، فضل تحمل مشقة الصبر في مغالبة النفس في غريزة هي من أقوى الغرائز مع قدرته على سلوك الطريق السهل على النفس والموافق لهواها وذلك ابتغاء مرضاة الله.

ويتأكد مرة أخرى القدر الزائد في بيان حقيقة العفة حتى يكاد يكون الأمر مطردا في الآيات جميعا.

وما يُقال عن أولى آية النور يُقل عن أُخراها : ترخيص للمرأة القاعـــد في وضـــع ثيابها ،فلآية الكريمة إذ ترفع الحرج على المرأة الكبيرة في السن في وضع ثيابهن غـــير قاصدات بهذا الوضع التبرج وإظهار الزينة ، فإنها في الوقت نفسه بينت أن بقاء المرأة القاعد بلباسها الشرعي خير وأفضل ، فقال الله تعالى:" وأن يستعففن خير لهـــن "فسمى الله تعالى ،إيثار المرأة القاعد البقاء بلباسها الشرعي ، وتركها لما أبيح لها من وضع الثياب استعفافا ، من باب إتباع لأفضل. ويتأكد مرة أخرى أن العفة تجاوزت حدود المباح والجائز طلبا لما هو خير وأفضل

ثانيا :

لا يوصف المرء بالعفة إلا إذا استوفى هذا الخلق شروطه وأركانه كوجود قوة الإثارة وقوة الداعي للاستجابة ،وأن يكون قصد بها مرضاة الله تعالى.

إثارة وفتنة : يستعص على المرء الصمود أمامها ومقاومتها ، فلا معنى لعفته عاكف في مسجد ، أو منعزل لا يخالط الناس ولا تعرض عليه المثيرات،أو معاق

وبالمقابل وجود الداعي : أو الدافع إلى الاستجابة للإثارة ،من الرجولة وقوة الغريزة فلا معنى لعفته من انعدام عنده الداعي ،كالعنين[1]أو الذي لا إربة لـــه في النساء أو من قتل غرائزه وشهواته حتى استوت عنده الفتنة والعافية ، المرأة والحائط فقد روي عن عامر بني عبد قيس - رحمه الله تعالى- أنه قال : ما أبالي امرأة لقيت أو حائطا .

وشكا هِشامُ بنُ عبدِالملك ما يجدُ من فقد الأنيسِ المأمون على سرِّه ، فقال : أكلتُ الحُلو والحامض حتى ما أجدُ لهما طعماً ، وأتيتُ النّساء حتّى ما أبالي امرأةً لقِيتُ أم حائطاً ، فما بَقيتْ لي لذّةٌ إلاّ وجودَ أخٍ أضعُ بَيني وبينه مؤونة التحفُّظ .[2]

وروي عن بعضهم أنه كان إذا مشي في السوق حشا أذنيه بالقطن ورمى ببصره إلى الأرض ، وألزم بعضهم نفسه الصمت بحصاة جعلها في فمه لا يخرجهـــا إلا عنـــد الأكل أو الصلاة حتى إذا لزمت نفسه الصمت ، رمى بها [3]

فعمد بعضهم إلى إضعاف باعث الشهوة ، وربما قتلها وكـــان المطلـــوب والأوْلى تهذيبها بما يحقق الغاية التي خلقت من أجلها وتقوية باعث الدِّين لمصارعتها.

في ظل هذه الظروف - الإثارة والداعي - يأتي خلق العفة النابع من باعـــث الدين والعقل في مواجهة ومصارعة باعث الشهوة فإذا انتصر باعث الـــدين والعقل على باعث الشهوة تتحقق خلق العفة بالمعنى الحقيقي للمصطلح . فكما أن المفردة في اللغة العربية لا يعرف معناها الحقيقي من المجـــازي إلا في ســـياق

---

1 – العنين : من العنة الذي ماتت شهوته تجاه النساء "والعِنِّينُ الذي لا يأتي النساء ولا يريدهن" ، ابن منظور ، " لسان العرب" ، مادة :ع ن ن ج 36 ص3140

2 – الجاحظ ،" رسائل الجاحظ" ، ص203

3 – ينظر : الترمذي ، " رياضة النفس " ، تحقيق وتعليق : أ.د أحمد عبد الحليم السايح ، أ.د أحمد عبده عوض ، ط1 ، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة ، ت ط 2002م ، ص21/20

الجملة والنص ، فكذلك المرء لا يوصف بالعفة أو بما ينافيها بمعزل عـــن الإثـــارة والدافع للاستجابة لها.

ثالثا :

العفة لها مجالات : عفة عن شهوة الفرج ، عفة عن شهوة المال،عفة عن شـــهوة حب الجاه ، عفة عن شهوة البطن ... غير أن العفة إذا أطلقت انصرفت إلى العفـــة عن شهوة الفرج

وأنها أقواها وأعتاها ، حتى يكاد يوصف بالعفة ويصدق عليه من كـــان عفيفـــا في شهوة الفرج فهو لما دونها أعف .

وذلك لمسناه من استقراء النصوص الشرعية ، وأقوال العلماء .وممن صنفوا الآيـــات القرآنية تبعا لموضوعها (أصحاب المعاجم الموضوعية)

وعليه فمن امتلك نفسه وضبطها في شهوة الفرج لا يعجزه ضبطها في غيرها من الشهوات .سواء أكانت شهوة المال أم شهوة حب الجاه أم غيرهـــا ذلـــك لان شهوة الفرج أعتى شهوات النفس وأكثرها حِدَّة فمن كان أمينا على الأعراض فـــلا شك أنه أمين على الأموال .

رابعا:

العفة تطلق على الكف عن الحرام تجوُّزا وأما حقيقتها فتلك التي جاءت بها الآيات التي أوردت المصطلح . وهو ما لمسناه من الآيات التي تناولت موضوع العفة دون ذكر المصطلح

فالآيات التي جمعها أصحاب المعاجم الموضوعية للقرآن الكريم في موضوع العفـــة متباينة وفي حدها الأدنى -مجرد الكف عن الحرام- فالعفة مرادفة لحفـــظ الفـــرج: الآيات من5إلى7 من سورة المؤمنون ،الآيتين 30 / 31 من سور النور، الآية25 مـــن

سورة الأحزاب ،الآيات من 29 إلى 31 من ســـورة المعـــارج والعفـــة مرادفـــة للإحصان: الآية 20 من سورة مريم،الآية 91 من سورة الأنبياء ، والعفـــة مرادفـــة لاجتناب الزنا: الآية 68 من سورة الفرقان

خامسا :

العفة ليست حاصلة بالفطرة وإنما بالاكتساب ، بضرب من الممارسة والقهر ، وفي ذلك اجتهاد في حمل النفس على العفة وهي ليست من طبيعتـــها ، وفيـــه إشارة إلى قابلية النفس البشرية للترويض فبالعفة الحاصلة للنفس تتغير موازين القوى فيتحول ما كان أصله القوة والغلبة – الشهوة – إلى حال الانصياع والانقياد .

سادسا :

العفة ليس مصطلحا إسلاميا ، فقد وجدناه في التراث اللساني العربي القديم من شعر ونثر تغنى به شعراء الجاهلية أمثال : عنترة بن شـــداد (ت22ق هـ) وامـــرؤ القيس (ت80هـ) في قصائدهم.

واستُعمل بمعناه اللغوي الذي هو مطلق الامتناع بغض النظر عن متعلقه نحو : الامتناع عن الغضب (امتلاك النفس وضبطها والتحلي بالحلم) [4] الامتناع عن أخذ الغنيمة عند تقسيمها (عفة عن شهوة المال) الامتناع عن انتهاك الأعراض (عفـــة عن شهوة الفرج) الامتناع والتَّأبي عن اتباع هوى النفس.

وفي قول عنترة :

فوصلت ثم قدرت ثم عففت من *** شر فتناهى بي إلى الإنضاج[5]

---

4 – قول عنترة (ت 22ق هـ) :

يـــرون احتـــمالي عفـــة فيريبهـــم *** تـــوفر حلـــمي أني لست أغضـــب

5 – عنترة "ديوان عنترة " ، ص82

إشارة إلى العفة إنما تكون بعد الوصول والقدرة والتمكين ، فصبره على أذى قومه له واحتماله لم يكن عن ضعف أو جبن بل كان عفة وحِلما ، فقد عرف بشدة بطشه واقتدراه .وعليه فلا يوصف العاجز بالعفة.

غير القرآن الكريم أسس للعفة بعدا جديدا لامتناع عما لا يليق ولا يجمل بالمرء فعله وهذا القدر الزائد هو الذي تحصل به العفة بالمعنى الحقيقي مما هو مباح طلبا للسمو والرفعة وعلو الهمة.

إن لابن سيده (ت 458هـ) في معجمه المحكم والمحيط الأعظم فضل السبق في إعطاء العفة حدها وحقيقتها عندما أضاف القدر الزائد عن الكف عن الحرام ، وهو الكف عما لا يجمل المرء فعله وهو موافق لحقيقة العفة كما جاءت في القرآن وتبنى هذا التعريف على الأرجح كل الذين جاؤوا بعده

سابعا :

منهج الإسلام في محاربة الانحراف والرذيلة هو منهج وقائي على جبهتين

- تسعى شريعته من خلاله إلى اجتثاث الشّر والرذيلة من النفس البشرية ،وغرس بذور الخير والفضيلة . من خلال الإيمان والعقيدة لتجعل المرء يُقاد من داخله - يوزَع بالقرآن قبل أن يوزَع بالسُّلطان . فيتغلب على صفاته السّلبية المركوزة في فطرته وجبليته من ضعف وحب شديد للمال والشهوات.

واستغلال صفاته الإيجابية . وهذا من عدله وفضله سبحانه وتعالى علينا.

العقيدة تقوي صلته بالله وتجعل من ضعفه قوة تتكسر عليها كل أشكال الغواية والافتتان

والتشريعات من عبادة ومعاملة تعمل عمل الحماية والصيانة ، فهي تحول دون تحريك الشهوات في النفس فضلا عن وصولها إلى القلب.

ثامنا:

نال يوسف عليه السلام الشرف في أن يكون نموذجا ومثلا أعلى للعفة في جميع أبعادها،عفة عن شهوة الفرج .. عفة عن شهوة المال ..عفة عن شهوة البطن .. عفة عن شهوة حب النفس وحب الجاه

ثنائية التوكل على الله واتخاذ الأسباب بارزة ، لقد استفرغ جهده وطاقته في الصبر والبلاء في كل محنة كانت تواجهه ،وكانت أشدها مراودة امرأة العزيز له عن نفسه. فتنة اجتمعت فيها كل عناصر القوة [6]، فضلا على أنها كانت هي[7] الساعية إليه ، وفي الوقت نفسه لم يغفل عن توكله على الله تعالى ، وأنه ما كان له أن يخرج كـــل مرة منتصرا من محنته ،لولا أن تداركته رحمة الله تعالى وعنايته له .صبر على الـــبلاء وشكر على النعم .عفة في أجلى صورها

وفي ختام هذا البحث المتواضع نسأل الله تعالى أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه ويجعله خالصا لوجهه الكريم ، إن أخطأت فمن نفسي ومن الشيطان وإن وفقـــت فمن الله وصلى الله على سيدنا محمد.

---

[6] – قوة الإثارة وقوة الدافع للاستجابة لها

[7] – الضمير يعود على الفتنة

الفهـــارس

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم (برواية ورش عن نافع)

﴿ أ ﴾

ابن الأثير ، ضياء الدين (ت 637 هـ) ، " المثل السائر في أدب الكاتب الشاعر" ، قدمه وحققه وعلق عليه :د/ أحمد الحوفي د. بدوي طبانة ، دار نهضة مصر للطبع والنشر الفجالة القاهرة

أحمد أمين (ت1954م) ، "كتاب الأخلاق " ، ط 3 ، مطبعة دار الكتب المصرية القاهرة مصر ت ط 1931 م

الإمام أحمد بن حنبل(ت 241 هـ) ،" مسند الإمام أحمد بن حنبل " شرحه ووضع فهارسه : أحمد محمد شاكر ، ط 1 ، دار الحديث للطبع والنشر والتوزيع القاهرة مصر ،ت ط1995م

الأزهري (ت370 هـ) ، " تهذيب اللغة " تحقيق : محمد علي النجار ، الدار المصرية للتأليف والترجمة

الأصفهاني ، الحسن بن محمد بن الفضل الراغب (ت 502 هـ)

" **تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين** " ، تقديم وتعليق : أحمد دكار ، دار الغرب للنشر والتوزيع ت ط 2006م

"**المفردات في غريب القرآن** "، تحقيق وضبط : محمد سيد الكيلاني ، دار المعرفة بيروت لبنان

" **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء**" ، دار مكتبة الحياة بيروت لبنان

الأعشى ميمون (ت729 م) ، "كتاب الصبح المنير في كتاب أبي بصير " وهو ديوان شعر ميمون ، مطبعة أدولف هيلز هاوسن ، ت ط 1927 م ،

الألوسي شهاب الدين محمد (ت1270 هـ) ، " روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني" نشر وتصحيح وتعليق : إدارة الطباعة المنيرية ، دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان

الأنصاري زكريا (ت 926 هـ) ، " المقصد لتلخيص ما في المرشد في الوقف والابتداء " ط1 المكتبة الأزهرية للتراث القاهرة مصر ، ت ط 2006م

﴿ ب ﴾

الباجي ، سليمان بن خلف (ت494 ه) ، "المنتقى شرح موطأ مالك " تحقيق :محمد عبد القادر أحمد عطا ، ط1 ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، ت ط1999م

البخاري ، محمد بن إسماعيل (ت 256ه) " الجامع الصحيح " ، تحقيق : محب الدين الخطيب ، ط1 ، المطبعة السلفية القاهرة مصر ، ت ط 1400 ه

البرقوقي عبد الرحمن (ت1363 ه) عبد الرحمن ، "شرح ديوان المتنبي " ، ط 2 ، دار الكتاب العربي بيروت لبنان ، ت ط 1986م

البارودي محمود سامي ، "مختارات البارودي " ، تحقيق : د/ السيد إبراهيم محمد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ت ط 1993 م

البغوي ، الحسين بن مسعود (ت516ه) ، " معالم التنزيل " ، تحقيق : محمد عبد الله النمر و عثمان جمعة ضميرية و سليمان مسلم الحرش ، ط4 ، دار طيبة للنشر والتوزيع ، ت ط 1997م

الباقلاني ، أبو بكر محمد بن الطيب (ت403ه) ، " إعجاز القرآن " ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، ت ط2001م

البنا حسن (ت1949م) ، " أحاديث الجمعة " ، دار الشهاب للطباعة والنشر باتنة الجزائر، ت ط 1988 م

البيضاوي ، ناصر الدين عبد الله بن عمر بم محمد الشيرازي(ت791ه) ، "أنوار التنزيل وأسرار التأويل" حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه وضبط نصه : محمد صبحي حسن حلاف ومحمد أحمد الأطرش، ط1 ، دار الرشيد دمشق سوريا ، ت ط 2000م

البيهقي ،أحمد بن الحسين (ت458 ه) ، "الجامع لشعب الإيمان" تحقيق: مختار أحمد الندوي ، ط1، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع الرياض السعودية ، ت ط2003م

﴿ ت ﴾

الترمذي ، محمد بنُ علي الحكيم (ت320 هـ)

" **رياضة النفس** " ، تحقيق وتعليق : أ.د أحمد عبد الرحيم السايح وأ.د أحمد عبده عوض ، ط1 مكتبة الثقافة الدينية القاهرة مصر ، ت ط 2002 م

" **نوادر الأصول في أحاديث الرسول** " تحقيق: عبد الرحمن عميرة ، دار الجيل بيروت لبنان ، ت ط 1992م

ابن تيمية تقي الدين أحمد بن عبد الحليم (ت 728 هـ)

"**دقائق التفسير**" ، تحقيق د/محمد السيد الجليند ، ط2 ، مؤسسة علوم القرآن دمشق سوريا ، ت ط1984م

" **الفتاوى الكبرى** " تحقيق وتعليق وتقديم : محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا ،ط1، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، ت ط1987 م

﴿ ث ﴾

الثعالبي، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف(ت875 هـ) ، " الجواهر الحسان في تفسير القرآن " تحقيق : الشيخ علي محمد معوض ،والشيخ عادل أحمد عبد الموجود،ط1،دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان ، ت ط1997م

الثعالبي ، أبو منصور(ت429 هـ) : " فقه اللغة وسر العربية " ، حققه ووضع فهارسه : مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي ،ط2 ، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده مصر ت ط1954م

﴿ ج ﴾

الجاحظ(ت255 هـ) أبو عثمان عمرو بن بحر،" رسائل الجاحظ" ، تحقيق وشرح :عبد السلام محمد هارون، ط1 ، مكتبة الخانجي القاهرة مصر ، ت 1979م

الجرجاني ، علي بن محمد الشريف(ت816هـ) ، "التعريفات " مكتبة بيروت لبنان ، ط 1985م

الجرجاني ، عبد القاهر (ت471 هـ) ، "دلائل الإعجاز" ، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، ط1 ، مكتبة الخانجي القاهرة مصر، ت ط 1984م

بن الجزري مجد الدين (ت 606 ه) المعروف بابن الأثير ، " النهاية في غريب الحديث والأثر " ، تحقيق : طاهر أحمد الزاوى و محمود محمد الطناحي ، دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان ت ط 1963م

ابن الجزري ، شهاب الدين (ت835ه) ، " شرح طيبة النشر في القراءات العشر" ، ضبطه وعلق عليه : الشيخ أنس مهرة ، ط2 ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، ت ط 2000 م

الجصاص ، أبو بكر أحمد الرازي (ت370ه) " أحكام القرآن " ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان

ابن جني ، أبو الفتح عثمان(ت392 ه) ،" الخصائص" ، تحقيق : محمد علي النجار ، ط2 ، دار الهدى للطباعة والنشر بيروت لبنان

ابن الجوزي ، جمال الدين عبد الرحمن بن علي (ت 597 ه) ،" زاد المسير في علم التفسير " ط3 ، دار المكتب الإسلامي زهير الشاويش بيروت لبنان ، ت ط 1984م

الجوهري (ت 393 ه)) إسماعيل بن حماد ،" الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية " تحقيق : أحمد عبد الغفور عطار ،ط 4، دار العلم للملايين بيروت لبنان ، ت ط 1990 م

﴿ ح ﴾

حبنك الميداني ، عبد الرحمن حسن" الأخلاق الإسلامية وأسسها " ،ط5 ، دار القلم دمشق سوريا ،ت ط 1999م

ابن حجر ، العسقلاني (ت852 ه) ،

" **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**" تحقيق : تحقيق :عبد القادر شيبة الحمد ،ط 1 ، مكتبة الملك فهد م ع السعودية، ت ط 2001 م

"**الإصابة في تمييز الصحابة** " ، ط1 ،دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان ، ت ط 1328ه

ابن حزم ، الظاهري علي بن أحمد بن سعيد (ت456 ه) "الأخلاق والسير في مداواة النفوس" ، اعتنى بتصحيحه وضبط كلماته : هلال أحمد عمر المحمصاني الأزهري ، اللجنة الدولية لترجمة الروائع بيروت لبنان، ت ط 1961 م

حسان بن ثابت ،بن المنذر الخزرجي(ت54ه) ، " ديوان حسان بن ثابت الأنصاري " ، دار صادر بيروت لبنان

﴿ خ ﴾

ابن خالويه ، الحسين بن أحمد(ت370هـ) " الحجة في القراءات السبع "، تحقيق وشرح :د/ عبد العال سالم مكرم ، ط3 ، دار الشروق بيروت لبنان ، ت ط 1979م

الخطابي ، أبو سليمان حمد بن محمد (ت388 هـ) ، " معالم السنن " وهو شرح سنن الإمام أبي داوود ، طبعه وصححه : محمد راغب الطباخ ،ط1 ، المطبعة العلمية حلب سوريا ، ت ط 1933 م

الخطيب ، عبد الكريم ، "التفسير القرآني للقرآن "، دار الفكر العربي مطبعة السنة المحمدية عابدين مصر، ت ط 1970م

ابن خلكان (ت681 هـ) شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر ،"وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان " تحقيق : د/ إحسان عباس ، دار صادر بيروت لبنان ، ت ط 1994 م

﴿ د ﴾

الدرويش ، محي الدين ، " إعراب القرآن وبيانه ، ط7 ، دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان ،ت ط1999 م

ابن دريد ،محمد بن الحسن (ت 321 هـ) ، " جمهرة اللغة " ، ط1 ، مطبعة مجلس دائرة المعارف حيدر آباد الهند ، ت ط1344 هـ

﴿ ذ ﴾

ذو الرمة (ت117هـ) " ديوان ذي الرمة " ، اعتنى به وشرح غريبة : عبد الرحمن المصطاوي ، ط1 ،دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان ، ت ط 2006 م

﴿ ر ﴾

الرازي ، فخرالدين (ت 604 هـ) " تفسير الفخر الرازي " المشتهر بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب ط1 ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان ، ت ط1981م

رشيد رضا ، محمد (ت 1354 هـ) " تفسير القرآن الحكيم " (المشهور بتفسير المنار) ، ط2 ، دار المنار القاهرة مصر ،ت ط1366 هـ

ابن الرومي علي بن العباس(ت283 هـ) "ديوان ابن الرومي " ، تحقيق : د/ حسين نصار،مطبعة دار الكتب والوثائق القومية القاهرة مصر ، ت ط 1973م

﴿ ز ﴾

الزبيدي ، محمد مرتضى الحسيني (ت1205 هـ) " تاج العروس من جواهر القاموس" تحقيق :عبد الستار أحمد فراج ، دار التراث العربي الكويت ،ت ط1965

الزجاج ، النحوي أبو إسحاق إبراهيم بن السري (ت311هـ) ،"معاني القرآن وإعرابه " تحقيق : د/عبد الجليل عبده شلبي ، ط1 ، دار عالم الكتب بيروت لبنان ، ت ط 1988م

الزرقاني ، محمد عبد العظيم(ت 1367هـ) ،" مناهل العرفان في علوم القرآن "، تحقيق :فواز أحمد زمرلي، ط1 ، دار الكتاب العربي بيروت لبنان ،ت ط1995م

الزركشي ، بدر الدين (ت 794 هـ) ، " البرهان في علوم القرآن " ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ط 1، مكتبة التراث القاهرة مصر ، ت ط1957م

الزركلي ، خيرالدين بن محمود بن محمد(ت 1396هـ) ، " الأعلام " ط 15 ، دار العلم للملايين بيروت لبنان ، ت ط 2002 م

الزمخشري ، أبو القاسم (ت538 هـ)

" **أساس البلاغة** " ، تحقيق : محمد باسل عيون السود ط1، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ، ت ط1998م

" **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**"، تحقيق:الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوَّض ، ط1، مكتبة العبيكات الرياض السعودية، ت ط 1998 م

"**المفصل في صنعة الإعراب**"، **تحقيق د/** علي بوم لحم ، ط1 ، مكتبة الهلال بيروت لبنان ، ت ط 1993م

﴿ س ﴾

السرخسي ، شمس الدين (ت 483 هـ) ، " المبسوط" ، دار المعرفة بيروت لبنان ، ت ط 1989م

أبو السعود ، محمد بن محمد بن مصطفى العمادي (ت 982 هـ) ، " إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم " دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان

السمرقندي (ت375هـ) نصر بن محمد بن إبراهيم ، " بحر العلوم " ، تحقيق: د.محمود مطرجي ، دار الفكر بيروت لبنان

السيوطي ، جلال الدين (ت911 هـ) ، " الإتقان في علوم القرآن "،تحقيق :مركز الدراسات القرآنية مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف السعودية ، ت ط 1426 هـ

ابن سيده ، أبو الحسن علي بن إسماعيل(ت 458 هـ) ،" المحكم والمحيط الأعظم " ،تحقيق: د/ عبد الحميد هنداوي ، ط1 ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ،ت ط 2000م

﴿ ش﴾

الشافعي، محمد ابن إدريس (ت 204) " ديوان الإمام الشافعي " ، اعتنى به : عبد الرحمن المصطاوي ،ط 3 ، دار المعرفة بيروت لبنان ، ت ط 2005 م

الشرباصي ، أحمد ،"موسوعة أخلاق القرآن "، ط2 ، دار الرائد العربي بيروت لبنان ، ت ط 1985 م

الشريف الرضي محمد بن الحسين (406 هـ): "ديوان الشريف الرضي " ، المطبعة الأدبية بيروت لبنان ، ت ط 1307 هـ

شوقي ضيف ،" تاريخ الأدب العربي"العصر الجاهلي ،ط 24 ،دار المعارف القاهرة مصر ، ت ط 2003 م

لشوكاني ، محمد بن علي بن محمد (ت1250هـ) ، " فتح القدير الجامع بين فن الرواية والدراية في علم التفسير " ، مطبعة مصطفى بابي الحلبي وأولاده مصر ، ت ط 1930م

﴿ ص ﴾

لصابوني، محمد علي " فقه العبادات في ضوء الكتاب والسنة "، ط1 ، المكتبة العصرية الدار النموذجية لبنان ، ت ط 2002م

صبحي عبد الرءوف عصر" المعجم الموضوعي لآيات القرآن الكريم " دار الفضيلة للنشر والتوزيع القاهرة مصر ، ت ط1999م

﴿ ط ﴾

الطبرسي ، الفضل بن الحسن (ت548 هـ) ،" مجمع البيان في تفسير القرآن " ، دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر بيروت لبنان

الطبري ، محمد بن جرير (ت310 هـ) ،" جامع البيان في تأويل القرآن "، تحقيق : أحمد محمد شاكر ط 1، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان ، ت ط 2000م

﴿ ع ﴾

ابن عاشور، محمد الطاهر (ت 1393هـ) ، "تفسير التحرير والتنوير " الدار التونسية للنشر تونس ، ت ط 1984

أبو عبيدة ، معمر بن المثنى التيمي (ت210هـ) ،" مجاز القرآن " ،عارضه بأصوله وعلق عليه : محمد فؤاد سركني ، مكتبة الخانجي القاهرة مصر، ت ط 1954م ،

أبو العتاهية ، إسماعيل بن القاسم (ت211هـ) ، "ديوان أبي العتاهية " دار بيروت للطباعة والنشر لبنان، ت ط 1986 م

ابن عرفة ، محمد بن محمد الورغمي (ت803 هـ) ، " تفسير ابن عرفة المالكي " ، تحقيق : د. حسن المناعي ،ط1 ، دار النشر : مركز البحوث بالكلية الزيتونية تونس ، ت ط 1986 م

العسكري ، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل (ت نحو395 هـ)

"**الصناعتين الكتابة والشعر** " – تحقيق: محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، ط2 ، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه ، ت ط 1971م

"**الفروق اللغوية** " تحقبق : محمد إبراهيم سليم ، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع القاهرة مصر، ت ط1997م

ابن عطاء الله ،السكندري (ت709هـ) ، الحكم العطائية ، تحقيق عصام أنس الزفتاوي ،ط1 ، مجموعة زاد الاقتصادية القاهرة مصر، ت ط 2004م

ابن عطية الأندلسي ، عبد الحق بن غالب (ت 546 هـ) " المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز " تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد ، ط1 ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، ت ط 2001م

ابن عقيل ، بهاء الدين الهمداني (ت769هـ) ، " شرح ابن عقيل "، ط 20 ، دار التراث القاهرة مصر ،ت ط 1980 م

عنترة بن شداد العبسي (ت22ق هـ) " ديوان عنترة "، ط 4 ، مطبعة الآداب لأمين الخوري بيروت لبنان ، ت ط 1893 م

﴿ غ ﴾

الغزالي ، أبو حامد (ت 505 هـ) ، "إحياء علوم الدين" وبهامشه تخريج الحافظ العراقي ،تحقيق محمد الخضر حسين ، دار الكتاب العربي بيروت لبنان

﴿ ف ﴾

ابن فارس ، أحمد (ت نحو 395 هـ) ،

"**الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها** "، ط1 ، المكتبة السلفية القاهرة مصر، ت ط 1910م

"**معجم مقاييس اللغة** " تحقيق وضبط : عبد السلام محمد هارون ، دار الفكر للطباعة والنشر بيروت لبنان ، ت ط 1389هـ

فؤاد عبد الباقي محمد (ت1388 هـ) ،" المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم "، ط 1، دار الكتب المصرية القاهرة مصر، ت ط 1945م

أبو فراس الحمداني ، الحارث بن سعيد(ت357 هـ) ، " ديوان أبي فراس الحمداني "، المطبعة الأدبية بيروت لبنان ، ت ط 1910 م

الفراهيدي الخليل بن أحمد (ت170هـ) ، " كتاب العين " مرتبا على حروف المعجم ، ترتيب وتحقيق : د/عبد الحميد هنداوي ، ط1 ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، ت ط2003م

الفيروز آبادي ، مجد الدين محمد بن يعقوب (ت 817 هـ) " القاموس المحيط " ، ط3 ، الهيئة المصرية العامة للكتاب مصر ، ت ط 1979م

﴿ ق ﴾

ابن قدامة المقدسي (ت682 هـ) ، " الشرح الكبير "

القرطبي ، محمد بن أحمد (ت671 ه) ، " الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان "، تحقيق : د/عبد الله بن المحسن التركي ، ط1، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع بيروت لبنان ، ت ط 2006 م

القرضاوي يوسف

" **الصبر في القرآن** "، ط3، مكتبة وهبة القاهرة مصر، ت ط1989 م

" **فقه الزكاة** " ، ط 2 ، مؤسسة الرسالة للنشر والتوزيع بيروت لبنان ت ط 1973 م

"**مدخل لمعرفة الإسلام** " ، ط1 ، مؤسسة الرسالة للنشر والتوزيع بيروت لبنان

القزويني ، جلال الدين الخطيب (ت739 ه) " الإيضاح في علوم البلاغة :المعاني والبيان والبديع" دار الكتب العلمية بيروت لبنان ،ت ط 2003م

القشيري ، عبد الكريم (ت465 ه)

" **الرسالة القشيرية** " ، وضع حواشيه : خليل المنصور، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، ت ط 2001م

" **تفسير القشيري** " ، تحقيق : عبد اللطيف عبد الرحمن ، تن ط2000 م

قطب سيد (ت1387 ه) " في ظلال القرآن " ، ط9 ، دار الشروق بيروت لبنان ، ت ط 1980م

قلعجي محمد " معجم لغة الفقهاء " قاموس عربي إنجليزي ، ط2، ،دار النفائس للطباعة والنشر بيروت لبنان ، ت ط 1988م

ابن قيم ، الجوزية (ت751ه)

" **الداء و الدواء** " تحقيق : محمد أجمل الإصلاحي ، ط 1 ، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع مكة المكرمة السعودية ، ت ط 1429 ه

"**زاد المعاد في هدى خير العباد** " ، راجعه وقدم له طه عبد الرءوف طه ، دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان

" **عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين** "، ط4 ، منشورات دار الأفاق الجديدة بيروت لبنان ، ت ط 1980م

﴿ ك ﴾

ابن كثير ، عماد الدين أبو الفدا اسماعيل (ت 774هـ)، " تفسير القرآن العظيم "، تحقيق : مصطفى السيد محمد ومحمد السيد رشاد ومحمد فضل العجماوي وعلي أحمد عبد الباقي وحسن عباس قطب ، ط1 ، مؤسسة قرطبة للطباعة والنشر والتوزيع الجيزة مصر ، ت ط 2000 م

الكرمي ، أبو بكر (ت1033 هـ) ، " قلائد المرجان في بيان الناسخ والمنسوخ في القرآن "

﴿ م ﴾

د/ ماضي محمود ، "سياحة إيمانية في سورة يوسف"،ط1، دار المجتمع للنشر والتوزيع جدة السعودية ، ت ط1993م

الإمام مالك ، بن أنس(ت 179هـ) ، " المدونة الكبرى " ط1 ، دار الكنب العلمية بيروت لبنان ت ط 1994م

الماوردي ، أبو الحسن (ت450 هـ) ، " النكت والعيون" ، تحقيق : السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم ، دار الكتب العلمية بيرون لبنان

المباركفوري ، محمد عبد الرحمن (ت 1353هـ) ،"جامع الترمذي مع شرح تحفة الأحوذي" ط3 ، دار الكتاب العربي بيروت لبنان ،ت ط 1984م

المبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد (ت285 هـ)، " الكامل " حققه وعلق عليه ووضع فهارسه : د/ محمد أحمد الدالي ،ط3، مؤسسة الرسالة بيروت لبنان ، ت ط 1997 م

محمد علي أبو حمدة ، " في التذوق الجمالي لسورة يوسف" دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع عين مليلة الجزائر، ت ط1992م

محمد عيد إسبر وبلال جنيدي ،"الشامل" وهو معجم في علوم اللغة العربية ومصطلحاتها ،ط1 ، دار العودة بيروت ، ت ط1981 م

المرادي الحسن بن قاسم (ت749هـ) ، " الجني الداني في حروف المعاني " تحقيق :د/ فخر الدين قباوه أ/ محمد نديم فاضل ،ط 1 ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، ت ط 1992 م

المرزوقي ، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن (ت421هـ) ، " شرح ديوان الحماسة " ، نشره :أحمد أمين وعبد السلام هارون ، ط1 ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة مصر، ت ط 1951م

امرؤ القيس : "ديوان امرئ القيس " ، اعتنى به وشرحه : عبد الرحمان المصطاوي ، ط2 ،دار المعرفة بيروت لبنان ، ت ط 2004 م

ابن المطرز ، أبو الفتح ناصر الدين (ت 610 هـ) ، "المغرب في ترتيب المعرب " تحقيق : محمود فاخوري وعبد الحميد مختار ، ط1 ، مكتبة أسامة بن زيد حلب سوريا ، ت ط 1979م

المقري ، ابن سلامة بن نصر (ت410 هـ) ، " الناسخ والمنسوخ في القرآن الكريم " ، تحقيق :زهير الشاويش ومحمد كنعان ، المكتب الإسلامي بيروت لبنان

مكي بن أبي طالب ، القيسي (ت437 هـ) ،" مشكل إعراب القرآن " ، تحقيق : ياسين محمد السواس، مطبعة دار الكتاب دمشق سوريا ، ت ط 1974م

ابن منظور (ت711 هـ) محمد بن مكرم " لسان العرب" تحقيق : أ. عبد الله علي الكبير ، أ. محمد أحمد حسب الله أ .هاشم محمد الشاذلي ،دار المعارف القاهرة مصر، ت ط1981 م

الميداني (ت518هـ) ، "مجمع الأمثال " تحقيق محمد محي الدين عبد الحليم ، مطبعة السنة المحمدية القاهرة مصر، ت ط1955م

﴿ ن ﴾

النحاس ، أبو جعفر (ت338 هـ) ، " الناسخ والمنسوخ "

أبو نواس (ت198 هـ) ، ديوان أبي نواس ط 1 ، المطبعة العمومية بمصر ، ت ط 1898 م

النووي (ت 676 هـ) ، " صحيح مسلم بشرح النووي " ط1 ، المطبعة المصرية بالأزهر مصر ، ت ط1929م

﴿ هـ ﴾

الهاشمي، أحمد ، " جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع " ،ضبط وتحقيق وتوثيق: د/ يوسف الصميلي، ط1 المكتبة العصرية بيروت لبنان ،
ت ط1999 م

الهاشمي ، عبد الحميد محمد ،" لمحات نفسية في القرآن الكريم " ، مكتبة رحاب الجزائر

ابن هشام الأنصاري (ت761هـ) ، "مغني اللبيب عن كتب الأعاريب " ، تحقيق وشرح : د/ عبد اللطيف محمد الخطيب ، دار التراث العربي الكويت

ابن هشام البصري (ت 213 هـ) جمال الدين ، "مختصر سيرة ابن هشام "، دار النهضة الجزائر

فهرس الآيات القرآنية

الآية	الرقم	الصفحة
﴿ البقرة ﴾		
الٓمٓ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝	1	ب
قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ	110	173
كُتِبَ عَلَيۡكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ	179	26
وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ	195	85
لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ	272	80 / 79
يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ	272	143
تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ	272	183/ 98
فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ	281	11
﴿ آل عمران ﴾		
زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ	14	36/ 33
وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ	97	42
إِذۡ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمۡ أَن تَفۡشَلَا	122	156
ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ	154	156
۞ لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ	186	26
﴿ النساء ﴾		
وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ	5	27
وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ	6	111
وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ	6	143/ 79
وَلۡيَخۡشَ ٱلَّذِينَ لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ	9	9

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ	10	119
وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ	25	138/ 133/130
وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ	27	36
وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ	28/27	11
وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ	74	10
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ	75	11
إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ	96	10
وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ	112	156
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ	173	173
﴿ المائدة ﴾		
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟	11	157
﴿ الأنعام ﴾		
فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا	45	41
﴿ الأعراف ﴾		
وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَىٰهُمْ	45	98
وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا	47	98
وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ	52	د
قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ	74	9
وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟	137/136	9
وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ	150	76
وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى	176	45
وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ	179	40

﴿ الأنفال ﴾

وَاذْكُرُوٓاْ إِذَ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ	26	11
إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ	36	27

﴿ التوبة ﴾

أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ	13	157
يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ	75	157
وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ	87	137

﴿ يونس ﴾

وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ	88	27

﴿ هود ﴾

قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا	91	11

﴿ يوسف ﴾

وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا	23	149
قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ	23	182/ 170 / 4
إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ	24	159
وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا	24	172 / 156
وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ	25	182
قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى	26	149
* وَقَالَ نِسْوَةٌ فِى ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ	30	150
قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا	30	151
فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ	31	151
وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ	32	159/ 150
قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ	33	184/ 170/ 160
وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ	34/33	183

قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ	51	150
۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ	53	178
قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ	55	ز / 176
قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ	61	150
وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ	86/ 84	76
قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ	92	181
وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ	100	180
﴿ الرعد ﴾		
وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ	7	29
﴿ إبراهيم ﴾		
وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ	9	29
﴿ الحجر ﴾		
فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى	29	أ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ "	75	99
﴿ النحل ﴾		
وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ	16/ 15	99
وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ	44	47
ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ	125	155
﴿ الإسراء ﴾		
وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ	32	174
وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ	70	44
﴿ الكهف ﴾		

وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ	35	32
﴿ مريم ﴾		
خَلْفٌ أَضَاعُوا۟	59	36
﴿ طه ﴾		
قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا	71	4
فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ	117	5
﴿ الأنبياء ﴾		
أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً	24	172
كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ	35	20
﴿ المؤمنون ﴾		
وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا	118	173
﴿ النور ﴾		
قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ	30	72
وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا	33	127 / 79
وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ	58	131 / 80
﴿ الشعراء ﴾		
يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ	89 / 88	ب/ 182
وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ	195/ 192	49
﴿ النمل ﴾		
قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ	41	21
أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ	66	172
وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً	90	87
﴿ القصص ﴾		

قَالَتِ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ	26	177
ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ	32	172
وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا	75	172
وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ	77	53
قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ	78	32
فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ	79	31
﴿ الروم ﴾		
فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا	29	39
ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضُعْفٍ	53	7
﴿ فاطر ﴾		
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ	15	114
ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا	32	53
﴿ الصافات ﴾		
وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ	84 /83	ج
﴿ ص ﴾		
وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ	77	ب
قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ	82/81	159
﴿ الزمر ﴾		
ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ	17	125
﴿ غافر ﴾		
حمٓ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ	2/ 1	137

وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَاخُذُوهُ	4	156
شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ	3	136
﴿ الشورى ﴾		
وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ	25	31
﴿ الأحقاف ﴾		
تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟	24	41
﴿ محمد ﴾		
وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ	31	98
﴿ الفتح ﴾		
سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ	29	98
﴿ النجم ﴾		
فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ	31	180
﴿ القمر ﴾		
وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ	37	150
﴿ الرحمن ﴾		
ٱلرَّحْمَـٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ	2/1	49 / 46
يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَـٰهُمْ فَيُؤْخَذُ	40	98
﴿ الجمعة ﴾		
فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى	10	87
﴿ الطلاق ﴾		
وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا	3/2	138
﴿ المعارج ﴾		
إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا	21/19	18
وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ	31/ 29	127

﴿ نوح ﴾

فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ	11/10	25

﴿ المزمل ﴾

فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ	18	87

﴿ القيامة ﴾

كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ۝	20/19	ز

﴿ الإنسان ﴾

۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ	19	92
وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا	20	5

﴿ الإنفطار ﴾

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ	1	39

﴿ البروج ﴾

إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ	12	29

﴿ الأعلى ﴾

بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا	17/16	52

﴿ الفجر ﴾

فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ	18 / 15	24 / 22
وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا	22	23

﴿ الشمس ﴾

وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا	10/7	أ

قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝ 10/ 9 52

﴿ العاديات ﴾

وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلۡخَيۡرِ لَشَدِيدٞ 8 25

فهرس الأحاديث النبوية

الحديث الصفحة

﴿ أ ﴾

" اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله..... 101
"ألا إن بني آدم خلقوا طبقات شتى..." 41
"اللهم هذا قسمي فيما أملك فلا تلمني ..." 75
" أنا سيد ولد آدم ولا فخر..."... 180
" إن أبا سفيان رجل شحيح ... "..... 116
" إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنْ الزِّنَا أَدْرَكَ..."..... 73
"إن من البيان لسحرا ..."..... 48

﴿ ح ﴾

"حُفَّتْ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتْ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ" 35

﴿ خ ﴾

" خرج رسول الله ﷺ .....يختصمون في القدر..."..... 76

﴿ س ﴾

"سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ..."..... 182.

﴿ ع ﴾

"عجبت من قضاء الله عز وجل للمؤمن ..." 22

﴿ ف ﴾

" فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه ...." ..... 119 .
" فينا نزلت " إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا..."... 158

﴿ل﴾

" لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن..."..... 16/ 179

" لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه..."..... 51

" لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى..."..... 25

"ليس الغني عن كثرة العَرَض ولكن الغنى غنى النفس .."..... 114

"ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان ولا القمة واللقمتان ..."..... 105

﴿م﴾

" ما أيس الشيطان من شيء إلا أتاه من قبل النساء"..... 34

" مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنْ النِّسَاءِ..."..... 34

"ما من مولود إلا يولد على الفطرة ،فأبواه..."..... 39

" من استغنى أغناه الله عز وجل ومن استعف ..."..... 105

"من سأل وله أوقية أو عدلها فقد سأل إلحافا ..."..... 105

"من كان غنيا فليستعفف...أنها نزلت في مال اليتيم ..." 112

﴿ن﴾

"نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ...."..... 27

﴿ي﴾

"يا عقبة صل من قطعك ..."..... 147

"يا غلام إني أعلمك كلمات أحفظ الله يحفظك....." 184

" يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ مَنْ اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ .." 129

فهرس الأبيات الشعرية

صدر البيت — الصفحة

﴿ أ ﴾

أبصرت ثم هويت ثم كتمت ما 64

أهجر ليلى بالفراق حبيبها 24

إذا رمت لقياها عداني مراقب..... 69

أطوفُ بها شوقاً وأُمسكُ عفَّةٍ..... 69

أصولٌ على أبناءِ جِنسي وأرْتقي 63

أعِفَّةٌ ذُكِرتْ في الوحي عِفَّتُهم..... 65

إني امْرُؤٌ سَهلُ الخليقةِ ماجِـــدٌ..... 63

﴿ خ ﴾

خلونا فكانت عفة لا تعفف..... 69

﴿ س ﴾

سلو مضجعي عنِّ وعنها فإننـــا 69

﴿ ط ﴾

طلبت الغنى في كل وجه فلم أجد..... 66

﴿ ظ ﴾

الظلم من شيم النفوس فإن تجد..... 67

﴿ ع ﴾

عفافك غي إنما عفة الفتى 68

عفيف تروق الشمس صورة وجهه 68

﴿ غ ﴾

غنى المرء ما يكفيك من سد خلة 114/66

غني بلا مال عن الناس كلهم..... 114

﴿ ف ﴾

فو الله لا يبدي لساني لحاجـــة 66
فوصلتُ ثمَّ قدرتُ ثمَّ عففْتُ..... 64

﴿ ق ﴾

قوم إذا لبسوا الدروع حسبتها 93

﴿ ك ﴾

كل الحوادث مبدأها مـــن النظر 183
كم نظرة بلغت من قلب صاحبها 183

﴿ ل ﴾

لقد زادني تيها عن الناس أنني 66

﴿ م ﴾

ما إن جزعت ولا هلعت..... 19
ما تعادى عنه النهار..... 58

﴿ هـ ﴾

هممت بهمٍّ من بثينة لو بدا 160

﴿ و ﴾

وأُجيبها إما دَعَت لعظيمةٍ 63
وإذا هممت بمن أحب أمالني 69
وأعيشُ بالبلل الذي لو أنـــهُ..... 68
وَأُغَضُّ طَرْفي ما بَدَتْ لِي جارتي 63
ولا أُشارِكُ في رَأيِ أَخا ضَعَفٍ..... 6
ولا يَضَنُّونَ عَنْ مَوْلًى بِفَضْلِهِمِ..... 65
ولا عفـــةٌ في سيفـــهِ وسِنانه 67
ولا عيبَ إلاَّ عيبُ من يملك الغنى..... 66

ولست بسائل جارات بيتي 65
وللحلم أقات وللجهل مثلها 63
وما الفقر عيبا ما تجمل أهله..... 66
ومن يلق خيرا يغمز الدهر عظمه 6
ويزيدني عدم الدراهم عفة 69

﴿ ي ﴾

يخبرك من شهد الوقيعة أنني 64
يَرَوْن احتِمالي عِفَّةً فيُريبُهم..... 63

فهرس الموضوعات

مقدمة ....ص: أ

الفصل الأول

طبيعة النفس البشرية كما جاءت في القرآن الكريم

المبحث الأول : الصفات السلبية..... ص : 6

المطلب الأول : الإنسان ضعيف بطبعه.....ص : 6

المطلب الثاني : الإنسان هلوع بطبعه..... ...ص: 17

المطلب الثالث : الإنسان محب للمال بطبعه.....ص:23

المطلب الرابع : الإنسان محب للشهوات بطبعه .....ص :33

المبحث الثاني : الصفات الإيجابية.....ص:38

المطلب الأول : الإنسان مؤمن بالفطرة ص:38

المطلب الثاني : الإنسان يملك الاستعداد للبيان.....ص:46

المطلب الثالث : قابلية النفس البشرية للترويض.....ص: 52

الفصل الثاني

العفة في اللغة والاصطلاح

المبحث الأول : العفة في المعاجم اللغوية ص:56

المبحث الثاني : العفة في الشعر العربي ص:63

المبحث الثالث: العفة في اصطلاح العلماء ص:71

الفصل الثالث

العفة كما جاءت في القرآن الكريم

المبحث الأول : ورود مصطلح العفة في القرآن ص:79

المبحث الثاني : الآيات التي تناولت العفة دون ذكر المصطلح .....ص: 133

الفصل الرابع

يوسف عليه السلام المثل الأعلى للعفة

المبحث الأول : العفة عن شهوة الفرج ص:149

المطلب الأول : حقيقة المراودة .....ص: 149

المطلب الثاني : حقيقة الهمّ ص:156

المطلب الثالث : حقيقة البرهان..... ....ص:172

المبحث الثاني : العفة عن شهوة المال ص:176

المبحث الثالث : العفة عن شهوة حب الجاه .....ص :178

المبحث الرابع : طريق اكتساب العفة ص:181

الخاتمة ص:185

الفهارس ص:193

فهرس المصادر والمراجع..... ... .ص:194

فهرس الآيات القرآنية ص:207

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة ص:216

فهرس الأبيات الشعرية ص:218

فهرس الموضوعات..... ص:221